٢١

809
A51kA
v.2
pt.2
c.1

لجنة التأليف والترجمة والنشر

قصة الأدب في العالم

كتاب في ثلاثة أجزاء يعرض الأدب في عصوره المختلفة
قديمه ووسيطه وحديثه — في الشرق والغرب
مع نماذج من كل أدب

تصنيف

أحمد أمين و زكي نجيب محمود

القسم الثاني

من

الجزء الثاني

في الأدب الغربي في القرن الثامن عشر
والأدب الشرقي من سقوط بغداد إلى مبدأ القرن التاسع عشر

كتب فصل الأدب الفارسي

الدكتور عبد الوهاب عزام

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م

208
K7H5A

بسم الله الرحمن الرحيم

علم العلوم بين السنة

[illegible]

[illegible]

[illegible]

مقدمة

وهذا هو القسم الثانى من الجزء الثانى ، عرضنا فيه للأدب الفرنسى والإنجليزى والألمانى فى القرن الثامن عشر .

وألقينا نظرة خاطفة على الأدب العربى من سقوط بغداد إلى أوائل القرن التاسع عشر ، ولم نتوسع فيه توسعنا فى غيره لأنه موضوع قريب المنال لقراء العربية ، ألفت فيه الكتب الكثيرة مجملة ومفصلة ، وآثرنا أن نتوسع فى الأدب الأجنبى المجهول عند أكثر قراء العربية .

وقد تكفل صديقنا الدكتور عبد الوهاب عزام بكتابة الفصل الخاص بالأدب الفارسى من غزوة التتار إلى آخر الدولة الصفوية ، أى إلى منتصف القرن الثانى عشر الهجرى .

وبقى من فصول قصة الأدب فى العالم الفصل الذى يمثل الأدب من ابتداء القرن التاسع عشر إلى اليوم ، وهذا هو موضوع الجزء الثالث من هذا الكتاب .

والله المسئول أن ينفع به ويعين على إتمامه ؟

١٠ ذو القعدة سنة ١٣٦٤
١٦ اكتوبر سنة ١٩٤٥

أحمد أمين

شعر

[illegible]

[illegible]

[illegible]

فهرس القسم الثانى من الجزء الثانى

الموضوع	الصفحة
الفصل الحادى عشر	
الأدب الفرنسى فى القرن الثامن عشر	٣٣٧
(ا) النثر — مونتسكيو ٣٤٠ — ڤولتير الناثر ٣٤٢ — ديدرو ٣٥٣ — جان جاك روسو ٣٥٦	
(ب) الشعر ٣٦١ — ڤولتير الشاعر ٣٦١ — جان باپتست روسو ٣٦٢ — جرسيه وفلوريان ٣٦٤ — أندريه شينييه ٣٦٤	
(ح) الأدب المسرحى ٣٦٧ — (١) المأساة ٣٦٧ — كربيون ٣٦٧ — ڤولتير فى المأساة ٣٦٨ — (٢) الملهاة ٣٦٩ — ماريڤو ٣٦٩ — بومارشيه ٣٧٠	
(د) القصة ٣٧١ — لى ساج ٣٧٢ — ماريڤو القصاص ٣٧٣ — پريڤو ٣٧٣	
الفصل الثانى عشر	
الأدب الانجليزى فى القرن الثامن عشر	٣٧٥
(ا) النثر — سوفت ٣٧٥ — أدسن وستيل ٣٨٢ — دفو ٣٨٧ — رتشردسن ٣٨٨ — هنرى فيلدنج ٣٩١ — سمولت ٣٩٤ — لورنس ستيرن ٣٩٦ — جولد سمث ٣٩٩ — جونسن ٤٠١ — ادورد جبن ٤٠٧ ادمند بيرك ٤١٠	
(ب) الشعر ٤١٣ — الكسندر پوپ ٤١٤ — چيمس تومسن ٤٢١ — تومس جراى ٤٢٣ — وليم كوپر ٤٢٥ — جولد سمث الشاعر ٤٢٨ — روبرت بيرنز ٤٣٠	
(ح) المسرح ٤٣٥ — الملهاة ٤٣٦ — كمبرلاند ٤٣٦ — جولدسمث الروائى	٤٣٦

الموضوع — الصفحة

الفصل الثالث عشر ... ...

الأدب الألمانى فى القرن الثامن عشر ٤٣٩

جيته ٤٤٠ — لسنج ٤٤٧ — شلر ٤٥٣ ... ...

الفصل الرابع عشر ... ...

الأدب العربى من سقوط بغداد الى نهاية القرن الثامن عشر ٤٥٦

سقوط بغداد على يد التتار وأثره فى العلم والأدب ٤٥٦ ... .

(ا) الشعر ، موضوعاته وأساليبه وخصائصه ٤٦١ — صفى الدين الحلى ٤٦٥

ابن نباتة ٤٦٧ — الشاب الظريف ٤٦٩ — سراج الدين الوراق ٤٧٠

ابن الوردى ٤٧٠ — ابن حجة ٤٧١ — عبد الغنى النابلسى ٤٧١

عائشة الباعونية ٤٧١ — عبد الله الشبراوى ٤٧١ — الشعر الشعبى ٤٧٤

(ب) النثر ٤٧٥ — ديوان الإنشاء ٤٧٥ — الإخوانيات ٤٧٧ — أشهر

الكتاب : القلقشندى ٤٧٨ — بدر الدين الحلبى ٤٧٩ — لسان الدين

ابن الخطيب ٤٨١ — شهاب الدين الخفاجى ٤٨٣ — مؤلفو المختارات ٤٨٦

(ح) القصة ٤٨٦ — المقامات ٤٨٦ — ألف ليلة وليلة ٤٨٧ — قصة

عنترة ٤٨٨ — قصة بنى هلال ٤٨٨ ... ...

(ى) التصوف والفلسفة ٤٨٩ — عبد الوهاب الشعرانى ٤٩٠ — بهاء الدين

العاملى ٤٩٠ — صدر الدين الشيرازى ٤٩١ ... ...

(ه) التأليف والمؤلفون ٤٩١ — النويرى ٤٩٢ — ابن فضل الله العمرى ٤٩٢

القلقشندى ٤٩٣ — المؤرخون ٤٩٣ — ابن خلكان ٤٩٣ —

ابن طباطبا ٤٩٤ — أبو الفداء ٤٩٤ — الذهبى ٤٩٤ — لسان الدين

ابن الخطيب ٤٩٥ — ابن الفرات ٤٩٥ — ابن خلدون ٤٩٥ —

المقريزى ٤٩٧ — ابن عربشاه ٤٩٨ — ابن تغرى بردى ٤٩٩ —

المقرى ٤٩٩ — ابن بطوطة ٤٩٩ ... ...

الموضوع الصفحة

معاجم اللغة ٥٠٠ ... ...
الموسوعيون : جلال الدين السيوطى ٥٠٠ — حاجى خليفه ٥٠١ ... ...
نظرة عامة فى الأدب العربى ٥٠٢ ... ...

الفصل الخامس عشر ... ...

الأدب الفارسى من غارات التتار الى انقضاء الدولة الصفوية = القرن السابع الهجرى الى منتصف القرن الثانى عشر ٥٠٥
(ا) عصر التتار ٥٠٧ -- حافظ الشيرازى ٥٠٨ — رشيد الدين وكتابه جامع التاريخ ٥١٤ ... ...
(ب) عصر التيموريين ٥٢٠ — تيمور لنك وأولاده ٥٢٠ — العلماء والكتاب والشعراء ٥٢٤ — عبد الرحمن الجامى ٥٢٥ ... ...
(ح) عصر الدولة الصفوية ٥٣٨ — صفى الدين الأردبيلى ٥٣٨ — المذهب الشيعى ٥٣٩ — الأدب فى عهد الصفويين ٥٤١ — مراثى أهل البيت ٥٤٣ التصوف ٥٤٧ — هاتف الإصفهانى ٥٤٨ — صائب الإصفهانى ٥٥٣ بهاء الدين العاملى ٥٥٥ ... ...

النظام السياسى فى القرن السابع عشر وحدةً فى الأدب بأن ساد المذهب الاتباعى كما رأينا ، فقد أنتج اضطراب القرن الثامن عشر تفككا لتلك الوحدة وانحلالاً لذلك المذهب ؛ وقد بدأ التدهور السياسى منذ أواخر عهد لويس الرابع عشر ، ثم تولى البلاد بعده وصىٌّ كان داعية للفساد الخلق بفساده ، ثم جاء لويس الخامس عشر . فكان فاجرا عربيدا فى غير حياء ولا خجل ، وبذلك وصم الملكية بوصمة العار ، وأعقبه حفيده الضعيف المسكين المنكود ؛ وهكذا ساءت الحكومة فى البلاد وأصابها الوهن أعواما طوالا ؛ فماذا ينشأ عن هذا فى أنفس الناس غير التذمر والتبرم ؟ ثم إلى أى شىء ينتهى الشعب الساخط المتذمر إن لم ينته إلى ثورة كبرى تكتسح أمامها كل شىء ؟

وتريد الأيام أن تتآمر العوامل وتتحد لتنتهى إلى نتيجة بعينها ، فلئن كان الحكم السىء قد أدى إلى قلق فى النفوس ، فقد زادت من ذلك القلق النفسى روح التشكك التى نشأت عن ازدهار العلوم ورقيها ؛ كما زاد منه موقف الكنيسة التى كانت فيما سبق حصنا قويا يعمل على الحكم المطلق فى شئون الدين كما كانت الملكية تعمل عليه فى أمور الدولة . لكن شاء التعصب الأعمى لرجال الكنيسة أن يقفوا فى وجه الرقى والتقدم مع ما أصابهم من تحلل خلقى بغيض ، فكان أن نفر الناس منهم ونظروا إليهم بعين الشك والريبة ؛ ومن هنا رأيت التشكك فى أواخر القرن الثامن عشر سمةً بارزة فى رجال الفكر إذ ذاك ، فجاء هذا التشكك العقلى فى سلامة الأوضاع العتيقة عاملا آخر أدى إلى الثورة عليها وتحطيمها ، فلم يَعُدْ لشىء قداسةٌ فى أعين الناس ، وأخذوا يسألون عن كل شىء ويَتَحَدَّوْن كل سلطة ، ورفضوا أن يكون للعهد الماضى سلطان على حياتهم الحاضرة .

قلنا إن انحلال السلطة السياسية فى فرنسا بدأت بوادره فى أواخر عهد لويس الرابع عشر نفسه ، ولم يَعُدْ للقصر تلك الكلمة العليا التى كان يفرضها على الثقافة فى البلاد ، وانتقل الحكم فى ذلك من فرساى إلى الشعب فى باريس ؛ فمن علائم هذا التحول عودة « الصالونات » الأدبية إلى الظهور بعد أن طمسها قصر فرساى حينا من الدهر ؟ لكن تلك « الصالونات » لم تعد — على نحو ما كانت فى العهد السابق — تَنْصرف بجهدها إلى تحديد الأوضاع الملائمة فى دنيا الحب والغزل والبِدْع ، بل أصبحت مراكز فلسفية يؤمها قادة الفكر ليكون أهم ما يتحدثون فيه شئون العلم والسياسة والاجتماع ؛ ونشأ إلى جانب

«الصالونات» رأى عام ما لبث أن أصبح أقوى عوامل التوجيه فى مجرى الحياة الفرنسية، وبات تطور الأدب فى فرنسا فى القرن الثامن عشر مرهونا بالحالة الاجتماعية للطبقة الوسطى، لما أصابته التجارة والصناعة من رقى بعيد؛ ذلك لأن هذا التحول الاقتصادى كان من شأنه أن تثرى طبقات الشعب العاملة، وأن تزداد قوتها فى السياسة ازديادا مطردا، وأن تكوّن الجمهور القارىء الذى يتجه إليه الأدباء حين يكتبون.

وأضيف إلى هذه العوامل السياسية والاجتماعية عاملٌ جديد كان له فى الأدب الخالص أكبر الأثر، ونعنى به تياراً أدبيا أخذ يتدفق من إنجلترا إلى فرنسا فيفعل فعله فى أدبائها؛ وهذه حقيقةٌ تستوقف النظر، لأن أنصار الاتّباع فى فرنسا إبّان القرن السابع عشر أغمضوا عيونهم عن الأدب الإنجليزى، بل جهلوه جهلا كاد أن يكون تاما؛ فشيخ النقد الأدبى فى فرنسا فى ذلك العهد — بوالو — مثلا — لم يكن يدرى شيئاً عن «الفردوس المفقود» لِمِلْتُنْ، فكتب عن فن الملحمة، ولكنه لم يذكر شيئاً عن أعظم ملاحم العصر الحديث، وعنى بأدب السخرية والهجاء؛ ولكنه لم يعلم شيئاً عن شيخ الهجاء فى الأدب الإنجليزى «چون دريدن»! أما فى القرن الثامن عشر فقد انعكس الوضع وأخذ الفكر الإنجليزى والأدب الإنجليزى يشقان طريقهما إلى فرنسا. فكان من أثرهما أن تحطمت قواعد الاتّباع فى الأدب، وأن ذاعت فى رجال الفكر من الفرنسيين مبادىء الحرية والتسامح الدينى، وحقوق الأفراد، واحترام الصناعة والتجارة.

وظاهرة أخرى فى الأدب الفرنسى فى القرن الثامن عشر جديرة بالذكر، وهى أنه اتُّخِذ وسيلة لتحقيق أغراض عملية، فلم يعد الأدبُ أدبا خالصاً مقصوداً لذاته، بل أصبح أداة لنقل الأفكار إلى جمهور القراء، أو بعبارة أخرى أصبح أدب القرن الثامن عشر فى فرنسا «أدبا تطبيقيا» لا «أدبا بحتاً» — إن صح لنا أن نستخدم ما يقال فى الرياضة والعلوم عند قسمتها إلى ما هو «بَحْتٌ» وما هو «تطبيقى» — فالقطعة الأدبية باتت تُقَوَّمُ بمحصولها الفكرى لا بجمالها الفنى؛ وانظر فى آيات ذلك العصر، تجدها لا تدل على الخيال المبتكر المبتدع، بل هى عبارة عن رسائل سياسية، مثل «روح القوانين» لمونتسكيو، و«العقد الاجتماعى» لروسو، أو رسائل فى التربية مثل «إميل» لروسو، أو أبحاث فى العلوم والتاريخ وما إلى ذلك. بل إن الشعر والمسرحية اتُّخذت كذلك وسائل

لغايات ، فأصبح الأدب كله أدوات للدعاية السياسية على أيدى « الفلاسفة » — كما كان يُسَمَّى رجال الفكر فى الحركة الثقافية الجديدة — يحاربون بها النظم القائمة فى الكنيسة والدولة معاً ، وينشرون بها آراءهم الجديدة فى الدين والسياسة ؛ فلا غرابة إن قلنا — بعد ذلك كله — إن أدب القرن الثامن عشر هو الذى مَهَّدَ للثورة الفرنسية .

(١) النثر :

(1755_1689)

مونتسكيو Montesquieu (١٦٨٩ — ١٧٥٥) :

ولد قريباً من بوردو ، من أسرة اشتهر أبناؤها فى القضاء والقانون ، ولهذا اشتغل بالقانون جريا على سُنَّة أهله ، وأصبح مستشاراً فى محكمة بوردو وهو فى عامه الخامس والعشرين ، ثم أعقب عمه فى رئاسته بعد ذلك بعامين ؛ ولكنه كان قد درس « نيوتن » وانهمك فى المطالعة العلمية ، وانتخب عضواً فى المجمع الفرنسى ؛ ولم يكد يتم انتخابه هذا حتى أنفق ثلاثة أعوام يرتحل فى أنحاء أوربا باحثاً فى الأحوال الاجتماعية والنظم السياسية لكل دولة حلّ فى أرضها ؛ وقضى نصف هذه المدة فى إنجلترا وحدها ، حيث انصرف بكل مجهوده إلى دراسة « لوك » ودرس مبادىء الدستور الإنجليزى ، ثم عاد إلى بلاده ينشىء ويكتب .

كان مونتسكيو فى كتابته مصلحاً ينشد الحرية لقومه ، لكنه لم يكن فى إصلاحه المنشود حالما كما كان « روسو » ؛ بل لم يكن ثائراً يريد هدم النظام القائم وكفى ، إنما كان أرستقراطيا محافظا لا تدفعه النزعة إلى الإصلاح إلى أن ينكر على طبقةٍ حقوقها وامتيازاتها ؛ وكان مما كتبه مونتسكيو كتابه فى التاريخ « تأملات فى أسباب مجد الرومان وانحلالهم »[١] . ولا شك أنه قد طالع قبل أن يكتب مؤلفه كتاب « جِبُنْ »[٢] — المؤرخ الإنجليزى المشهور — المعروف عن « تدهور الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » ؛

---

(١) Considérations sur les Causes de la Grandeur des Romains et de leur Décadence.

(٢) Gibbon The Decline and Fall of The Roman : Empire .

وكان « جِبُنْ » متأثراً بالثقافة الفرنسية ، كما تأثر مونتسكيو بالثقافة الإنجليزية ؛ لكن مونتسكيو فى كتابته للتاريخ قد زلّ فى خطأ فاحش ، وذاك أنه لم يتريث عند تعميمه الأحكام . بل تراه يقفز من أمثلة جزئية قليلة إلى القانون العام فى غير روية العالم الحذر ؛ فأنت تطالعه وتأخذ عليه هذا المأخذ ، لكنك — مع هذا — يستحيل أن تفرّ من فتنة حديثه ؛ فهو يمتاز بما يحدثه فى نفس قارئه من لذة ومتاع ، وأسلوبه متدفّع متحدّر يتعرج به هنا وهناك فيبسط لك شتى الآراء والأفكار .

وله كذلك كتاب « روح القوانين »[1] الذى وضع به أساس البحث المقارن فى الحكومات والتشريع ؛ وفيه يبحث الأخلاق والعادات فى الأمم القديمة والحديثة على السواء .

على أن أهم ما يعنينا من إنتاجه الأدبى كتابه « خطابات فارسية »[2] الذى يسخر فيه من أباطيل الكنيسة والدولة والمجتمع والأدب السائد ؛ وفكرة هذا الكتاب أنه يتخيل رجلين من بلاد الفرس لهما قسطٌ موفور من الثقافة والمال ، هما : « ريكا » و « أزبك »[3] ، أخذ هذان السيدان الفارسيان يضربان فى أرجاء أوربا ، حتى انتهى بهما المطاف إلى باريس وشاهدا الحياة فيها . فاستوقفت أنظارهما بغرابتها . وطفقا يتبادلان الرأى فيما يشاهدان ، ثم يسجلان ما يلاحظان لينقلاه إلى أصدقائهما فى فارس ؛ وكانت تأتى الرسائل فى ذلك الحين إلى « أزبك » تنبئه أن مؤامرة تجرى فى « حريمه » ، وإنما أدخل الكاتب هذا العنصر فى « خطاباته » ليشبع فى قرائه رغبة شديدة فى مطالعة مثل هذه الأنباء عن النساء ، حتى يكفل لنفسه متابعتهم لقراءة « خطاباته » بما فيها من نقد للحياة الفرنسية نفسها ، وليس الناقد هنا رجلا تعود ما أَلِفَ من أوضاع سياسية واجتماعية فأفقدته العادة رهافة حسه ، بل النقد صادر عن سيدين مثقفين غريبين عن البلاد ، لا يعميهما الغرض والهوى ؛ وبهذا استطاع مونتسكيو أن يلقى ضوءاً ساطعاً على مفاسد عهد الوصاية الذى أعقب عصر لويس الرابع عشر ، فبيّن مفاسد السياسة وانحلال المجتمع والنفاق فى الدين .

---

(١) Esprit des Lois .

(٢) Lettres Persanes .

(٣) Rica , usbek .

فولتير Voltaire (١٦٩٤ — ١٧٧٨) :

لقد قيل إنه لو كان القرن السابع عشر عصر لويس الرابع عشر ، فإن القرن الثامن عشر هو عصر ڤولتير ، وهذا حق لا ريب فيه ، فلن تجد رجلا يصور ذلك العهد خيراً من ڤولتير ؛ فى القرن الثامن عشر نشأت الطبقة الوسطى وزاد ثراؤها ، وكان ڤولتير « بورجوازيا » ثريا ، وفى القرن الثامن عشر ازدهرت العلوم الطبيعية التى تسلك أسلوب البحث الجديد ، وكان ڤولتير من هواة العلم يلتمسه أينما وجد إليه السبيل ؛ وفى القرن الثامن عشر استهدف بناء المجتمع بكل ما فيه من نظم دينية وملكية وأرستقراطية للتغيير والتحوير ، وكان ڤولتير فى هذا الإصلاح رائداً وإماماً ، فكأنما كان ڤولتير لعصره بوقا يعبر عما يضطرب فيه من مذاهب وآراء ؛ فبات على وجه الدهر وثيقة نطالع فيها نوازع ذاك الزمان .

فى عام ١٦٩٤ ولد لأسرة فى باريس طفل نحيل ضئيل ، أسماه أبواه ، إذ عمّداه « فرانسوا مارى أَرُويه »[1] ، ولكنه أطلق على نفسه فيما بعد اسم ڤولتير ؛ وقد كان له من هزال جسمه ما أكسبه مزاجا حاداً عنيفاً ؛ وعلة لا تنقطع أسبابها ، حتى نيف عمره على الثمانين وهو يشكو شكاية متصلة من ضعفه الذى يشرف به على الهلاك ؛ ولكن هذه العلة الملازمة لم تَحُل بينه وبين العمل الذى لا ينقطع ، والعراك الذى لا يهدأ ، والكتابة المتصلة ، والسخرية بعباد الله .

أراد له أبوه أن يكون محامياً . ولكن ڤولتير الشاب طمع فى المناصب السياسية ، فاتصل ببعض العِلْية ، ووفق إلى السفر إلى هولندا تابعاً للسفير الفرنسى ؛ ولكنه ما لبث أن أثار السخط بسلوكه ؛ من ذلك محاولته الفرار بفتاة أحبها ، فأعيد إلى فرنسا حيث الحكومة ضعيفة مستبدة ؛ فحمل ڤولتير القلم وملأ الدنيا بالرسائل والأناشيد ، مع أنه يعيش فى زمن تكفى فيه الإشارة من نبيل ليزج فى السجن بمن يشاء ؛ فما هى إلا أن أُلْفى ڤولتير نفسه محكوما عليه بسنة يقضيها بين جدران الباستيل ؛ فكان ذلك درساً قاسياً حفزه إلى

---

(١) François marie Arouet .

التفكير الجاد العميق فى أخطاء الحكومة المستبدة ؛ مع أنه عومل فى سجنه برفق ولين ، وتُركت له الحرية يعمل ما يشاء ، فانصرف إلى كتابة القصائد والمآسى فأنجز كثيراً من ملحمة أخرجها فيما بعد وهى ملحمة « هنرياد »[1] ، حتى إذا ما خرج إلى الحياة الطليقة مثّلت له رواية « أوديب »[2] ، فلقيت نجاحا عظيما ، وشاع اسمه بين الناس .

والشهرة فى سن الثلاثين متعة ، استمتع بها فولتير ، وعاش بفضلها بين العظماء ، حتى لكأنه يعيش فى حلم أذهله عن الدنيا الواقعة من حوله ؛ ولكن حادثاً وقع إذا ذاك أيقظه من ذلك الحلم البديع ، وألقى به فى مسالك وعرة شائكة ، وذلك أن نبيلا استشاط منه غضباً ، فأوحى إلى خدمه أن يوسعوه ضرباً وتعذيباً ، ففزع فولتير إلى العدالة أن تقتصَّ له من الأثيم المعتدى ، ولكن هيهات ! أيشكو نبيلا جليلا فردٌ من الشعب ؟ وسارعت أسرة النبيل فقذفت بهذا الذى اجترأ عليها بالشكاية فى ظلمات الباستيل ، فلما قضى عهد السجن وأطلق سراحه ، أقسم ليؤججنَّها حرباً شعواء على المجتمع الذى احتمل مثل هذا الظلم الشنيع .

هٰهنا ولد ڤولتير مولدا جديدا ؛ فقد سافر إذ ذاك إلى انجلترا ، ولم يكد يستقر به المقام هنالك حتى صادفه ما ازداد به فكره ثورة وانقلابا . فقد شاهد أن أبناء الطبقة الوسطى من الانجليز لهم أن يطمحوا إلى أرفع المناصب ، ورأى بعينى رأسه فى تلك البلاد كيف يمكن للحرية والنظام أن يستقيما جنبا إلى جنب ، وأن الإيمان الدينى السليم والفلسفة الحرة الطليقة يمكن أن يقوما فى غير تشاحن ولا عداء ؛ شهد المذاهب الدينية الكثيرة تختلف وتصطرع ، فتعلّم الشك ، وطالع « چون لوك » فتعلم الفلسفة وقرأ « سْوِفْت » فاتخذ طريقته الساخره نموذجا يحتذيه ، ودرس « نيوتُنْ » فعرف مذهبا علميا جديدا ؛ وقابل فى انجلترا فريقا من أعلام أدبائها : « پوپ » و « سوفت » و « تومْسُنْ » ، وتعلم الانجليزية قراءة وكتابة وحديثا ، وأتقن مطالعة جزء كبير من الأدب الانجليزى ، إذ قرأ « شيكسپير » و « مِلْتُنْ » و « دريدن » . حقا لقد علمته مرارة السجن فى الباستيل أن يتمنى للناس مجتمعاً جديداً ، ثم بينت له زيارته لانجلترا كيف يمكن لهذا المجتمع الجديد أن يكون .

---

(١) Henriade . (٢) Œdipe .

عاد إلى فرنسا ، وسرعان ما أعاد لنفسه الشهرة والثراء ، فقد جاء هذه المرة إلى أرض الوطن ، وقد تغير وجه الدنيا فى رأيه ، فأخذ يكتب بقلم من نار كتابه « رسائل فلسفية » أو « رسائل عن الإنجليز »[١] ، وقد أراد حين يبسط لقومه النظم الإنجليزية أن يحفزهم إلى إعادة النظر فى أفكارهم السياسية والدينية ، وبهذا وضع الأساس لمذهبه الجديد ، على نحو غير مباشر ، وهذا المذهب الجديد يتلخص فى كلمة واحدة : « الحرية » ، فضلا عن أنه أبان فى هذا الكتاب أهمية التجارة وقيمة العلم ؛ فكان هذا الكتاب وحده كفيلا أن يضعه موضع الزعامة فى الطبقة الوسطى فيما نشب بينها وبين الطبقة العليا من عراك ؛ وأدركت الشرطة ذلك فصادرت الكتاب وأحرقته فى ساحة العدل بقرار من المحكمة ؛ وكان لا بد لكاتبه — إن أراد لنفسه النجاة — أن يلوذ بالفرار ، فاحتمى بصديقته المعجبة به « المركيزة دى شاتليه »[٢] ؛ وأقام فى كنفها ستة عشر عاما ؛ درست معه خلالها علوم الفلك والميكانيكا والكيمياء ؛ كما درست عليه التاريخ بصفة خاصة ؛ ومن أجلها كتب ڤولتير فى التاريخ كتاب « حياة شارل الثانى عشر »[٣] وغيره من كتب التاريخ ؛ وقد أرادت « مدام دى شاتليه » — كبعض النساء اللائى أحببن عظماء الرجال — أن يعترف العالم ببطلها ، فحاولت أن توفق بينه وبين البلاط وأصابت التوفيق فيما حاولت ، كما وفقت فى ضمه إلى المجمع الفرنسى ، ثم أراد الله لڤولتير أن يحرم هذا الوكر الهادئ ؛ إذ هامت « مدام دى شاتليه » حبا بشاب جميل أذكى فيها العاطفة ، وما هى إلا أن جاءتها المنية وهى تضع ثمرة ذلك الحب ، فحزن ڤولتير على فقدها حزناً شديداً عميقاً .

عندئذ أوى ڤولتير إلى فردريك الثانى ملك بروسيا ، وقد كان بينهما تبادل الرسائل الودية ، وكان ڤولتير يتمنى للانسان « حكيما حاكما » ، أو مستبداً مستنيراً ، وظن أن هذه الأمنية الجميلة تتمثل فى فردريك ، ولكنه لم يلبث مع ذلك المستبد المستنير فى مقر حكمه طويلا ، حتى تبين له أن الملوك الفلاسفة يصطنعون من وسائل الحكم مايصطنعه الملوك الطغاة فى فرنسا ؛ فأين المفر ؟ إلى سويسرا . فلعله واجد فى تلك الجمهورية من الدعة والأمن

---

(١) « Lettres les Anglais » أو «Lettres Philosophiques» .

(٢) Mme du Châtelet .

(٣) Historie de Charles XII .

مالم يجده فى أحضان الملوك ؛ ولكنه سرعان ما صادف لوناً جديداً من ألوان العسف البغيض ، وهوما يضطرم فى نفوس الناس من تعصب ممقوت ؛ فلم يطمئن رجال الدين فى سويسرا إلى مقامه بينهم ، وأخذوا يتحرشون به ويثيرون الناس عليه ؛ وإذن فلن يجد الرجل حياة آمنة فى سويسرا أو فرنسا ؛ فاتخذ لنفسه منزلين على جانبى الحدود الفرنسية السويسرية ، ليفر إلى هنا إذا عصفت به العاصفة هناك ، ثم يقفز راجعاً إلى هنالك إذا دارت به الدوائر ههنا .

على هذا النحو أقام أمداً طويلا أتاح الفرصة لاسمه أن يسير بين الناس شُهرة وذيوعا ؛ فمن عرينه ذاك الذى كمن فيه واختفى من وجه الشرطة ، أخذ ينثر رسائله ومقالاته نثراً متلاحقاً ؛ فلا تكاد تظهر حتى تشيع فى أرجاء أوروبا ؛ وهو فى هذه الرسائل يجدُّ حيناً ويسخر حيناً ؛ وكثيراً ما أخذ على نفسه أن يدفع عن برىء تهمة باطلة ، فاقترن اسمه بين الناس بالشجاعة الأدبية والإنسانية الرحيمة ؛ فسمع عنه من الناس ألوفٌ لم يطالعوا ما كتب ، حتى بات فولتير فى أفواه الشعب أسطورة تروى .

وكان بين ما أنتجه ڤولتير فى حياته الأدبية الخصيبة فى صحبة «مدام دى شاتليه» «الدنيا كما تسير»[١] و «صادق»[٢] و «ميكرومجا»[٣] ، فلما ذهب إلى بروسيا وأقام مع فريدريك كتب «قرن لويس الرابع عشر»[٤] ، وانتقل من بروسيا إلى سويسرا حيث أقام قريباً من جنيف ، فكتب قصائده المشهورة «كارثة لشبونة»[٥] و «القانون الطبيعى»[٦] ؛ كما أخرج «مقالة فى السلوك»[٧] ، وأخيراً وهو فى مستقره عند الحدود الفرنسية السويسرية ، أخرج عدداً من المآسى منها «تانكريد»[٨] ، وقصصاً قصيرة منها «كانديد»[٩] ، ونقداً أدبيا من بينه «تعليق على كورنى[١٠]» ، وتاريخا مثل كتابه «تاريخ الروسيا فى عهد بطرس الأكبر»[١١] ؛ وكتابه «تاريخ محكمة باريس»[١٢] ؛

---

(١) Le Monde Comme il va . (٢) Zadig .
(٣) micromégas . (٤) Siècle de Louis XIV .
(٥) Le Désastre de Lisbonne . (٦) La Loi naturelle .
(٧) Essai sur les Mœurs . (٨) Tancrède .
(٩) Candide . (١٠) Commentaire sur Corneille .
(١١) Historie de la Russies ous Pierre le Grand.
(١٢) Historie du Parlement de Paris .

وفلسفةً منها « رسالة فى التسامح »[١] ، و « قاموس فلسفى »[٢] .

إن مؤلفات ڤولتير تؤلف مكتبة كاملة ، فهى تبلغ عددا يربى على مائتين وستين مؤلفا — منها الطويل ومنها القصير — فيها ملحمة ، وفيها قصائد تهذيبية ، وفيها ضروب مختلفة من الشعر ، وفيها مآسٍ وملاهٍ وتاريخ وسِيَر ، وفيها أبحاث علمية ورسائل دينية ومقالات فلسفية ، وفيها قصص ونقد ؛ أضف إلى ذلك كله أنه كان دائم المراسلة مع أصدقائه العديدين حتى بلغ ما كتبه من رسائل أكثر من عشرة آلاف ! فانظر إلى هذه الخصوبة النادرة التى لم تمض بغير أثر سيىء ، فقد اقتضته أن يبعثر قواه بعثرة لم تمكنه أن يكون أديباً من الصف الأول فى إنتاجه ! فلم ينتج شيئاً نستطيع أن نضعه فى الطراز الممتاز من نوعه .

وسنرجىء ڤولتير الكاتب المسرحى ، وڤولتير الشاعر ، إلى أجزاء أخرى تالية . أما فى هذا الجزء الذى خصصناه للنثر الفرنسى ، فلا يسعنا أن نقول عن أسلوبه إلا أنه المثل الأعلى الذى يطمح إليه كل من حمل القلم ؛ فهو أسلوب زاخر بالصور ، ولكنه واضح ؛ قوى نفّاذ إلى القلوب لكنه سهل سلس ، تراه دائما كأنما لم تمسسه يد الفنان إلا مسا رفيقاً لكنه مع ذلك مترع بلفتات الذكاء الوقاد ، فبهذا الأسلوب الموسيقى الرخيم أنشأ ڤولتير ما أنشأه على اختلافه وتنوعه . ولئن حقق له أسلوبه سائر أغراضه ، فقد كان قبل كل شىء أداة طيعة مكنته من السخرية التى بلغت فى كتابته حدا لم تكد تبلغه عند كاتب آخر ، فاستحق من أجلها فى تاريخ الأدب أن يلقَّبَ « بالساخر العظيم » . وممن كان يسخر ڤولتير ؟ من كل ما نفر منه قلبه — من القساوسة والملوك والطغاة والظالمين ، فهؤلاء جميعاً أعداء لما أحب واشتهى وجاهد حياته من أجله ، هم أعداء الله والحب والعطف ، هم أعداء الحرية فى الفكر والعمل . وجدير بنا فى هذا الصدد أن ننفى عن ڤولتير تهمة الإلحاد التى لصقت به مع أنه أنفق حياته يحارب مذاهب الملحدين من معاصريه ، وبنى كنيسة نقش على جدرانها « مهداة إلى الله من ڤولتير » ، وفى ذلك قال : « لن تجد كنيسة غير هذه أهديت إلى الله ؛ إنما تبنى الكنائس للقديسين ، أما أنا فأوثر أن أكون خادما للسيد على أن أكون خادماً لأتباعه » .

---

(١) Traité sur la Tolérance .

(٢) Dictionnaire Pbilosopbique .

وفولتير — فضلا عن مكانته الأدبية — مؤرخ بدأ طريقة جديدة فى كتابة التاريخ ؛ فمؤلفه «مقالة فى السلوك» تحدد بداية طور جديد فى دراسة الإنسان لماضيه ؛ وأخذ المؤرخون ينهجون منهجه ، فتطور علم التاريخ بهذا تطوراً ملحوظا ؛ نعم تستطيع أن تأخذ على هذا المؤلَّف بعض المآخذ ، فهو أحياناً يذكر تفصيلات خاطئة ، وهو كثيراً ما يصل إلى تعميمات لا عمق فيها ، وتراه فى بعض المواضع يتأثر بالهوى ، ومع ذلك كله فهو — كما قلنا — يحدد طوراً جديداً فى كتابة التاريخ ، لأنه ينتزع من الحوادث التاريخية فلسفة قائمة على التطور الطبيعى ، لا على تدخل قوة فوق الطبيعة ؛ فقد كان المؤرخون قبله يعللون مجرى الحوادث بإرادةٍ عليا تُشرف عليها فتوجهها كيف شاءت . أما فولتير فلا يرى فى حوادث التاريخ — بل فى حوادث الكون كلها — إلا أسباباً تعقبها مسببات وهو أيضاً لا يجعل التاريخ سجلا للحروب والملوك ، بل يجعله قبل كل شىء تاريخاً للمدنية الإنسانية والتقدم العقلى .

وهو فى فلسفته يتابع المدرسة الإنجليزية وعلى رأسها « بيكُنْ » و « لوك » ، التى تعتد بإدراك الحواس وبالتجربة فى علمها بالأشياء ؛ وفى الدين لا يعادى المسيحية فى ذاتها ، بل يعادى النظام الكنسىّ السائد فى عصره ، إذ كان هذا النظام فى رأيه مقروناً بالتعصب والقسوة والهوس ؛ هو يعادى المذهب الكاثوليكى الرومانى الذى يراه عاملا من عوامل الجمود التى تعوق حركة التنوير والتقدم ؛ فهو مؤمن بالله لكنه لا يحترم الشعائر التى تدل على نفاق ، وهو كذلك لا يؤمن بالوحى ، وذلك عنده لا يتنافى مع إيمانه بالله ؛ وأما مذهبه فى الأخلاق فهو المذهب النفعى الذى يجعل الفضيلة فضيلةً لأنها تنفع الإنسان ، لا لأنها واجب مجرد يجب أداؤه بغض النظر عن نتائجه ، فمصلحة المجتمع هى المقياس الوحيد الذى يقاس به العمل إنْ خيراً وإنْ شرا .

وفيما يلى موجز لقصته « كانديد » لعلها تدلك على شىء من خصائصه :

كان شابٌّ يعيش فى قصر بارون بوستفاليا ؛ وكان بطبعه قويم الخُلُق طيب القلب صريحاً ، ولهذه الصفات أُطلق عليه اسم « كانديد » ، وقد كان خُدَّام القصر يظنون كانديد ابن أخت البارون نَجَلَتْه من جارٍ فاضل لم تقبل الزواج منه ، لأنه لا يحفظ من

أسماء أجداده إلا واحداً وسبعين اسماً ، ومحا الزمان بقية أسلافه ، وليس هـذا دليلا على النسب الشريف .

وكان للبارون ابنة اسمها « كونجوند » فى السابعة عشرة من عمرها ، فتانة جذابة ، وكان « بانجلوس » شيخاً فى قصر البارون يلقى فيه المواعظ الدينيـة التى اعتاد كانديد أن يصغى إليها فى سـذاجة سِنِّه و بساطة أخلاقه ، وكانت أولى تعاليم الشيخ وأهمها « أن لا معلول فى هذا العالم بغير علة ، وأن هذه الدنيا خير ما يمكن خَلْقُه من الدُّنَى » ؛ يقول بانجلوس إن الأشياء لا يمكن أن تكون على غير ما هى عليه ، فـكل شىء أعد لغاية مقصودة ، وهى بالضرورة خير غاية يمكن أن يقصد الخالق إليها ؛ فالأنف قد أعد ليحمل المنظار ، ومن ثم كانت لنا مناظير ، والساق قد أعدت للجورب ، ومن ثم كانت لنا جوارب ، والصخور أعدت لتُنْحَتَ فى حصون وقصور ، ومن ثم كان لسيدى البارون هـذا القصر الجميل ، والخنزير خُلِق ليؤكل ، ومن ثم كان لحم الخنزير لنا طعاما ؛ فلا يكفى إزاء هذا كله أن نقول إن العالم خير ، بل ينبغى أن نضيف أنْ ليس فى الإمكان أبدع مما كان.

أصغى كانديد فى انتباه إلى تعاليم الشيخ وآمن بما سمع ؛ وكان طوال إقامته بالقصر مفتوناً بابنة البارون « كونجوند » ولـكنه لم يجرؤ أن يعلن لها إعجابه بها ، فقد تقابلا ذات صباح ، وعلَتهَا حمرة الخجل وعَلَتْه ، وحيَّتْه بصوت متقطع وحياها ؛ وفى اليوم التالى تقابلا مصادفة وراء ستار . فأسقطت كونجوند منديلها والتقطه كانديد ، فأمسكت الفتاة بيد الفتى ؛ فقبَّل كانديد يدها فى لهفـة وعاطفة مشتعلة ، وتقابلت منهما الشفاه وتلاقت النواظر وارتعشت الأطراف ؛ ثم شاءت المصادفة كذلك أن يجىء البارون على مقربة من الستار ، فوقعت عينه على سبب ومُسبَّب من أسباب الدنيا الـكثيرة ومسبباتها ، لـكنه قذف بكانديد خارج القصر وركله ركلا عنيفاً ، وسقطت كونجوند فى إغماءة لم تـكد تفيق منها حتى صفعتها أمها البارونة على أذنها صفعة قوية ، وبهذا اضطرب الأمر كله فى قصر كان أبدع ما يمكن لقصر أن يكون .

خرج كانديد من فردوسه الأرضى طريداً ، فطوف أمداً طويلا لا يدرى إلى أين يسير ، يبكى ويصعد البصر إلى السماء ثم يصوبه الحين بعـد الحين إلى أجمل القصور التى تحوى أروع النساء ؛ وكان يبيت على الطوى ويفترش الحصباء فى الحقول العارية والثلج

يتساقط فوقه أكداسا فوق أكداس ؛ فلما أوشك أن يجمد جمود الموت أخذ يزحف فى الصباح حتى بلغ القرية المجاورة ، وليس معه من المال شىء ، ثم هَدَّهُ النَّصَبُ فوقف منهوكا أمام فندق ، فمرَّ به سيِّدَان فى ثياب زرقاء ؛ فقال أحدهما للآخر حين أبصراه : « هذا يا أخى رجل جميل البنية ملائم الطول » ، وتحدث السيدان إلى كانديد واصطحباه فى رفق إلى حيث تناول معهما طعام الغداء .

قال كانديد : ليس معى يا سادة ثمن الطعام .

فقال أحدهما : لا عليك ، فإن مَنْ فى أسمالك لا يدفعون شيئاً ، ألست تبلغ فى الطول خمس أقدام وخمس بوصات ؟

فقال كانديد : نعم ، سيدىَّ ، فهذا مقياس طولى .

فقال أحدهما : تعال ياسيدى واجلس إلى هذه المائدة ، فأنت ضيفنا ، بل لن ندع رجلا مثلك بغير مال ، فقد خلق الناس ليعين بعضهم بعضاً .

قال كانديد : إنك لعلى حق فيما تقول ، وهذا ما أنبأنيه بانجلوس ، وهأنذا أرى كل ما فى العالم يسير نحو الخير .

قال أحدهما : ألا تحب . . .

فقال كانديد : نعم ، أحب كونجوند .

قال أحدهما : بل أسألك هل تحب ملك البلغاريين .

فأجاب كانديد : كلا ، فلم أره .

قال أحدهما : وكيف ذاك ! إنه أفضل الملوك ، وينبغى أن تشرب نخبه :

فقال كانديد : هأنذا أشرب نخبه بكل قلبى .

فقال السيد : كفاك هذا ، فقد غدوت الآن من حماة البلغاريين وبنيت مجدك .

ثم قيَّدَاه فى أغلال الحديد وساقاه إلى فرقة بالجيش وعلّماه كيف يسل السيف وكيف يطلق النار ، وكانا يجلدانه كلما أخطأ حتى بات كانديد بين الجند بارعا .

ولكن عَنَّ له ذات يوم أن يسير على عقيدة عنده بأن للانسان ما للحيوان من حق فى استخدام أعضاء جسمه كيف شاء ، ولكنه لم يكد يَبْعُدُ فى مسيره حتى أقبل عليه أربعة رجال وشدوا وثاقه وألقوا به فى غياهب السجن ، ثم جىء به أمام القضاء ،

فسألوه أيهما يفضل ؟ أن يُضْرَب بالسياط ستا وثلاثين مرة ، فى كل مرة يضربه جنود الفرقة جميعاً ، أم أن يُطْلَقَ عليه اثنا عشر رصاصة ؟ وعبثاً حاول أن يقيم الدليل على أن إرادة الإنسان حرة ، وأنه يرفض العَرْضين جميعا ، ولكنه أرغم على الاختيار فآثر العقاب الأول ، وكان اختياره هذا دليلا على ما وهبه الله للانسان من حرية فى الإرادة ! فأخذت السياط تنوشه حتى بلغت الضربات ألفين فى مرتين اثنتين ، وكان ذلك كافيا أن يمزق جسده تمزيقاً ، فلما هَمَّ الجند أن يبدأوا فى المرة الثالثة صاح بهم كانديد أن يرحموه فيقتلوه ؛ وقُبِلَ منه الرجاء وشُدَّ فيه الوثاق ، لولا أن ملك البلغاريين مَرَّ بهم ، وسأل المذنب ما ذنبه ؟ فأجاب الفتى قائلا : إنه شاب حَدَثٌ اشتغل بالفلسفة فجهل أمور الدنيا وتلك جريرته ، فعفا عنه الملك وتولى علاجه طبيب فبرئت جروحه بعد ثلاثة أسابيع ، وما كاد يستقيم على قدميه حتى نشبت الحرب بين البلغاريين وأعدائهم ؛ ها هى ذى المدافع تحصد الجند حصداً فى هذا العالم الذى هو خير ما يمكن خلقه وليس فى الإمكان أبدع منه ! وكان كانديد فيلسوفا فلم يطق أن يرى تلك المجزرة البشرية فاختبأ ، ثم انتهز فرصة كان الجند فيها يرتلون أناشيد الصلاة ، وأسرع هاربا يخطو فوق جثث وأشلاء حتى بلغ قرية فى أرض أعداء البلغاريين ، فألفاها رماداً إذ أحرقها البلغاريون وفقاً للقانون الدولى ، وشهد هنالك كهولا أثخنتهم الجراح يرمقون بعيون كليلة جثث زوجاتهم ملقاة على الأرض طرحى ، وشهد فى موضع آخر ناساً تأكلهم ألسنة النار فى بطء فأخذوا يضرعون إلى الله أن يَمُنَّ عليهم بموت سريع ؛ فسارع كانديد إلى قرية أخرى من قرى البلغاريين أنفسهم ، فلقى الكوارث بعينها ، فها هو ذا يطأ أعضاء مبتورة لتوِّها لا تزال ترتعش بالحياة ، فمضى مسرعا حتى خلص من ميدان القتال ، وليس فى وفاضه إلا قليل من زاد ، لكنه لم يَنْسَ قط فاتنته كونجوند !

وبلغ كانديد أرض هولندة ، وطفق يسأل الناس إحساناً ، فيتهدده الناس بالسجن إذا هو لم يكفَّ عن السؤال ، وأخيراً صادف رجلا كان قد أنفق ساعة كاملة يحاضر جمعاً حاشداً فى وجوب الإحسان ، فمدَّ إليه كانديد يد المحتاج ، فنظر إليه الخطيب سائلا : « ماذا أنت صانع هنا يا فتى ؟ » فأجاب كانديد ، إن ضرورة الحوادث قد دفعته إلى طلب الإحسان دفعاً ، ولم يكن له قدرة على تحوير مجرى الأسباب والمسببات فى هذه الدنيا ، فنهره الخطيب قائلا : عنى أيها الوغد !

وهكذا مضى عنه مَنْ كان يدين بالعقيدة المسيحية فى الحب والإحسان ؛ وشاءت المصادفة أن يمر به رجل لا يدين بالمسيحية ، وأشفق الرجل على هذا الإنسان البائس ، وإنه لإنسانٌ كسائر الناس يمشى على قدمين ، وليس هو من ذوات الظلف أو الجناح ! ! فاستصحبه إلى داره وأطعمه وعلّمه صناعة يؤديها فى مصانعه .

وخرج كانديد فى صبيحة اليوم التالى يجول فى الطريق ، فقابل سائلا كادت حروق النار تمزق جسمه ، وقد عشيت عيناه وتأكل أنفه ، واعوجّ فمه واسودّتْ أسنانه ، فتحركت الشفقة فى قلب كانديد وناول ذلك المسكين قطعتى النقود اللتين كان رجل الأمس قد أعطاهما إياه ؛ فنظر إليه الشيخ ، وكاد يسقط على الأرض ودمعت عيناه ؛ فذعر كانديد وخطا إلى الوراء فزِعا .

قال الشيخ : واأسفاه ؟ ألست تعرف صديقك بانجلوس ؟

فأجاب كانديد : ماذا تقول ؟ أهو أنت أستاذى العزيز ؟ كيف حالت حالك وماذا أصابك من السوء ؟ ما الذى أخرجك من أجمل القصور ، وماذا حدث لكونجوند ؟

قال الشيخ : — وقد نقله كانديد إلى اسطبل سيده وأطعمه — ماتت كونجوند .

فطار صواب كانديد ثم أفاق فقال : هل ماتت كونجوند ؟ أيتها الدنيا وأنت خير ما يمكن خلقه من الدُنَى ! وكيف ماتت ؟ .

فأجاب الشيخ : بَقَرَها الجند البلغاريون ، ولما أراد البارون أن يحميها ضربوه ثم قطعوا البارونة إربا إربا ، وهدموا القصر حتى لم يبق فيه حجر على حجر ؛ لكننا انتقمنا ، إذ أحدث جندنا مثل هذا فى قصرٍ لأمير بلغارى .

واستعطف كانديد سيده أن ينفق على علاج أستاذه ، وشفى بانجلوس لولا أنه فقد عيناً وأذناً ، واستخدمه السيد حاسباً لبراعته فى الحساب ؛ وبعد حين شاءت الضرورة لذلك الرجل أن يرحل إلى لشبونة ، فاستصحب الفيلسوفين : بانجلوس وكانديد ؛ وأخذ بانجلوس يشرح لسيده وهما فى الطريق كيف لم يكن فى الإمكان أبدع مما كان ؛ فلم يوافقه الرجل على رأيه ذاك ، فأضاف بانجلوس : إن طبيعة الإنسان قد فسدت ؛ فالله لم يخلق الناس ذئاباً ، لكنهم قد باتوا من الذئاب ؛ إن الله لم يُعْطِ الناس مدافع أو بنادق ، لكنهم صنعوها ليفتك بعضهم ببعض ... ولكن الشرور الفردية تكوّن فى النهاية الخير

العام ... وبينما هو ماضٍ فى حديثه ذاك ، اكفهرت السماء وهبت الريح ، وعصفت العواصف بالسفينة وهى على مرأى من ميناء لشبونة .

ولم تَلبَثْ السفينة أن باتت حطاما ، وغرق كل مَنْ عليها إلا بانجلوس وكانديد ومعهما بَحّارٌ فظٌ غليظ القلب ؛ ولكن لم يكد الفيلسوفان يطآن أرض لشبونة حتى زلزلت الأرض زلزالها ، واندلعت نار بركانها . وامتلأت الشوارع باللهب والرماد وترنحت الدُّورُ فوق آساسها واندكت قوائمها ، وقضى ثلاثون ألفاً من سكان المدينة نحبهم صرعى ؛ وأصابت كانديد قطع من الصخر هَوَتْ عليه فجرحته وسقط يتمرغ من الألم .

وبينما الناس فى فزعهم والهون ، أخذ بانجلوس يهدىء من روعهم وينزل السكينة على قلوبهم بقوله : إن كل ما يحدث فى الدنيا معقول مقبول ، لأن العالم خير ، ولا بد أن يقع فيه ما وقع ، لأن لكل شىء سبباً ؛ فجذبه شاب يتشح بالسواد — وكان عضواً فى محكمة التفتيش — وقال له : يظهر أنك يا سيدى لا تؤمن بالخطيئة الأولى ؛ فلو كان كل شىء خيراً لما هوى الإنسان من الجنة ولا كان هناك عقاب ؛ وكأنى أسمعك تقول إن كل شىء مقدور ، وإذن فأنت لا تؤمن بحرية الإرادة . فبدأ بانجلوس يجيب بأن حرية الإرادة لا تعارض الجبر ، لأنه من جبر الإرادة أن تكون حرا . . .

لكن الشاب القسيس لم يمهله حتى يفرغ من جوابه ، وأمر به فقبض عليه وزجَّ فى السجن ، كما سُجِنَ تلميذه كانديد لأنه كان يستمع إليه فى إعجاب .

هدأت الأرض بعد زلزالها ، وقد تهدم من لشبونة ثلاثة أرباعها ؛ فأجمع حكماء المدينة أن لا وسيلة للإنقاذ خير من أن يُلقى ببعض المذنبين فى النار ليحترقوا احتراقاً بطيئاً فى حفل من الناس يرتلون لله الصلاة والدعاء ، وإن هى إلا أيام قلائل تمضى حتى جىء برجل رفض أن يأكل الطعام مطهيا بالشحم مع أنه تقليد لا بد من احترامه ، وأُلقِى بالمسكين فى النار ، كذلك جىء بكانديد وأُمِرَ أن يُجْلَد بالسياط ، كما سيق بانجلوس إلى حبل المشنقة لأنه إباحىُّ التفكير — حدث كل هذا والناس من حولهم يرتلون الدعوات وينشدون الصلوات أن ينقذ الله لشبونة من زلزالها المخيف .

فلم يسع كانديد — وقد هاله ذلك كله — أن يصيح : « إن كانت هذه الدنيا خير ما يمكن خلقه ، فما عسى أن تكون أسوأ الدُّنى ؟ »

هذا مثال لڤولتير، ولن تخطىء فيه روحه الهازلة الساخرة، فهو يهزأ بمن ينظر إلى الدنيا نظرة التفاؤل، لما يراه فى العالم من ألوان الشرور؛ وقد أمسى أسلوب ڤولتير — الذى يمتاز بالتدفق والصقل والبساطة والوضوح — مثلا أعلى يطمح إليه الكاتبون، وأوحت قصة «كانديد» بما أوحت إلى «رينان» و «أناتول فرانس» من كتّاب فرنسا، ثم تعدى تأثيره أرض الوطن إلى سائر الأقطار المجاورة، فاحتذاه «بيرون» فى تهكمه، وتمنى «برنارد شو» أن يقوم فى إنجلترا بالدور الذى قام به ڤولتير فى فرنسا من نقد وتهذيب يقومان على السخرية اللاذعة.

ديدرو Diderot (١٧١٣ — ١٧٨٤):

وهذا رجل آخر وقف بإنتاجه العظيم الضخم إلى جانب ڤولتير: هذا يذيع فى الناس آراء «جماعة الفلاسفة» الذين أرادوا قلب المجتمع عن طريق التنوير العقلى بفطنته وسخريته وسحر أسلوبه، وذاك ينشرها نشراً علميا هادئاً؛ وقد أراد له أبوه بادىء الأمر أن يلتمس سبيله إلى وظائف الكنيسة أو أن يدرس القانون أو الطب، فأبى الفتى على أبيه ما أراد له، وفقد بذلك معونته، فأصابه الإملاق، ولم يستطع العيش إلا بمجهوده الشاق، معلما وكاتباً مأجوراً لأصحاب المكاتب، فيكتب لهم مايؤجرونه على كتابته؛ فهذا كتاب يطلب إليه ترجمته، وتلك قصة وضيعة يكتبها إجابة لدعوة من الناشر الذى يتلمس موارد الكسب بكل السبل؛ بل هذه مواعظ يعدها لتلقى فى الكنائس؛ وكان قد جمع نتاجه الفكرى الخاص فى «آراء فلسفية»[1] لكنها أحرقت بأمر من برلمان باريس؛ ثم ازداد عليه سخط القابضين على زمام الحكم حين نشر «خطاب عن العُمْى موجه إلى المبصرين» فألقوه فى السجن، وبعدئذ همّ بعمله الجسيم الذى لبث مشتغلا به عشرين عاما أو يزيد، وهو إعداد موسوعة شاملة للمعارف الإنسانية جميعا، ولو أن ذلك لم يمنعه أن يتابع إخراج ما يجيش به صدره من خواطر، ومع ذلك كله ألمت به ضائقة مالية فى أخريات سنيه، فأعانته عليها «كاترين» امبراطورة الروسيا التى شاءت أن تكون

(١) Pensées Philosophiques.

راعية له تحميه ، وزارها الكاتب فى قصرها زيارة لم تطل ، ثم عاد إلى باريس حيث عاش عيشة هادئة إلى أن وافته منيته .

هكذا أخذ «ديدرو» ينثر كفايته ومواهبه نثراً ذات الشمال وذات اليمين ، لا يحرص لنفسه على وقت أو عافية أو مال ؛ قد حباه الله عقلاً يموج بالأفكار المبتكرة ، كأنه الحقل الخصيب ينبت فى كل يوم من صنوف النبات ألواناً ؛ لكنه مع ذلك أعوزته القدرة على التفكير المتسلسل المتساوق ، كما امتنعت عليه القدرة على التركيز ؛ ومن هنا كان غزير الإنتاج قوى الفكر لامع القريحة ، ومع ذلك لم يخلف لنا شيئاً نستطيع فى وضوح وجلاء أن نرى فيه فلسفته الخاصة ، ولا هو ترك فيما ترك أثراً فنيا واحداً يدل على الصقل والتجويد ؛ على أن لنا أن نقول عن فلسفته إنها مادية صميمة ، وهو فى وجهة نظره إلى الأدب يبشر بمذهب الابتداع ، إذ دعا إلى ضرورة اعتماد الفكر العبقرى الموهوب على نفسه ، فلا حاجة به إلى قواعد القدماء ونماذجهم يحتذيها ، فهاهى الطبيعة أمامنا ، ففيم العودة إلى ما قاله آباؤنا ؟ نعم إن للآثار الأدبية القديمة قدرها العظيم ، ولكن هل يعنى ذلك أن نحد قرائحنا بحدودها ؟ لهذا كنت تراه شديد الإعجاب بالخارجين على قواعد الاتباع من أدباء الانجليز ، أمثال « رِتْشَرْدْسُنْ »[١] و « ليلو »[٢] و « مور »[٣] و « سْتِيرنْ »[٤] .

ولنا إلى هذا الحديث عودةٌ حين نتناول أديبنا فى جزء تالٍ كاتباً مسرحيا ؛ ولديدرو فوق ما ذكرنا « آراء غريبة عن ممثل الملهاة »[٥] ولعله أمتع كتبه جميعاً ، وفيه بحث فى قواعد الفن التمثيلى ؛ وله كذلك «ابن أخى رامو»[٦] وهى قصة جميلة يسخر فيها من أخلاق العصر ، وقد ترجمها «جيته» إلى الألمانية . وقصة أخرى عنوانها « الراهبة »[٧] فيها وصف لحياة الأديرة ، وله كذلك « جاك المؤمن بالقدر وسيده »[٨] ، وهى ليست قصة بالمعنى

---

(١) Richardson ترجم ديدرو رواية رتشردسن المشهورة « كلاريسا » الفرنسية لينشر فنه القصصى فى فرنسا .

(٢) Lillo .

(٣) Moore .

(٤) Sterne .

(٥) Paradoxe sur le Comèdien

(٦) Le Neveu de Rameau .

(٧) La Religieuse .

(٨) Jacque le Fataliste et son Maître .

الصحيح للقصة ، بل هى سلسلة محاورات ومناقشات تتخللها حكايات ومغامرات ، وأخيراً نذكر مقالاته التى كتبها عن معارض التصوير التى أقيمت فى باريس من سنة ١٧٥٩ إلى سنة ١٧٩٥ ، وقد نشرها باسم « الصالون » ، وهو فى هذه المقالات يميل إلى مذهب الابتداع ، معترضا على رجال الفن الذين يشترطون التقيد بأوضاع الفن القديم بقوله : « وماذا لو لم يكن فى الوجود قديم ؟ » .

وأجلّ إنتاجه قدراً هو « الموسوعة » — أو دائرة المعارف — التى أدارها وساهم فى تحريرها ؛ فقد أحس الناس أن المعارف المتفرقة لا بد من جمعها ليكون للانسانية من مجموعها سبيلٌ مؤدية إلى الحق ؛ وكان هذا الإحساس هو الحافز الذى دفع « ديدرو » إلى إنشاء الموسوعة ، فجاءت كنزاً زاخراً بكل صنوف العلم والمعرفة التى وصل إليها العقل البشرى حتى ذلك الحين ؛ بل أضافت إلى ذلك أنها وضعت أساس المذهب الديمقراطى ؛ وقد عاون « ديدرو » فى هذا المشروع الضخم طائفة ممتازة من الأعلام والفحول — كان بينهم فولتير وروسو — ولعل هذا الخطاب الذى أرسله ڤولتير إلى ديدرو ، يقرّب لك أساس هذه الموسوعة ، قال : « ما أشبه موسوعتك ببرج بابل : فيها الطيب والخبيث ، وفيها الحق والباطل ، وفيها الجد والمرح ، كلها مجتمعة فى كتاب واحد ؛ ويخيل إلىّ أن بعض فصولها قد كتبه متأنق متحذلق وهو جالس فى « صالونه » ، وأن بعضها قد كتبه خادم قذر وهو فى مطبخه ؛ إن قارىء الموسوعة لينتقل فيها من أعلى سماء يحلق فيها الفكر إلى أسخف السفاسف التى تبعث فى نفسه الملل » .

ورأى أولو الأمر أن ظهور هذه الموسوعة يفتق الأذهان فيؤدى إلى خطر ، فاضطهدوها وقاوموها ، واضطر ناشرها إلى إخراج مجلداتها الأخيرة فى طى الكتمان خشية أن يصيبه من الشرطة أذى ؛ وقد حدث أن أصابت ديدرو خسارة فادحة حين داهمت الشرطة يوماً دار المطبعة فأتلف عاملٌ جبانٌ كل « التجارب » بغير إذن من سيده — وهكذا أخرجت موسوعة العلوم للناس ، فكانت عملا جليلا يخلد اسم « ديدرو » على وجه الزمان ، ولو أنه لم يدرّ على صاحبه من الربح أكثر من جنيهات عشرة فى كل شهر مدى عشرين عاماً كاملة أنفقها فى إخراجها ؛ وبهذه الموسوعة كان « ديدرو » رسول المعرفة فى عصره ، فقد

كان ينكر الوحى مثل فولتـــير وروسو ، ويؤمن بأن إنقاذ العالم مرهون بنشر المعرفة والفضيلة .

هذا هو « ديدرو » بإنتاجه المتنوع الغزير ، فهو — فى عصره — الصحفىُّ الموهوب الذى ينتج إنتاجا سريعاً متلاحقاً فيه سمات الاهمال إلى جانب ما فيه من طابع النبوغ والتجديد واستقلال الرأى ؛ ويقول عنه سانتسبرى : « إنه يوشك أن يكون أكثر الأدباء خصوبة فى تنوع آرائه ، فيستحيل أن تجد موضوعا لم يعالجه ديدرو ، ويكاد يستحيل أن تذكر موضوعا لم يقل فيه بعض الآراء الخالدة التى تدعو إلى الاعجاب »

روسو Rousseau (١٧١٢ — ١٧٧٨) .

كانت « جماعة الفلاسفة » ، التى يمثلها ڤولتير وديدرو ، تعتد بالعقل وحده ، ولا تؤمن إلا به ، فجاء « چان چاك روسو » مزدريا العقل ومنطقه ، مؤمناً بالعاطفة والشعور ، فكان بذلك بمثابة رد الفعل الذى يعقب التطرف ليرده إلى الصواب .

ولد لأبٍ يصلح الساعات فى چنيف ؛ ولما بلغ الثالثة عشرة أُمر أن يعاون رجلا يسجل العقود كى يحترف هذه المهنة بعد تدريبه ، لكن سرعان ما رأى فيه « المسجل » غبيا بليداً ففصله ، فوُضع الفتى حيث يتعلم فن النحت ، وقضى ثلاثة أعوام يعمل مع رجل فظ غليظ أخذ يقسو عليه ويستذله ، فما وسع صاحبنا إلا أن يعمد إلى الفرار ؛ وهام على وجهه لا يعلم لنفسه غاية يقصد إليها ، حتى انتهى به السير إلى قرية تسمى « كونفينيون »[١] وهنالك استطاع القسيس أن يردّه عن عقيدة أبويه البروتستنتية إلى الكاثوليكية ، لقاء غداء طيب قدمه إليه ، ثم أرسله إلى سيدة فى « آنْسِى »[٢] هى « مدام دى وارِنْز »[٣] رجاء أن تعظه وترشده ؛ ولم يكد الفتى يتصل بالسيدة حتى أحبَّها ؛ وما هى إلا أن أرسلته « مدام وارنز » إلى « تورين » ليُعَمَّد على العقيدة الجديدة ويؤخذ بشعائرها ، وقضى هنالك فترةً أُطلق بعدها ومعه قليل من الفرنكات أُعطيها ؛ فراح ينفق هذا المال القليل بغير حساب ، حتى نفد ، واشتغل خادما بضعة أشهر ثم لم يطق على ذلك صبراً ، فهم

---

(١) Confignon . (٢) Annecy . (٣) mme de Warens .

بالرحيل إلى « مدام وارنز » وهنالك فى دارها أقام ما يقرب من عشر سنوات إقامة كادت تتصل ، إذ تخللتها فترات صغيرة غاب فيها عن دارها ، ليشتغل معلماً للموسيقى فى لوزان مرة ، وليكون خادماً لأحد الضباط مرة أخرى . وهكذا ، ثم حدث أن طاف بدار « مدام وارنز » حلاق جوال ، فاغتصب حُبَّ السيدة لنفسه ، وبادلته السيدة الحب ، فما عتّم « جان جاك » أن غادر الدار مغيظا محنقا ، وقصد إلى باريس وليس معه إلا قليل مال ، وملهاةٌ كتبها عنوانها « نارسيس »[1] وطريقةٌ جديدة فى الترقيم الموسيقى من ابتكاره ؛ تلك كانت عدته حين قدم إلى المدينة الكبرى ، فسرعان ما تبدد ماله القليل وبات فى باريس خالى الوفاض لا يدرى ماذا يصنع ، لولا أن شاء له القدر أن تعينه سيدتان عرفتاه ، على أن يعيَّنَ كاتماً لسر السفير الفرنسى فى البندقية ، فما مضت عشرة أشهر حتى اشتجر مع السفير ، وقفل راجعاً إلى باريس حيث نزل بفندق حقير قريب من السوربون ، وبدأ يرتزق من نَسْخ « النوتات » الموسيقية ؛ وهنا اتصل بخادمةٍ أمِّيَّة ساذجة ؛ ولبث يعيش فى مسغبة ، لكنه على الرغم من سوء حالته استطاع أن يلتمس السبيل إلى بعض السيدات البارزات ، وطائفة من رجال الأدب الظاهرين ، منهم « ديدرو » الذى دعاه أن يكتب فصولا عن الموسيقى فى موسوعته .

ولما بلغ السابعة والثلاثين من عمره ، حدثت نقطة التحول فى حياته ؛ إذ أعلن المجمع العلمى فى « ديجون » موضوعا للتسابق بين الكتّاب ، وهو : هل عمل تقدم العلوم والفنون على رقى الأخلاق ؟ فما وقعت عيناه على موضوع المسابقة فى الصحف حتى أحس بهزة الوحى فى نفسه واعتزم أن يسابق ؛ وكتب مقالة يهاجم فيها الثقافة كلها مهاجمة عنيفة حارة ، كان لها السبق عند المحكمين ، وأحدث نشرها حركة قوية ؛ فما هو إلا أن أصبح رجلا مذكوراً مشهوراً ، إذ عدّه الناس رسولا لمذهب جديد ينادى بالعودة إلى الطبيعة ؛ ثم أخرج بعد أربع سنوات « بحث فى نشأة وأساس التفاوت بين الناس »[2] ، ورأيه فى هذا الكتاب هو أن المدنية كلها فساد فى صميمها .

شاع اسم « روسو » فى « صالونات » باريس ؛ وكان يستطيع أن يحتل فى المجتمع

---

(١) Narcisse .

(٢) Discours sur l'Origine et les Fondements de l'inégalité parmi les Hommes.

مكانة عالية ، لكن كبرياءه وغروره أبيا عليه إلا أن ينفر من الناس وأن يجافى المجتمع ؛ واعتزل فى بيت صغير تملكه إحدى صديقاته ، وهناك كتب «چولى أو هلويز الجديدة»[١] و « العقد الاجتماعى »[٢] و « إميل »[٣] ؛ وكان « إميل » يحتوى على نظرات دينية وسياسية تزعج أولى الأمر ، فصدر الأمر بإحراقه والقبض على كاتبه ، ففر روسو من باريس إلى « موتييه » بسويسرا ، لكنه سرعان ما غادرها طريداً ، إذ نشبت بينه و بين أهلها الشحناء على اختلافٍ دينى بينه و بينهم ؛ وهام الرجل على وجهه يضرب فى فجاج الأرض لا يعرف لنفسه مستقرا ، حتى دعاه الفيلسوف الإنجليزى « داڤيد هيوم » أن يهبط على إنجلترا فيتخذ فيها مأوى له ، واستجاب للدعوة رجاء أن يجد فى تلك البلاد راحة نفسه ؛ لكنه عندئذ كان قد اعترته حالة من الجنون التى تخيل للمصاب بها أنه مضطهد ، فظنّ الظنون بكل شىء وارتاب فى كل شخص ، وتوهم أن العالم كله يتربص به ، فلا يرى فى الأصدقاء إلا ألدّ الأعداء ؛ وقضى فى إنجلترا أشهرا وهو فى مثل تلك الحالة النفسية ، ثم تسلل إلى فرنسا وظل ثلاثة أعوام شريداً طريداً ؛ وعلم أولو الأمر بوجوده ، فأمّنوه على نفسه ، وعاد إلى باريس واستأنف بها حرفته الأولى وهى نسخ « النوتات » الموسيقية ، لكن وساوسه وأوهامه أخذت تتسع وتزداد ، فكان يحسبه إذا ما سار فى الطرقات متبوعا بالجواسيس ؛ بل إنه كان إذا ما صادف فى طريقه صِبْيَة يلهون جرى مسرعا لما يراه فيهم من خطر ؛ وظل فى هذا العذاب النفسى ثمانية أعوام ، كان فيها موضع الإشفاق عند عارفيه . وأخيراً عرض عليه صديق غنى أن يرحل إلى بيت ريفى صغير له على مقربة من باريس ، وفى ذلك البيت الهادئ قضى نحبه فجأة فى يوليو سنة ١٧٧٨ ؛ ولم يكن مضى إلا شهرٌ واحد على موت ڤولتير .

ولروسو إنتاج أدبى غزير ، لكنه معروف بكتبه الأربعة العظيمة « الاعترافات » و « چولى » و « العقد الاجتماعى » و « إميل » — أما « الاعترافات » فلا نجد لها نظيرا فى كتب السِّيَر ؛ وليست قيمة هذا الكتاب فى صدق ما ورد فيه من حقائق ، لأنه كتبه فى أخريات سنيه حين انتابته العلة العصبية واعترته الوساوس والأوهام ، فنظر إلى

---

(١) Julie . (٢) Le Contrat Social . (٣) Emile .

ماضيه وحاضره بمنظار العاطفة المضطربة السقيمة ؛ ولكن قيمته فى تصوير نفسه تصويراً تكاد لا تجد له مثيلا فى آداب العالم كلها ، وكانت غاية الكاتب فيه أن يصف نفسه فى أمانة تعلن كل شىء ولا تخفى شيئاً ، وهو يستهل الكتاب بقوله :

« إنى بهذا الكتاب أؤدى عملا لا أجد له مثيلا ؛ ولن يجد بين الناس مقلِّداً ؛ وغاية الكتاب أن يعرض رجلا على حقيقته لا ينقص من الحق شيئاً ؛ والرجل الذى أعرضه هو نفسى ، نفسى دون سواها ، لأنى أعتقد حقا أن ليس لى بين الأحياء شبيه ، إننى فى هذا الكتاب لا أخفى سيئة ولا أضيف حسنة ، وأتحدى رجلا فى وسعه أن يقول — بعد أن يكشف عن سريرة نفسه بمثل إخلاصى — « إننى خيرٌ منه » .

« كان مولدى فى چنيف عام ١٧١٢ ، وأبى اسحٰق روسو رجل يصلح الساعات ، وأمى سوزان ، ومولدى — الذى كان أول حلقة من سوء طالعى — قد كلف أمى حياتها ، وجئت إلى العالم فى ضعف لم ينتظر لى معه أن أعيش ؛ وكفلتنى عمتى حتى غمرتنى بحنانها ، وأما أبى فقد كان فى يأسه يحبنى أبلغ الحب .

« ولقد شعرتُ قبل أن أفكر ؛ شأنى فى ذلك شأن سائر الأطفال ، بل لعلى ذهبت فى ذلك أبعد من سواى ؛ وكان أول ما أيقظ شعورى قصصٌ قرأتها مع أبى ؛ وحدث أحيانا أن ظللنا نقرأ معا حتى مطلع النهار ؛ فما بلغت السابعة حتى فرغنا من قراءة كل ما احتوت عليه خزانة أمى من قصص قديمة ، وارتددنا إلى « بوسويه » و « موليير » و « پلوتارك » و « أوڤد » وأضرابهم ؛ وأبعدتنى قراءة « پلوتارك » عن القصص ؛ فتراجمه هى التى نفثت فىّ هذه الروح الحرة الديمقراطية التى لا تصبر على الاستعباد الذى أرق جنبىّ ؛ وأنا مدين لعمتى التى كانت تحفظ ما لا حصر له من الأغانى ، وتغنيها بصوت حلو رخيم ؛ أنا مدين لها بعاطفتى نحو الموسيقى ؛ فهذه كانت أول ما تعلق به حبى ؛ تلك هى العوامل التى كونت لى هذا القلب الذى أسْرَفَ فى كبريائه ، ولكنه مع ذلك قلب شديد الإحساس ؛ هذه العوامل صاغت لى هذه الشخصية المخنثة التى هى رغم ذلك جَموحٌ لا تُسلس القياد ؛ وقد ظللت بهذه الشخصية أندفع إلى مواقف الضعف مرة وإلى مواضع الفضيلة مرة أخرى ؛ فقد كنت من التناقض مع نفسى بحيث أفلتت منى اللذةُ والحكمةُ فى آن معا ، فلا أنا بالذى عفّ عن المتعة ولا بالذى نعم باللذة . . . . »

وأما كتاب « جولى أو هلويز الجديدة » فهو سلسلة من خطابات تبدأ بقصة عن حب آثم وتنتهى برسالة فى التهذيب ؛ وروسو فى هـذا الـكتاب مدين للقصصى الإنجليزى «رتشردسُنْ» فى قصته « كلارسّا» من حيث الطريقة والنغمة الخلقية التى تسود الـكتاب ، لـكن الـكاتب الفرنسىّ يكتب بعاطفة لا تدنو منها عاطفة زميله الإنجليزى .

و « العقد الاجتماعى » كتاب يختلف عن السابقيْن ، فهو رسالة فى مبادئ الحـكومة والمجتمع ، كتبت بالأسلوب العلمى المحـكم الدقيق ؛ ولـكن اتّباع الـكاتب للأسلوب المنطقى فى كتابه هذا لم يمنع أن يجىء الـكتاب بعيدا عن الحقائق التاريخية ، سابحا فى الخيال ، ومع ذلك فقد كان « للعقد الاجتماعى » أثر قوى فى عصر اضطربت فيه الأمور السياسية ، بحيث اتخذه رجال الثورة بعدئذ انجيلا يهتدون به ويستمدون منه المبادئ ؛ وروسو فى هذا الـكتاب مؤمن بأن الإنسان خيِّر بطبعه وإنما أفسده نظام المجتمع ، ومن رأيه أن يضحى الفرد بمصلحته فى سبيل الصالح العام ، لأن الغاية المنشودة عنده هى «أعظم خير لأكبر مجموعة من الناس » ؛ وهو يريد بالإنسان الرجوع إلى الحالة الفطرية الأولى التى كانت قائمة قبل أن يفسد الإنسانُ بالحضارة الدخيلة الطارئة ؛ وهو من جهة أخرى يتمنى العودة إلى الماضى المجيد الذى يتمثل فى اليونان والرومان ، فقد بهر روسو ذلك الماضى العظيم ، وصوره لنفسه أعظم مما تجيز له حقائق التاريخ ، ولـكن ماله وللحقيقة التاريخية ! إنه كاتب يستلهم العاطفة ليثير النفوس ويحفزها على النهوض .

هذه العقيدة التى آمن بها إيمانا قويا — وهى أن الإنسان ولد نقيا لا يشوبه شر — أدت به إلى رأى فى التربية بسطه فى كتاب قريب فى سياقه من القصة . وهو « إميل » ومحور الرأى فيه هو أن الطفل ينبغى أن يترك حرا من كل قيد إبان نشأته ، فلا يغله معلموه بما يملأ رءوس الـكبار من ترهات وأباطيل ؛ وحسب هذا الـكتاب قيمة أنه ما يزال عمدة بين المراجع عند علماء التربية ؛ ولهذا الـكتاب قيمة أخرى ، وهى أن روسو يعرض فيه مذهبه الدينى ؛ فهو معتقد بوجود الله ، لـكنه يرى أن طريقة البرهنة على وجوده لا تكون بالحجج العلمية العقلية ، بل بالحدس واللقانة ، باحساس من القلب لا يفهم العقل كنهه .

يستهل روسو كتاب إميل بقوله : « إن كل شىء يكون خيرا حين تخرجه يدا خالق

الأشياء ، ثم يفسد كل شيء بين يدى الإنسان ؛ وفى هذه العبارة تتلخص فلسفة روسو التى قوامها التفرقة بين ما هو طبيعى وما هو صناعى ، بين الإنسان الطبيعى كما أرادت له الطبيعة أن يكون ، و بين الإنسان المتحضر الذى أفسده المجتمع ؛ إن كل ما هو طبيعى خير ، وكل انحراف عن الطبيعة شر ؛ ولهذا فالحضارة الإنسانية غلطة كبرى ، لا نتخلص منها بغير العودة إلى أحضان الطبيعة ؛ وليس يخفى ما فى هذا القول من دعوة صريحة للديمقراطية ، لأنه يمزق لفائف الحضارة عن وجه الإنسان ليخرج العنصر الإنسانى من تلك الأكفان فيبدو تحت ضوء الشمس واحدا متشابها فى الناس جميعا ، لا فرق بين متعلم وجاهل ، ولا بين شريف وعامل ؛ وهو بهذه الدعوة أيضا يمهد للمذهب الابتداعى فى الأدب ، يمهد له بحبه للطبيعة وباعتداده بالفرد وشخصيته ، ويمهد له بحدّةِ عاطفته وبأدبه الذاتى الذى يُخْرج فيه مكنونَ نفسه .

(ب) الشعر :

كاد الشعر يختنق فى فرنسا فى القرن الثامن عشر ، للقيود الثقيلة التى فرضها « بوالو » والتى ما كان لينجو من أثرها غير النوابغ ، وللنزعة العقلية التى سادت فى فرنسا إبان ذلك القرن ، وإن سيطر منطق العقل نضب معين الشعر ؛ نعم قد تستطيع أن تسمّى فى ذلك العصر طائفة كبيرة من الشعراء الذين غزر نتاجهم وتنوع ؛ ولكنهم كانوا ينشدون الشعر عن غير طبع وفى صورة آلية ، فهو كلام منظوم لا روح فيه ، اللهم إلا قليلا جدا مما قيل .

ونبدأ قائمة هؤلاء الشعراء بفولتير الذى عرفناه ناثرا عظيما ، وشعره — كنثره — متنوع مختلف الألوان ، فله ملحمة « هنرياد » التى كان يطمح أن يجارى بها الملاحم العظيمة وهى مقسمة عشرة أقسام ، وموضوعها الحروب الدينية وبطلها هنرى الرابع ؛ وهذه القصيدة الكبيرة فى مجموعها لا تخرج عن هجوم عنيف يتجه به الشاعر نحو التعصب والهوس الدينى والخرافة ، وتمجيد للتسامح وحرية الفكر . أما من حيث طريقة الأداء فهو يحذو حذو الملاحم القديمة ، ولا سيما ملحمة الانياذة ؛ فكما أن « إنياس » أخذ يقص قصته للملكة « ديدو » ملكة القرطاجنيين فهكذا أخذ هنرى يروى أخباره للملكة اليصابات وكما أن إنياس أوحى إليه الله بما سيؤول إليه أمر شعبه فى المستقبل ، فكذلك هنرى .

لكن أين ملحمة «هنرياد» فى ضعف خيالها و برودة أسلوبها من الملاحم القديمة الكبرى ؟ ومما زادها ضعفا أنه لم يُرد أن يختار العوامل الروحية فى الملحمة وجوّها الشعرى من اللاهوت المسيحى ، لأن هذه من القواعد التى حرمها « بوالو » ، ولم يستطع من جهة أخرى أن يجعل ذلك الجوّ الشعرى يونانيا أو رومانيا ولا أن يستمد عناصرها الروحانية كالآلهة وغيرهم من الأساطير اليونانية والرومانية ، لأن ذلك لا يناسب موضوعا مختارا من التاريخ الحديث ، ولكن لابد للملحمة — جريا على العرف الأدبى — أن يكون لها جوّ روحانى أسطورى خيالى تجرى فيه الحوادث ؛ فعمد فولتير إلى تجسيد المعانى لتكون له بمثابة الأشخاص الأسطورية : «فالسياسة» و «التعصب» و «الرحمة» وما إلى ذلك تكتب بأحرف كبيرة وتعامل معاملة الأشخاص ؛ لكن أمثال هذه المعانى المجسدة تعوزها الحياة التى تكسب القصيدة حرارة ؛ غير أن ملحمة « هنرياد » إلى جانب عيوبها تمتاز بحسن السياق التاريخى ووضوحه ، والوصف فى بعض مواضعها قوى ناصع ، مثل وصفه لمذبحة سنت بارثلوميو فى الجزء الثانى ، وحصار باريس فى الجزء الرابع .

ومهما يكن من أمر ، فشاعرنا تتم له البراعة إذا ما كان موضوع القصيدة فلسفيا ، مثل قصيدة « حديث عن الإنسان »[1] و « كارثة لشبونة » و « القانون الطبيعى » ، وهو كذلك مُجيد فى بعض رسائله المنظومة مثل «رسالة إلى بوالو» و «رسالة إلى هوراس» وفى قصائده الهجائية الساخرة مثل « المسكين »[2] ؛ وله فوق ذلك قصائد قصيرة كثيرة قيلت فى مناسبات مختلفة ، لا يخلو كثير منها من روعة الخيال وجمال الأسلوب .

ولم يشهد القرن الثامن عشر فى الشعر الغنائى إلا شاعرا واحدا هو جان باپتست روسو[3] (١٦٧٠ — ١٧٤١) الذى ليس بينه وبين سميّه العظيم « جان جاك روسو » علاقة سوى أن كليهما عانى فى حياته البؤس والشقاء ؛ فقد كان شاعرنا هذا ابن حذاء فى باريس ، وشايع فى شبابه بوالو فى مذهبه ؛ ولم يكد يبدأ فى بناء مجده الأدبى حتى اتهم بالاعتداء على غيره فى بعض قصائده وحكم عليه بالنفى من فرنسا ، حيث قضى بقية عمره بعيداً عن بلاده ؛ ولم يكن « روسو » هذا من شعراء الطراز الأول المجيدين ، وحسبك أن

---

(١) Discours sur l'Homme .

(٢) Le Pauvre Diable .

(٣) Jean Baptiste Rousseau .

تعلم أن الناس فى عصره أوشكوا أن يبايعوه أميراً للشعر الغنائى لتعلم إلى أى حد رضى الناس من موهبة الشعر بالنزر القليل ، ومع ذلك فالأدب مدين له بالمحافظة على شعلة الشعر الغنائى حية حتى أسعفتها الحركة الابتداعية الجديدة فى مستهل القرن التاسع عشر .

ولعل الشعر التهذيبى أن يكون أكثر ملاءمة لروح العصر الذى ساده التفكير العقلى . وظهر من شعراء التهذيب الخلقى فريق أجادوا الحكمة وفاتهم الشعر فيما نظموا ، منهم «لويس راسين»[١] — أصغر أبناء الكاتب المسرحى المعروف — وأهم قصائده «العقيدة الدينية»[٢] وهى تذكر لما فيها من ورع وتقوى لا لجودة شعرها ؛ وشعر الهجاء قريب الشبه بشعر التهذيب ، لأنه تهذيب سلبى يبين عيوب المهجو ؛ فظهر من شعراء الهجاء « جِلْبير »[٣] (١٧٥١ — ١٧٨٠) الذى ربما انتهى إلى تجويد الشعر لولا أن باغتته المنية شابا ، وهو عدو لدود لجماعة الفلاسفة ، وهاجمهم بقصيدتين ساخرتين إحداهما « القرن الثامن عشر » والثانية « دفاعى »[٤] .

***

وكان الأدب الانجليزى قد أثر فى بعض الشعراء الفرنسيين فمال بهم إلى الشعر الوصفى فأنشأ « سانت لامبير »[٥] قصيدة « الفصول » تقليدا لـ « فصول » الشاعر الإنجليزى « تومْسُنْ » ، لكن الشاعر الفرنسى قلد زميله فى أسوأ نواحيه — فى تضخيمه اللفظى وخروجه عن مجرى القصيدة ليقول درسا تهذيبيا — ولم يستطع أن يجاريه فى خبرته بالطبيعة وحسه المرهف إزاءها ؛ ومع ذلك فقد لقيت قصيدة « الفصول » إعجابا عند طائفة الفلاسفة ، حتى قال عنها ڤولتير إنها القصيدة الوحيدة من إنتاج العصر ، التى ستبقى على الأيام للأجيال المقبلة .

ونذكر كذلك من الشعر الوصفى قصيدة « الشهور » للشاعر « روشيه »[٦] (١٧٤٥ — ٩٤) ؛ ثم « الحدائق » و « رجل الحقول » و « ممالك الطبيعة الثلاث »

---

(١) Louis Racine (١٨٩٢ — ١٦٦٣) .
(٢) La Religion .
(٣) Gilbert .
(٤) mon Apologie .
(٥) Saint-Lambert (١٧١٦ — ١٨٠٣ .
(٦) Roucher .

للشاعر «جاك دليل»[١] (١٧٣٨ — ١٨١٣) وهو مترجم «أشعار الحقول» عن ڤيرجيل و«الفردوس المفقود» من «ملتن»، ولكن كل هذه القصائد خالية من الروح والعاطفة.

وربما كان أجدر بالذكر من شعراء التهذيب وشعراء الوصف الذين أسلفنا ذكرهم، شاعران كانا ينظمان شعرا فكها خفيفا، هما «جرِسِّيه»[٢] و«فلوريان»[٣]. وللثانى منهما «حكايات خرافية» على غرار حكايات لافونتين الخرافية، لكنها بالطبع لا تدنو منها جودةً وأصالة طبع؛ ولا يشبه «فلوريان» سلفه العظيم فى دقة علمه بالحيوان، ونفاذ بصره إلى صميم نفس الإنسان، وعلى كل حال فحكايات «فلوريان» لا تخلو من جمال، فالشاعر بارع فى سوق القصة، ماهرٌ فى النظم السلس المستساغ.

***

ونختم حديثنا عن الشعراء بشاعر جاء فى ختام القرن، فكأنما جاء ليبشر بعصر جديد قادم ينهض فيه الشعر من العقم والجمود اللذين أصيب بهما طوال القرن الثامن عشر كما رأيت؛ وذلك الشاعر هو «أندريه شينييه»[٤] (١٧٦٢ — ١٧٩٤) الذى ولد فى القسطنطينية حيث كان أبوه قنصل فرنسا العام، وهنالك تزوج الوالد من امرأة يونانية بارعة الجمال كاملة التهذيب، هى أم الشاعر؛ وقد انتقل «أندريه» إلى باريس وهو لم يزل طفلا فدخل كلية ناڤار فى باريس؛ ولما تخرج فيها التحق بالجيش، لكنه سرعان ما ترك الحياة العسكرية كارها لها، وأخذ يجول فى أروبا الجنوبية بضع سنين، عاد بعدها إلى باريس، حيث كان لأمّه «صالون» أدبى، فكان هذا الصالون حلقة اتصال بين «شينييه» وبين كثير من رجال الفن والشعراء والفلاسفة؛ وعيِّن كاتما للسر مدى ثلاثة أعوام للسفارة الفرنسية فى لندن، لكنه كره إنجلترا والشعب الإنجليزى، ولم يكن لإقامته بتلك البلاد أثر فيه كالذى أحدثته فى عظماء أسلافه: ڤولتير وروسو وغيرهما. ولما عاد إلى بلاده انغمس فى تيار السياسة واشتغل بالصحافة؛ فأيد الثورة فى أولى مراحلها، لكنه لم يلبث أن ازورّ عنها لسياسية اليعقوبيين المتطرفة، فأدى ذلك إلى موته تحت المقصلة.

ويظهر من آثار «شينييه» التى لم تنشر إلا بعد موته، أنه كان يجاهد فى سبيل

---

(١) Jacques Delille. (٢) Gresset.
(٣) Florian. (٤) André Chénier.

الخلاص من ربقة القيود الصارمة التى فرضها أشباه الاتّباعيين على أنفسهم فقضوا بها على فنهم ، فهو فى « مراثيه »[١] يحاكى شعراء الرومان الأقدمين « تيبلّس » و بروبرتيوس » و «أوفد» ؛ و « ريفياته »[٢] زاخرة بما استقاه من الأدب اليونانى ، خذ مثالا لذلك قصيدة «الأعمى»[٣] التى يجعل هومر فيها يغنى لطائفة من الرعاة ، وقصيدة «السائل»[٤] التى يقص فيها سائل جوّال مغامراته لرجل أضافه ، فتبين له أن مضيفه هو ابنه ، ففى أمثال هذه القصائد تراه يستعير المادة من الأدب اليونانى ويمسّها بخياله الشعرى فيخرجها شعراً صادقاً ؛ تلك كانت أولى مراحله فى الشعر التى اعتمد فيها على الآداب القديمة اليونانية والرومانية على السواء ؛ ثم أخذ يطمح إلى نوع جديد من الشعر ، جديد فى موضوعه وغايته ، و إن اتبع الأصول الفنية عند الأقدمين : « هيا نبدّلْ » — فى استخراج رحيقنا — زهراتٍ لهم (أى للأقدمين) طالت عهودها ؛ وحسبنا أن نستعير منهم الأصباغ فى تصوير فكرنا ؛ هيانضىء مشاعلنا من شعلة أشعارهم ، فنصوغ شعراً قديما للتعبير عن فكرنا الجديد » فى هذه العبارة رسم خطته الجديدة التى تمنى أن يسير على منهاجها ، وكان لا بد له أن يفعل لو امتد به الأجل ، وقد بدأ فعلا يحاول تحقيق أمله بأن يعبّر عن فلسفة عصره وما ساد فى أيامه من مختلف العلوم فى شعر يلتزم قواعد الشعر القديم .

هكذا جاء « شينييه » حلقة تصل القديم والجديد ؛ فشعره مزيج من هذا وذاك ، ولكن ما زالت الصبغة الاتّباعية أبرز طابع يميزه ؛ فهو يونانى العاطفة والمزاج ، ولعله استمد ذلك من أمه اليونانية ، ثم أضاف إلى الطبع والسليقة تحصيلا من الأدب اليونانى إذ أخذ يغذى فطرته بمدد من هومر وغيره من تراث اليونان ؛ فتعاون الدم اليونانى الذى يجرى فى عروقه مع الاستعداد الفطرى الذى مال به نحو الأدب اليونانى ؛ ثم أضيف إلى هذين العاملين دراسة متصلة لما خلّف اليونان ، فأنتج هذا كله شاعرا فيه العنصر اليونانى ملىء بالحياة ، ولم يكن كسائر معاصريه من أشباه الاتّباعيين يسلكون فى أشعارهم الأصول القديمة جامدة ميتة . ولا غرابة أن يعد « شينيه » بداية للعصر الابتداعى فى

---

(١) Élégies . (٢) Bucoliques . (٣) L'Aveugle .

(٤) Le Mendiant .

الأدب لما تراه فى شعره من صور حية ناصعة ، وأسلوب واضح مبين يبرز لك المعانى إبرازاً حتى لتكاد تلمسها وتراها .

وهذا مثالٌ من شعره :

إلى فتاة تارَنْتُو

لقد ماتت « مِيرْتو » فتاة تارنْتو !
أخذتْهَا السفينةُ إلى شواطىء « كامارين » . . . . . .
وقد غلق مفتاحُ الحِرْصِ — من أجل يوم العُرْس —
خَشَبَ الأَرز على ثوب الزفاف
وعلى ذهب كان ليزيِّن ذراعيها
وعطورٍ أُعِدَّتْ لشعرها الأشقر ؛
لـكن ، وهى وحدها عند حيزوم السفينة تبتهل إلى النجوم
لفَّتها الرياحُ الهوجُ التى انتفخ بها الشراع ،
فصاحتْ جازعةً ، وهى على مبعدة من البحارة ،
ثم هَوَتْ بين أحضان الموج ،
لقد أَمْسَتْ بين أحضان الموج فتاة تارنْتُو !
وطَوَتْ موجة البحر جسدها الجميل
فاغرورقتْ من « ربة البحر » عيناها — وهى فى جوف صخرتها —
فجاهدتْ أن تُخْفى الجسدَ الجميلَ عن سباع البحر الضارية ،
فأَمَرَتْ فرفعتْها عرائس البحر الفاتنة من فورها فوق هام الماء ،
وحَمَلْنَهُ إلى الشاطىء . . . . . ثم نادين رفيقاتهن من بُعْدٍ بصرخات داوية
وطفقتْ عرائس الغابِ وعيونِ الماء والجبالِ
تضرب صدورها وقد جللّها الحداد
مرددةً — واحسرتاه — حول قبرها :
وا أسفا ! إلى حبيبك لم ترجعى

وثوب عُرْسك لم ترتده
وحول ذراعيك أساورُ الذهب لم تُعْقَد
وفى شعرك لم يَفُحْ ذكىُّ العطور

(ح) الأدب المسرحى :

١ — المأساة :

تدهور الشعر فى القرن الثامن عشر — كما رأيت — فتدهورت معه المأساة ؛ وكان انحطاطها — فى رأى ديدرو — نتيجة للقيود الثقيلة والتقاليد الباهظة التى فُرضت عليها فأعجزتها عن النهوض والسير ؛ فأصبحت المأساة شيئا آليا تُراعى فيه مجموعةٌ معينة من القواعد والقوانين ، وتعالَجُ فيها الموضوعات القديمةُ بعينها ، بأشخاصها ودوافعها ومواقفها ، دون أن تعبأ بحقيقة نفسية تصورها ، أوطبيعة تعكسها فى مرآتها ؛ فعلى كثرة مَنْ كتب المآسى فى القرن الثامن عشر ، لا تكاد تجد بينهم كاتباً يستوقفك بابتكاره ، ويسترعيك بجودته ؛ بل لولا كاتبان فيه أجادا فى كتابة المأساة بعض الجودة ، لما ترددنا فى الحكم على ذلك القرن بالنضوب التام فى ذلك الفن من فنون الأدب ، ونريد بهذين الكاتبين : « كربيّون » و « ڤولتير » .

أما « كربيّون »[1] (١٦٧٤ — ١٧٦٢) فقد ذاع صوته بين الناس فى سن باكرة ، ثم خَفَتَ ذلك الصوت فغمره النسيان حتى فارق الحياة ؛ وله عبارة مشهورة تلقى ضوءاً على فنه فى المأساة ، قال : « أخذ كورنى الأرض وراسينُ السماء فبقيت لى الجحيم » ، وقد تكون عبارة منحولة عليه ، ولكنها على كل حال تصف مآسيه التى أراد بها أن يثير فى نظارته الرعب أكثر مما يثير فيهم الإعجاب والإشفاق ، ومن هنا تراه يعالج فى رواياته أحدَّ العواطف وأفظع الجرائم ؛ منها : « أترى وثيِسْت »[2] و « الكترا »[3] و « رادامِسْت وزنوبى »[4] . وهو يعلو فى أسلوبه آناً ويهبط آناً ، وكثيراً ما يكون ثقيلا على النفس ،

---

(١) Crébillon (٢) Atrée et Thyeste (٣) Électre .
(٤) Rhadamiste et Zénobie

وقد تغمض معانيه فى بعض المواضع ؛ والجو السائد فى رواياته مكفهر كئيب ، ومع ذلك كله فهو جيّد بارع فى فنه التمثيلى فى بعض ما كتب .

ومهما يكن من أمر فقد أفل نجمه أمام كاتب سيطر على فن المأساة كما سيطر على سائر ميادين الأدب ؛ واستطاع وحده أن يحتفظ بتقاليد القرن السابع عشر وأوضاعه ، حتى دنا القرن الثامن عشر من ختامه ؛ ذلك هو ڤولتير الذى أخرج عددا من المآسى يقرب من خمس عشرة ، بدأها برواية « أوديب » وختمها « بأيرين »[١] ، ومنها « بروتس » و « زائير »[٢] و « محمد » و « تانكريد » و « ميروپ »[٣] ؛ وقد وضعه معاصروه فى صف كورنى وراسين ، بل زعموا أنه جمع فى فنه محاسن الرجلين ؛ لكن رجال النقد الحديث لا يضعونه فى هذه المكانة العالية ، وينكرون عليه قوة كورنى ، ونفاذ بصيرة راسين ؛ فلئن برع ڤولتير وأجاد فى بناء الرواية التمثيلية وسياقها فقد فاتته الروعة فى تصوير الأشخاص ، والقدرة على تحليل نفوسهم تحليلا عميقا يغوص إلى أغوارها .

وعلى كل حال فلمأساته مكانة هامة فى تطور المأساة ؛ فعلى الرغم من تمسك ڤولتير بقواعد المأساة الاتباعية كما وضعها أسلافه فى القرن السابع عشر تمسكا نظريا فهو من الوجهة العملية قد خرج على تلك القواعد بعض الخروج متأثرا بشكسپير ، لا سيما فى توسيعه لنطاق المأساة بحيث يشمل موضوعات لم تكن تقرها قواعد الاتباع من قبل ؛ فقد كان يشترط أن تستمد المأساة موضوعها من أصول يونانية ورومانية ، وأن يكون للأشخاص أسماء يونانية ولاتينية ؛ فاتبع ڤولتير هذا العرف فى بعض رواياته مثل « بروتس » و « موت قيصر » و ميروپ » لكنه خرج عليه فى روايات أخرى ، فهو ينقلك فى « تانكريد » إلى عالم الفروسية فى العصور الوسطى ، وفى « محمد » و « زائير » ينقلك إلى بلاد الشرق وهكذا ؛ بل إنه حتى فى رواياته الاتباعية الخالصة تراه خارجا بعض الخروج على أسلافه ممهدا السبيل للحركة الابتداعية القادمة ، فقد كان أسلافه فى المأساة لا يلتفتون إلى تصوير الجو المحيط بهم فى عصرهم ، ويحاولون أن تظهر رواياتهم فى جو يونانى أو رومانى حسب الموضوع المختار . أما ڤولتير فقد عنى بما أهمله هؤلاء الأسلاف ، مثال ذلك أنه أصرّ

---

(١) Iréne . (٢) Zaïre . (٣) Mérope .

على أن يظهر « بروتس » فى ثياب فرنسية تمثل الثياب السائدة فى القرن الثامن عشر .

٢ — الملهاة :

سارت ملهاة النصف الأول من القرن الثامن عشر على قواعد زعيم الملهاة « موليير » وأهم وأجود ما ظهر إذ ذاك من الملاهى ، رواية « تيركاريه »[١] لكاتبها « لى ساج »[٢] الذى سنحدثك عنه بعد قليل قصصيا بارعا ، فلو لم يكتب قصته المشهورة « چيل بلاس »[٣] لخلدته ملهاته تلك التى يسخر فيها سخرية جميلة من طبقة محدثة من رجال المال والأعمال ، ويعرض لأساليبهم وأخلاقهم فيبين مواضع الضعف فيها بتهكمه الظريف .

وكتب الملهاة كاتب آخر سنصادفه مع « لى ساج » بين رجال القصة ، وهو « ماريفو »[٤] (١٦٨٨ — ١٧٦٣) ، وبدأت الملهاة بفضله طريقا جديدا ، بأن أخذت توجه مجهودها نحو دقة التحليل النفسى ؛ وتختار « الحب » موضوعا لها ؛ وموضع التجديد هنا هو أنه اتخذ عاطفة الحب موضوعا للتحليل ، بدل أن يجعلها — كما فعل السابقون — عنصرا بين سائر العناصر التى تتكون منها حوادث الرواية ؛ وهو يعالج الحب فى ألوانه المختلفة : الحب حين لا يشعر بوجوده العاشقان ، والحب حين يشعران به ويخفيانه ، والحب الذى لا يجرؤ على إعلان نفسه ، والحب حين يكون موضع شك وريبة ؛ فهو باتخاذه تحليل الحب موضوعا لملهاته ، كان شبيها براسين الذى اتخذ تحليل الحب موضوعا لمأساته ، ومن ملاهيه : « لهو الحب والمصادفة »[٥] و « الاعترافات الزائفة »[٦] و « المخلصون »[٧] و « المحبة »[٨] .

كان « ماريفو » عاملا على تطور الملهاة نحو ما يسمى « الملهاة الباكية »[٩] — وهى شبيهة بضرب من الملهاة شاع فى انجلترا فى القرن الثامن عشر أيضا ، ويسمى هناك بالملهاة العاطفية — والملهاة الباكية تستدر عبرات النظارة بأن تعرض عليهم حياة الناس الخاصة بما فيها من فضائل وما تعانيه من آلام ، أكثر مما تستثير ضحكاتهم بأن تعرض عليهم تلك

---

(١) Turcaret . (٢) Le Sage . (٣) Gil Blas .
(٤) marivaux . (٥) Le Jeu de l'Amour et du Hazard .
(٦) Les Fausses Confidences . (٧) Les Sincères .
(٨) L'Epreuve . (٩) Comédie Larmoyante .

الحياة الخاصة بما فيها من حماقة وسخف ؛ أو هى بعبارة أخرى تضع مأساة فى إطار ملهاة ؛ ولما كانت « الملهاة الباكية » تخالف طبائع الأشياء فقد ظهرت حركة تقاومها ، وعلى رأسها « بومارشيه »[1] (١٧٣٢ — ١٧٩٩) الذى حاول أن يعيد للملهاة ضحكاتها الخالصة التى تنبعث من قلوب خليَّة مرحة كما كانت عند موليير ، وذلك بملهاتيه الساخرتين الرائعتين « حلاق اشبيلية »[2] و « زواج فيجارو »[3] .

وذكر « الملهاة الباكية » التى تمزج بين عنصرى المأساة والملهاة معا يؤدى بنا إلى الحديث عن « المأساة البورجوازية » أو « الدراما » كما أطلق عليها ، وهى ضرب من المسرحية ظهر فى فرنسا فى أواخر القرن الثامن عشر ؛ فلعلك تذكر أن أصحاب المذهب الاتباعى لم يجيزوا قط أن تختلط ألوان الأدب بعضها ببعض ، فلا يجوز لمأساة أن تقبل عنصرا من عناصر الملهاة . والمأساة عندهم شرطها أن تكون أرستقراطية فى موضوعها ، فتعالج مصرعا لعظيم ، وتعرض أشخاصا فوق المستوى المألوف من عباد الله ؛ وأما الملهاة فشرطها عندهم أن تعالج مضحكات مأخوذة من حياة الطبقة الوسطى أو الطبقة الدنيا ؛ وكان طبيعيا فى عصر أخذت روح الديمقراطية تظهر فيه وتزداد أن يثور الأدباء على هذه الأوضاع الأدبية التى تفرق بين الطبقات ؛ وقد رأينا بداية هذه الثورة فى « الملهاة الباكية » ، حين حاولت أن تطمس الفوارق بين المأساة والملهاة ؛ ثم أخذ رجال الأدب يتساءلون : فيم هذه التفرقة ؟ لماذا لا تتخذ حياة الطبقة المتوسطة إلا موضوعا للهو والفكاهة ؟ لماذا لا تكون كوارث هذه الطبقة من الناس مصدرا للأسى لا يقل فى فجيعته عما تحدثه كوارث عظماء التاريخ القديم وأشخاص الأساطير ؟ لا بد اذن من أن يُفسح فى مجال المأساة ليتسع « للمأساة الشعبية » إلى جانب « المأساة الحماسية » المألوفة ؛ ولئن أعوز هذه المأساة الشعبية ما فى زميلتها « الحماسية » من أبهة وجلال ، فسيعوض عن هـذا النقص قربها من الحق الواقع وعمق أثرها فى تقويم الأخلاق .

كان هذا — كما ذكرنا — نتيجة لازمة للتطور السياسى فى القرن الثامن عشر الذى كان يسير نحو الديمقراطية ، ونحو ثورة الشعب على التفاوت القائم ، بخطوات سراع ،

---

(١) Beaumarchais .

(٢) Le Barbier de Seville .

(٣) Le Mariage de Figaro .

لكنه كان كذلك نتيجة مباشرة لروايات انتقلت من الأدب الإنجليزى إلى فرنسا ؛ فقد ترجمت رواية « لِلُو » « تاجر لندن ، أو تاريخ جورج بارنُول »[١] ورواية « المقامر »[٢] لإدوردمور ؛ ولم تكد هاتان الروايتان تنقلان إلى الفرنسية حتى امتدحهما النقاد وقلدهما الكتّاب وتحمس لهما الشعب ؛ وأصبحتا نموذجا يحتذيه كل من أراد السير على المنهاج الجديد ، وما هذا المنهاج الجديد سوى « المأساة البورجوازيه » (وقد تسمى « الدراما » فقط) التى تستمد عناصر المأساة من الحياة المنزلية المألوفة عند أوساط الناس ، والتى تتوخى الصدق فى الوصف والتصوير .

وأعظم رجال « المأساة البورجوازية » — إذا قيست العظمة بعمق الأثر — هو « ديدرو » فى مأساتيه النثريتين « الابن الطبيعى »[٣] و « رب الأسرة »[٤] ولو أنه لم يوفق فى تأليفهما ؛ وكان « سِيدِنْ »[٥] (١٧١٩ — ١٧٩٧) أقرب منه إلى التوفيق فى رواية « فيلسوف وهو لا يدرى »[٦] ، ويعد « سيدنْ » طليعة القرن التاسع عشر فى هذا اللون من الأدب المسرحى .

(٤) القصة :

كثيراً ما يتشابه مجرى الأمور فى الأمم المختلفة ؛ ففى إنجلترا فى القرن الثامن عشر ، أخرج الكاتب المسرحى « لِلُو » — الذى سلف ذكره فى الكلمة الماضية — روايته « التاجر اللندنى » محاولا بها أن يضع أساسا لنوع جديد من المأساة يُعالج شئون الطبقة الوسطى فى حياتهم الخاصة ، وأخرج الكاتب القصصى « رتشردسُنْ » قصة « باملا » يقصد بها إلى الغاية نفسها فجاء المجهودان فى وقت واحد ، يشد أحدهما أزر أخيه ؛ وكذلك حدث فى فرنسا أن اتجهت جهود الأدباء نحو تحويل المسرحية والقصة فى هذا الاتجاه الجديد فى آن معاً ؛ فالمسرحية الجديدة والقصة الجديدة كلتاهما أريد بها أن تصور الحياة الجارية لسواد الناس ؛ وكانت كلتاهما نتيجة لتطور الحركة الديمقراطية واتساعها .

---

(١) London merchant or the History of George Brnwell, by Lillo

(٢) The Gawester, by Edward moore .

(٣) Le Fils Naturel . (٤) Le Père de Famille .

(٥) Sedaine . (٦) Pbilosople sans le savoir .

لى ساج Le Sage (١٦٦٨ — ١٧٤٧) :

هو أول من يصادفك بين رجال القصة من الفرنسيين ؛ درس القانون والتحق بسلك القضاء ؛ لكنه هجر القضاء لينصرف إلى الأدب ، ولبث حتى نهاية حياته معتمدا فى عيشه على قلمه ؛ وقصته التى خلدته هى « چيل بْلاس »[١] و بطلها طالب فرنسى شاب يدعى « أوڤيدو »[٢] ، قصد إلى جامعة « سالامانكا » ليتمم دراسته ، و بينما هو فى طريقه أطبق عليه اللصوص ، لكنه استطاع أن يلوذ بالفرار وتقلبت به الحياة ، فهو آناً يخدم الكنيسة ، وآناً يعاون طبيباً ، وطورا يتصل بالمسرح ، و بعد أن دارت به عجلة الحظ صعوداً وهبوطا ، عرفه رئيس الوزراء فوثق به وجعله كاتما لسره ، وجمع ثروة عريضة وسلطاناً قويا ، لكن عجلة الحظ عادت فهبطت به من جديد وطوحته أسفل سافلين ، ثم صعدت به مرة أخرى واستعاد سابق مجده إذ عيّنه أحد الأشراف كاتماً لسره ؛ وانتهى به الأمر أن تزوج للمرة الثانية وأوى إلى قصره حيث قضى بقية عمره فى هدوء وسعادة ...

وحوادث الرواية — كما ترى — مفككة لا حبكة فيها ولا وحدة ولا منطق يضبط تتابعها ، فالمغامرات يعقب بعضها بعضاً كما اتفق ، بغير خطة مرسومة مدبرة ، وكثيراً ما يستطرد الكاتب فى قصص فرعية لا تربطها بمجرى الحوادث الرئيسى رابطة قوية ؛ وإن شئت فقل إن « چيل بْلاس » مجموعة من القصص سيقت واحدة تتبع واحدة ، دون أن تتصل هذه الخرزات بخيط واحد لتصبح عقدا موصولا ، لكن انتقال البطل فى أوساط مختلفة ، بحيث يخالط أدناها و يعاشر أرقاها ، هيأ للكاتب فرصة نادرة ليصور أخلاق عصره على اختلاف ألوانها ؛ وساعد الكاتبَ على حسن التصوير دقة ملاحظته التى لم تفلت منها دقيقة ولا جليلة من شئون الحياة فى كافة ضروبها ، وكذلك براعته فى تحليل الأشخاص حتى ليضرب ببعض أشخاص قصته المثل فى جودة التحليل والعرض — مثل شخصية الدكتور سانجرادو —[٣] والتحليل عند « لى ساج » لا يتميز بالعمق ولكنه يتصف بالصدق ومطابقة الواقع ؛ وهو فى قصته ساخر يهزأ بالتحليل الخلقى الذى أصاب

---

(١) Gil Blas .

(٢) Oviedo .

(٣) Dr. Sangrado

عصره الذى يصوره ، لكنها سخرية عفيفة لم تزلّ مرة فى هجر القول وفحشه ، حتى لقد نقده تلميذه « سمولِتْ » — القصصى الإنجليزى الذى سنروى لك نبأه فى الفصل القادم — بقوله إنه كان أرفق مما ينبغى بحماقات الإنسان وسيئاته .

***

ونذكر من أصحاب القصة فى ذلك العصر أيضاً « ماريفو » الذى أسلفناه كاتبا مسرحيا مجدداً فى فن الملهاة ؛ وقصتاه المشهورتان — وكلتاهما ناقصتان — هما « حياة ماريان »[١] « والفلاح المُحْدَث »[٢] ؛ أما الأولى فمذكرات على لسان نبيلة تسجل فيها تاريخ حياتها من طفولتها حتى يومها الراهن ؛ وأما الثانية فقصة فلاح شاب يدعى « يعقوب » يهجر قريته فى سن الثامنة عشرة ليلتمس الثراء فى باريس ؛ وهاتان القصتان شبيهتان بقصة « چيلْ بْلاس » فى تفكك الأجزاء وتتابع المغامرات وتلاحق صور الحياة المختلفة الألوان والوجوه ؛ لكن « ماريفو » أقرب إلى تصوير الواقع من « لى ساج » ؛ فبدل أن يقص الحوادث فى جو أسبانى ويخلع على أشخاصه ثياباً أسبانية وأسماء أسبانية ليخفى وراءها رجاله ونساءه من الفرنسيين ، كما فعل « لى ساج » ، ترى « ماريفو » يحدثك عن رجال فرنسيين ونساء فرنسيات فى غير تنكر ولا إخفاء ، ويعرض لك أشخاصه فى جو فرنسى خالص ؛ وكذلك كان « ماريفو » أحرص من زميله « لى ساج » على تسجيل دقائق الحياة كما تقع ؛ ثم إنه عنى بالتحليل النفسى لأشخاصه ، فكانت هذه الأداة عنده وسيلة اجتذاب القارىء ، وهى تقابل عنصر السخرية والفكاهة عند « لى ساج » .

وأخيرا نذكر من كتّاب القصة « پريفو »[٣] (١٦٩٧ — ١٧٦٣) الذى بدأ حياته جنديا ، ثم ترك الجيش لينخرط فى جماعة دينية وأصبح قسيسا ، ولكن نفسه القلقة لم تطمئن إلى حياة الدير ، ففر إلى هولندة ثم ألقى عصا تسياره فى انجلترا ، حيث أقام حينا عاد بعده إلى بلاده .

---

(١) La Vie de Marianne . (٢) La Paysan Parvenu .

(٣) Prévost .

كتب «بريفو» أكثر من مائة كتاب ، بينها قصص ثلاث : « مذكرات ومغامرات رجل ذى شأن »[١] وتقع فى ثمانية أجزاء ؛ و « الفيلسوف الإنجليزى أو تاريخ مسيو كليفلاند »[٢] وتقع كذلك فى ثمانية أجزاء ، و « أسقف كيلرين »[٣] وتقع فى ستة أجزاء ؛ وكان مما عمله « بريفو » أن ترجم « رتشردسُن » — القصصى الإنجليزى — وهنا كثيرا ما يخطئ المؤرخون فيزعمون أن القصّاص الفرنسى تأثّر خطوَ زميله الإنجليزى بما ترجمه له ، فينبغى أن نذكر أن « بريفو » سبق بكتابة قصصه ترجمته لرتشردسن ، فهو إذن لا يدين له فيها بشىء ، ولم يبق لنا من هذا الإنتاج الضخم إلا شذرات قليلة تكفى وحدها أن تضع الكاتب فى مكانة ممتازة بين رجال القصة فى الأدب الفرنسى ؛ ولنذكر من هذه الشذرات بصفة خاصة « تاريخ مانون ليسْكُو »[٤] — وهو فى الأصل شطر من الجزء السابع من قصة « مذكرات رجل ذى شأن » — فهذا الجزء يكوّن قصة قصيرة هى بحق أول قصة — فى موضوعها وصبغتها — تلمح فيها شبهاً بما نسميه اليوم بالقصة ؛ فحكاية الحب فيها تثير عطف القارئ ومشاعره ، والحوافز التى تدفع أشخاصها إلى النشاط والعمل طبيعية ، تصور الواقع أتم تصوير ؛ وأسلوبها سلس مستقيم ، لا يشوبه الإسراف فى الصنعة والتكلف ؛ وها قد انقضى على الإنسان قرنان من الزمان يمارس فيهما كتابة القصة منذ « بريفو » ولا تزال « مانون ليسْكُو » تهز قلب القارىء وتحرك مشاعره .

---

(١) Memoires et Aventures d'un Homme de Qualité .

(٢) Le Philosophe Anglais, or Histoire de M. Cléveland

(٣) Le Doyen de Killerine .

(٤) Histoire de manon Lescaut .

الفصل الثانى عشر

الأدب الإنجليزى فى القرن الثامن عشر

(١) النثر :

جوناثان سْوِفْت Jonathan Swift (١٦٦٧ — ١٧٤٥) .

ولد فى « دبلن » ، وكان أبوه قد مات قبل ولادته ، فكفله عمه حتى أتم دراسته فى الجامعة ؛ ولم يكن فى دراسته الجامعية تلميذاً نابهاً حتى لقد منح الدرجة عن غير جدارة علمية ؛ ولم يلبث أن عيّنه قريب له عظيم كاتماً لسره ، وكان ذلك القريب العظيم هو « السير وليم تمپل »[1] رجل السياسة المشهور فى تاريخ بلاده ، وكان إذ ذاك يقيم فى « مور پارك »[2] بمقاطعة « سَرِى » فى انجلترا .

لبث « سْوِفْت » فى منصبه ذاك نحو عشرة أعوام ، ملأها بالقراءة والدرس ، فأكمل بهذا المجهود الشخصى نقص دراسته الجامعية ؛ وكان إذ ذاك يكتب ويكتب ، ثم يقذف فى النار بما يكتبه ؛ وحاول قرض الشعر ولم يوفق ، وقد عرض إحدى منظوماته الشعرية على « دريدن » — وبينه وبينه صلة من الرحم — فقال له الناقد الكبير قولا كان له فى نفس الكاتب أعظم الأثر : « سوفْتُ يا ابن العم ؛ إنك لن تكون شاعراً » .

وكان فى « مُورْ پارك » — حيث أقام السير تمپل ومعه سوفت — طفلة تنتمى بصلة بعيدة إلى أسرة الكاتب ، هى « إسْتَرْ چونسُنْ » ، تعهد سوفت بتعليمها وتثقيفها ، فنشأت صلة من الود بين التلميذة وأستاذها ، ثم تطور الود فأصبح حباً وغراماً ، كان أقوى فى جانب الفتاة منه فى جانب الأستاذ ؛ وهذه هى الفتاة التى أطلق عليها الكاتب فى أدبه اسم « سْتِلاَّ » ؛ ومات « السير تمپل » بعد حين ، فعنى « سوفت » بنشر مؤلفاته — وكان تمپل سياسيا أديباً له مكانته فى عالم الأدب — وبعدئذ عاد « سوفت » إلى وطنه ايرلندة قسيساً لحاكمها « لورد باركلى » فسافرت فى إثره « سْتِلاَّ » ومعها صديقة لها ؛ واتصلت صلة الصداقة بين الكاتب وفتاته ، فكانت له مصدر سعادة لولاها لأصبحت حياته معتمة كئيبة .

---

(١) Sir William Temple (٢) Moor Park

وأول ما أخرجه « سوفت » من أدبه الخالد « قصة الدَّلْو »[١]، كتبها وهو فى التاسعة والعشرين من عمره ؛ وهى عند بعض الناقدين أعظم ما جرى به قلم الكاتب ؛ وفيها يسخر من العقائد الدينية الثلاث : الكنيسة الانجليكانية ، والكنيسة الرومانية ، والكنيسة الكهنوتية ، وهو يرمز إلى الكنائس الثلاث بأسماء إخوة ثلاثة : « چاك » و « بطرس » « ومارْتِنْ » . وقد ذكر سوفت كتابه هذا بعد كتابته بأعوام طوال ، فقال : « يا إلهى ! يا لها من عبقرية وُهِبْتُها حين أنشأت هذا الكتاب » . والحق أن هذه القصة دليل ناهض على أصالة فكره وقوة ابتكاره ، تجلت فيها مواهبه إلى حدها الأقصى ، والهجاء فى هذا الكتاب منصبٌّ على رجال الدين الذين يثيرون اختلافات فى المذاهب بتعالُمهم وسخفهم .

ثم تلا هذه القصة « معركة الكتب »[٢] التى تدور حول المفاضلة بين أدب القدماء وأدب المحدثين ؛ فقد نشبت معركة أدبية حامية بين الأدباء حول هذه المفاضلة — وبدأت المعركة فى فرنسا — وكان « السير وليم تمپل » فى ذلك العراك مدافعاً عن الأدب القديم ، فأيده « سوفت » فى وجهة نظره ؛ و « معركة الكتب » ملحمة تهكمية يتخيل فيها الكاتب حرباً تنشب بين الكتب القديمة والكتب الحديثة التى فى مكتبة قصر سنت چيمس ، نسوق لك منها هذا المثال :

« كان جيش القدماء أقل عدداً من جيش المحدثين قلةً ظاهرة ؛ وكان لهومر قيادة المدفعية الراكبة ، ولپندار قيادة كتيبة الفرسان الخفيفة ؛ وكان أقليدس رئيس المهندسين ، وعُهد بقيادة رُماة القوس إلى أفلاطون وأرسطو ؛ وبقيادة المشاة إلى هيرودت ولقى ، وكان هيوقراط على رأس فرقة من الفرسان ؛ واصطف فى المؤخرة جنود الحلفاء يقودهم « ڤوسْيَسْ » و « تمپل » .

ودلت الدلائل كلها على أن معركة فاصلة وشيكة الوقوع ؛ فطارت « الشهرة » — وقد كانت كثيراً ما تطوف بالمكتبة الملكية ، وكان لها فيها مكان فسيح تأوى إليه — طارت فى عجل إلى چوپتير ، فقصّتْ عليه كل ما حدث بين الحزبين فى العالم الأرضى ، وكانت أمينة فيما قَصَّتْ ، لأنها لا تقول إلا الصدق وهى بين الآلهة ؛ فأبدى چوف اهتماما

---

(١) Tale of a Tub. (٢) Battle of the Books

عظيما بالأمر ، وجمع من فوره مجلسا فى مجرّة السماء ، ولما اجتمع شيوخ السماء أنبأهم كبير الآلهـة النبأ ، قائلا إن معركة دامية وشيكة الوقوع بين جيشـين قويين من القدماء والمحدثين ، وما تلك الكائنات القديمة والمحدثة إلا كتبٌ يهتم بأمرها آلهة السماء اهتماما شديداً ، وربما أسرفت الآلهة فى اهتمامها ذاك . . . . . .

ولما رأى « أرسطاليسُ » (بيكُنْ) يتقدم نحوه مقطب الجبين من غضب ، رفع قوسه إلى رأسه وأرسل رمحه يشق الهواء ، لـكن الرمح أخطأ « المُحْدَثَ » المِقْدَام ، ومضى فوق رأسه يئزّ أزيزاً ، حتى صادف ديكارت فأصماه ... ... »

وأخرج « سوفت » بعد ذلك « يوميات إلى سْتِلاّ »[1] ، وهى خطابات قصد بها إلى حبيبته ، ولم يُرِدْ نشرها ؛ أخذ يتحدث فيها حديثاً طليا عن دقائق حياته ويصبّ فيها عواطفه كما تجيش فى صـدره ؛ تراه آنا يثرثر ثرثرة الخلىّ المرح ، ثم ينتقل فجأة إلى أهم الحوادث السياسية فى عصره ؛ وهو بعبارة واحدة من قلمه ينفث الحياة والقوة فى شخص ، وبعبارة أخرى يضرب شخصاً آخر الضربة القاضية التى لا قيامة لذكره بعدها ، وبالطبع يتخلل الأحاديث كلها حبُّه لِسْتِلّا وحاجتهُ إلى حبها وعطفها . ولقد كانت علاقته بها موضع اختلاف كبير ، والأرجح عند بعض الناقدين أنه تزوج منها .

كان « سـوفت » أول الأمر مؤيداً لحزب الأحرار ، ثم ساءته سياستهم فانضم إلى حزب المحافظين ؛ وسرعان ما أصبحت له مكانة سياسية ممتازة ، بل لسنا نسرف إن زعمنا أنه أصبح فى عالم السـياسة — كما كان فى عالم الأدب — قطب الرحى ، وكان من الأدباء الأصدقاء الذين تجمعوا حوله « پوپ » و « أَدِسُنْ » و « سْتِيل » ونوشـك أن نقول فى غير تحفظ إن الأدب الإنجليزى لم يشهد رجلا بلغ من السلطان وقوة المركز مابلغه « سوفت » إذ ذاك ، وأخذ يخرج رسالة فى إثر رسالة يهاجم بها « الأحرار » أصـدقاء الأمس ؛ والعجيب أنه رغم جبروته لم يستفد شيئا مما يأمله ؛ فقد كان يطمح أن يكون أسقفاً لـكنيسـة فى إنجلترا ، ولـكن أولى الأمر أبوا أن يعهدوا بمثل هذا المنصب الدينى إلى رجل طعن الـكنيسة طعنات دامية فى قصـة « الدَّلْو » ؛ وأخيراً نُصِّبَ نائباً لأسقف فى

---

(١) Journal to Stella

كنيسة « سنت باترك » فى دبلن ، ولم يكن « سوفت » مقتنعا بهذا المنصب ، ولم يُرْض
أن يستقر به المقام فى دبلن بعيداً عن النشاط السياسى فى إنجلترا ؛ وما هى إلى فترة قصير
مضت حتى سقط المحافظون وفقد سوفت بسقوطهم كل رجاء . وظل مقيما فى دبلن وكأ
منها فى مطارح النفى .

وفى سنة ١٧٢٦ نشر « سوفت » أشهر كتبه وأقربها إلى نفوس القراء على اختلافه
وهو «رحلات جَلِفَرْ »[1] الذى ما فتىء منذ نُشِرَ مصدر متعة لا تنقطع للصغار والكبا
على السواء ، مع أن كاتبه يقول : « إن الغاية الأساسية التى أرمى إليها هى أن أُحْر
صدور الناس لا أن أسلّيهم » ويقول أيضا فى خطاب أرسله إلى « پوپ » أنا أكره وأمقت
بقلبى ذلك الحيوان الذى يسمى بالإنسان ، ولوأننى أحب بقلبى زيداً وعمرا وخالدا ... :
فالكاتب ناقم على الإنسانية باعتبارها جنساً عاما ، لكنه يحب الأفراد إن بدا منه
ما يدعو إلى الحب وهذا الكتاب نقد مقذع لاذع للإنسانية البغيضة .

وموضوع الرحلات — كما يعلم القراء جميعا — وصفٌ لأسفار جلفر فى أرض الأقزا
ثم فى أرض العمالقة ؛ فهو بين أولئك ماردٌ جبار و بين هؤلاء قزم ضئيل ؛ وقد برهن
الكاتب على قدرة توشك أن تكون إعجازاً فى حفظ النِّسَبِ بين حجوم الأشياء ؛ فالعا
كله فى بلاد « لِيلِيپَتْ »[2] أرض الأقزام — ضئيل بنسبة مطردة ، والعالم كله فى بلا
« بروبْدِنْجِنَاج[3] — أرض العمالقة — ضخم بنسبة مطردة أيضا ؛ فلو قلنا — مثلا —
إن البوصة عندنا تمثل قدما فى أرض الأقزام والقدم عندنا تمثل بوصة فى أرض العمالقة
سار كل شىء على هذه النسبة فى دقة عجيبة لا تخطىء ؛ فالبقرة عند الأقزام فى حجم الفر
الصغير والمنزل فى حجم الصندوق ، والرجل من الناس يمكن حمله فى الجيب وهكذا . وقل
عكس ذلك عند العمالقة .

ولم يَرُقْ للدكتور چونسُنْ أن يجعل فى هذا قدرةً ونبوغا ، قائلا : « يكفيك أن تفك
فى ناس ضخام وناس ضئال ، ثم يسهل عليك بعد ذلك بقية القصة » ؛ ولكن يظهر أ
سهولة الأمر قد أوحى بها الاطراد العجيب الذى استطاع سوفت أن يحافظ عليه من بد

---

(١) Gullivers' Travels (٢) Lilliput (٣) Brobdingnag

القصـة إلى ختامها ، فظن الناقد أن تصغير الأشياء والأحياء أمر طبيعى فى مقدور كل إنسان ؛ وقد يقول قائل : إن القصة أكذوبة واحدة ، ومن اليسير أن يكذب الإنسان ؛ ولـكن فـكِّر قليلا تجد الأكذوبة المتسقة المطردة التى لا تتناقض أجزاؤها ليست من السهولة بحيث ظننت للوهلة الأولى .

ولـكن ماذا يريد « سوفت » بهـذه الرحلات العجيبة ؟ يريد أن يهاجم الإنسانية عامة فى غرائزها وحماقاتها ، وأن يسخر من رجال عصره خاصة فى خصوماتهم وسفاسفهم ؛ فإذا قال لك مثلا إن قومين من الأقزام اقتتلا ، واستعان فريق منهما بجلفر لأنه كان يخشى سطوة أسطول الأعداء ، فيذهب جلفر إلى ذلك الأسطول المخيف فيحطمه بإحدى يديه . ضحكتَ من زهو هؤلاء الذين اعتدوا بسطوة أسطولهم . والخطوة التالية أن تضحك من زهو الإنسان بقدرته ، وإنه لضعيف ؛ بل إذا قال لك إن جيشين من هؤلاء الأقزام تلاقيا فى حومة الوغى ، وأنت تعلم أن الجندىّ منهم لا يزيد على طول إصبعك ، ضحكتَ ملء شدقيك عجبا من خصومة تشتد بين تلك المخلوقات الضئيلة حتى تؤدى بهم إلى القتال ، والخطوة التالية لذلك أن تضحك ملء شدقيك أيضا عجبا من بنى الإنسان يختصمون ويقتتلون وإنهم كذلك لتوافه ضئال ؛ وإن روى لك الـكاتب عن أرض الأقزام أن حزبين هنالك أحدهما يلبس أعضاؤه أحذية عاليـة الأعقاب ، والآخر يلبس أعضاؤه نعالا وطيئة الأعقاب ، وأن هذين الحزبين يختلفان فى تلك البلاد على ولاية الحـكم ، وأن الأمبراطور قرر ألا يعهد بأزمّة بلاده إلا لذوى النعال الوطيئة ، وأن ابن الإمبراطور كان متردداً بين الحزبين أيهما أقوم سبيلا فلبس نعلاً عاليا ونعلاً وطيئاً ، فاعلم أن الـكاتب يرمز بذلك إلى حزب « الـكنيسة العالية » وحزب « الـكنيسة الواطئة » — فهـكذا كانا يسميان فى انجلترا فى القرن الثامن عشر — أى إلى المحافظين والأحرار ؛ وهو يرمز بامبراطور الأقزام إلى الملك چورج الأول ، وقد كان يميل بهواه مع الأحرار ، وابن الأمبراطور يمثل أمير ويلز الذى أبدى بعض الميل نحو المحافظين ؛ وإن رأيت الـكاتب يروى لك عن الأقزام أنهم اختلفوا من أين تُـكسر البيضة ؟ أتـكسر من طرفها العريض أم من طرفها الدقيق ؟ وأن هذا الاختلاف أدى بينهم إلى خصومة وشحناء ؛ فاعلم أنه يشير بذلك

إلى الاختلافات الدينية التافهة التى يثيرها رجال الدين بتعصبهم ، ولو نُظِرَ إلى تلك الخلافات من أعلى لوُجد أنها لا تزيد فى جدها عن مشكلة البيضة من أين تكسر ؛ وهكذا ، وهكذا . . . فلو قرأت « رحلات جلفر » تحت هذا الضوء لرأيت أنه أعظم كتاب فى الهجاء الساخر بالإنسان عامة و برجال عصره خاصة .

والآن نعرض عليك فكرة موجزة عن أجزاء الكتاب :

أبحر « مستر لميُول جلفر »(١) — وهو جراح على سفينة — من مدينة برسْتُل فى الرابع من شهر مايو سنة ١٦٩٩ ميمما شطر جزائر الهند الشرقية ؛ وتحطمت السفينة عند خط عرض ٣٠ تقريبا ، فقذف الموج بجلفر إلى جزيرة مجهولة ، فإذا بتلك البلاد مملكة « ليليپيت » التى يسكنها أقزام صغار ؛ وأخذ هؤلاء الأقزام رحالتنا أسيراً . وهنا يصف « سوفت » حياة هؤلاء الناس ؛ وما ينشب من قتال بينهم و بين جيرانهم أهل « بليفَسْكُو »(٢) ، وحياة رجال القصر ، والأحزاب المختلفة ؛ وما إلى ذلك ؛ ونشب بين أهل « ليليپيت » — يقصد بهم الإنجليز — وأهل « بليفسكو » — و يقصد بهم الفرنسيين — قتال فظيع نسوق لك العبارة الآتية فى وصف أسبابه ، لأنها تدلك على طريقة الكاتب فى التهكم :

« بدأ القتال على الوجه الآتى : يسلّم الناس جميعاً بأن الطريقة البدائية لكسْر البيض قبل أكله هى أن يُكسر من طرفه العريض ، لكن جَدّ جلالة الملك الحاضر حدث له مرة حينما شرع يأكل بيضة وهو صبى أن جرح إصبعه لما أراد كسر البيضة وَفْق التقليد القديم ؛ فلم يلبث أبوه الإمبراطور أن أصدر مرسوما يأمر فيه أبناء الشعب جميعا أن يكسروا البيض من طرفه الدقيق و إلا تعرضوا للعقاب الصارم ؛ ولكن الشعب اتخذ موقف المقاومة بحيث ينبئنا التاريخ أن ست ثورات نشبت لهذا السبب ، ومات أحد الأباطرة فى تلك الثورات ، وضاع التاج من آخر ؛ وقد كان ملوك « بليفسْكُو » لا ينفكّون يزيدون هذه الثورات الأهلية اشتعالا ، وكانت إذا ما هدأت ثورة فر الطريدون إلى تلك الإمبراطورية يحتمون فيها ؛ و يقال إن أحد عشر ألفا من الناس كانوا بين آونة وأخرى

---

(١) Mr. Lemuel Guliver (٢) Blefusco

يؤثرون الموت على أن يذعنوا لما أُمروا به من كسر البيض من طرفه الدقيق ، وكُتبت مئاتٌ عديدةٌ من الكتب فى موضوع هذا الخلاف ، لكن مؤلفات « أصحاب الطرف العريض » حُرِّمت منذ أمد بعيد، كما حَرَّم القانون على ذلك الحزب كله أن يشغل رجاله مناصب الدولة ؛ وكثيراً ما احتج أباطرة بليفسكو خلال ذلك الشغب بوساطة سفرائهم ، وهم فى احتجاجهم يتهموننا بإحداث فتنة دينية ، إذ زعموا أننا بذلك إنما نسىء إلى مذهب أساسىّ فى الدين كما بشّر به نبينا العظيم « لَسْتُرُجْ » فى الجزء الرابع والخمسين من الكتاب المقدس « بلَنْدِكْرَالْ » (وهذا الكتاب هو « قرآنهم »)[1]؛ لكننا نحسب أن قولهم هذا مبالغة فى تأويل النص ، لأن العبارة كما وردت هى : « وأُمِرَ المؤمنون جميعاً أن يكسروا بيضهم من الطرف الملائم » ، وأىّ الطرفين هو الملائم ؟ يجب — فى رأيى المتواضع — أن يترك لضمائر الأفراد ، أو أن يخوَّل كبيرُ القضاة — على الأقل — حق الفصل » .

وفى الجزء الثانى من الكتاب يفر جلفر من أرض « ليليبيت » إلى بلاد « برو بدنجناج » وأهل هذه البلاد عمالقةٌ يكبرونه حجما بمثل ما يصغره أقزام ليليبيت ؛ وأُخِذَ جلفر فى حضرة الملك العملاق وأُمر أن يروى عن أمته ، فأخذ جلفر يعظِّم فى الوصف ويفخِّم ، لكن الملك ورجاله أحرجوه بكثرة الأسئلة حتى اضطر أن يقول الصدق فى أمته — وهنا يبيِّن سوفت نقائص البلاد المتمدينة فى رأيه ؛ ويستمع الملكُ إلى ما يقوله جلفر ، ثم يقول :

« لست أرى مما تقول ... ... أن رجالكم يُكرَّمون بما لهم من فضيلة ، أو أن القساوسة يرتقون بما لهم من علم وتقوى ، أو أن الجنود يُرَقَّوْن بما لهم من خلق وإقدام ، والقضاةَ بما لهم من سلوك قويم ، والنوابَ بما يبدونه من حب لبلادهم ، والمشيرين بما يتحلون به من حكمة ... ... فلا يسعنى إلا أن أحكمَ بأن الشطر الأعظم من مواطنيك أسوأ فصيلة من الدود الصغير الكريه مما يزحف على سطح الأرض من ديدان » .

ثم يزور « جلفر » بعد ذلك أرض « لاپوتا »[2] ، وهنا يصبُّ سخريته على العلماء ،

---

(١) هذه العبارة فى النص موضوعة بين قوسين .

(٢) Laputa

فالطعام فى القصر الملكى يقطَّع على أشكال هندسية ، ورجال الفكر مغرقون فى تفكيرهم حتى لا يفيقون إلا إن ضُربوا بأطراف السياط ، وكان من بينهم عالم يحاول أن يستخرج أشعة الشمس من القثاء ؛ وفى هذه الأرض أيضاً يلتقى الرحالة بفئة بغيضة حكم عليهم أن يقضوا حياة أبدية لا يستخدمون فيها ملكاتهم ومواهبهم .

وفى الجزء الرابع والأخير من « رحلات جلفر » ، يطوف الرحالة ببلاد يسكنها « الوينيم »[1] وهم ضرب من الكائنات لها هيئة الخيل ؛ ولهذه الخيل هناك مكانة الإنسان فى سائر البلدان ، وأما الناس فى تلك البلاد فيبدون فى شكل بشع مخيف ، ويَلْقَوْن من « الخيول » كل مقت وازدراء ؛ ويمثل « سوفت » بهذه الفصيلة البشرية الوضيعة التى يسميها « ياهو »[2] الجنس البشرى كما يراه ؛ وفى هذا الجزء أقذع وألذع هجاء يوجهه الكاتب للانسانية التى يمقتها أشد المقت ؛ حتى ليقال إن الجنون الذى مسَّ الكاتب فى أخريات سنيه كان قد أخذ يلعب بقواه العقلية وهو يكتب هذا الجزء المظلم المعتم الكئيب من كتابه ، وحسبه ظلما للانسان أن يضعه فى مرتبة أدنى من الحيوان .

« أَدِسُنْ » و « سْتِيلْ »

لا بد أن نقرن هذين الكاتبين أحدهما بالآخر ، وأن نضعهما جنباً إلى جنب فى كلمة واحدة ؛ فقد اتصلت حياتهما الأدبية وتعاونا على نحو ما تعاون « بُومُنْتْ » و « فِلتْشَرْ » فى القرن السابع عشر ، فأصبح عسيراً أن تذكر زميلا بغير زميله .

جوزيف أدسن Joseph Addison (١٦٧٢ — ١٧١٩) :

هو من أئمة النثر فى الأدب الإنجليزى ، تخرج فى جامعة أكسفورد وأتقن دراسة اللاتينية إتقاناً مكّنه أن يقرض فيها الشعر ، وأن يصادف هذا الشعر إعجابا عند « بوالو » — الناقد الفرنسى الذى عرفته فى الفصول السابقة — حين عرضه عليه « أَدِسُنْ » أثناء إقامته فى فرنسا ؛ وكان « أَدِسُنْ » حييًّا خجولا يتعثر فى القول إن كان بين جماعة ، ومن هنا أحجم عن النقاش وهو عضو فى البرلمان ؛ ويميل بطبعه إلى التفكير الهادئ المتأمل ؛

(١) Houyhnhnms (٢) Yahoos

وقد كان يهيء الكاتب نفسه لينخرط فى سلك الكنيسة ، لكن مواهبه الأدبية استوقفت أنظار « لورد هاليفاكس » الذى كان زعيما لحزب الأحرار ، وراعيا للأدب والأدباء ، فمنحه راتباً يمكنه من الرحلة فى أوربا ، وإنما قَصَدَ الزعيم بذلك أن ينشِّىء شابا أديباً تنشئة قد تعود على حزبه بالنفع إذا ما عاد الأديب واكتمل نضجه وأخذ يدافع عن الحزب بقلمه ؛ وانتهز « أَدِسُنْ » هذه الفرصة السانحة وطاف بفرنسا وسويسرا وإيطاليا وألمانيا يجمع التجارب ، ويزيد من معارفه ؛ حتى أثقلت حديقة فكره بالثمار ، فراح يقطفها وينثرها فى أدبه بعد عودته إلى بلاده .

تغيرت الظروف السياسية فى إنجلترا ، وانقطع عن الكاتب راتبه ، فعاد إلى إنجلترا ليضع أول حجر فى مجده الأدبى سنة ١٧٠٤ ، وذلك حين أرادت الوزارة القائمة أن تشيد بالنصر الذى ظفر به « مولْبرا »[١] فى موقعة « بلنهايم »[٢] فى قصيدة قوية تسرى بين الناس فتكون للحزب السياسىّ الحاكم دعاية ودعامة ؛ واقترح « هاليفاكس » أن يعهد بذلك إلى « أَدِسُن » ، فظهرت قصيدة « الحملة »[٣] التى لقيت نجاحا عظيما عند أولى الأمر وعند الشعب القارئ على السواء ، وكان الذى أعجب الناس من هذه القصيدة بصفة خاصة هذه الأبيات التالية :

عندئذ ظهر فى « مولْبرا » العظيم روحُه الجبار
فما اهتزَّ حين اهتزَّتْ الأرضُ بالجحفل الجرار ؛
فبين الهرْج والمرْج واليأس والجزع
خَبَرَ مشاهِدَ الحرب المخيفة كلها بلا فزع ؛
فإنْ مَلَكٌ هبط بأمر الله من السماء
وزلزل الأرض الأثيمة بالعواصف الهوجاء
كالتى عصفتْ منذ قريب بأرض « بريتانى » الشاحبة
رأيتَه فى رزانة وسكون يصدُّ الرياح الغاضبة ؛

---

(١) Marlborough (٢) Blenheim
(٣) The Campaign

فهو يؤدّى ما أمر اللهُ العلىُّ بنفس راضية
وتراه فى غمرة الإعصار موجّها للرياح العاتية

ففى هذه الأبيات — كما ترى — وصف جميل لرباطة الجأش وضبط الأعصاب وسط زعازع الحرب ورياحها الهوج ، وهى الصفة التى كسب بها « مولبرا » موقعة « بلنهايم » — وعلى كل حال أعجب الوزراء الأحرار بالقصيدة ، وكوفىء شاعرها « أَدِسُنْ » بمنصب يدر مائتى جنيه كل عام ، ثم أخذ طالعه فى سعود ما دام الأحرار فى مناصب الحكم ؛ حتى تربع فى دست الوزارة وزيراً

رتشرد ستيل Richard Steele (١٦٧٢ — ١٧٢٩) .

ولد فى دبلن ، لكنه لم يُقم فى إيرلندة طويلا ، إذ مات أبوه وهو فى سن الخامسة ، فانتقل إلى إنجلترا ، ودخل مدرسةً زامل فيها « أَدِسُنْ » زمالة دامت طول الحياة ؛ وتمم « سْتِيلْ » دراسته الجامعية فى اكسفورد ، وكانت إنجلترا عندئذ تخوض فى الحرب إلى ركبتيها ، فانخرط الأديب فى سلك المحاربين ، وظل فى الجيش عشرين عاما .

وأول ما لفت إليه الأنظار قطعة أدبية أخرجها وهو فى التاسعة والعشرين ، هى « البطل المسيحى »[١] وأراد بها أن تكون له بمثابة الشكيمة التى تضبط نوازعه ودوافعه القوية نحو الحياة المستهترة ؛ فقد كان فى « ستيل » اتجاهان متعارضان : فهو عربيد يندفع وراء شهواته ، ولكنه نادم دائما يتمنى أن يهديه الله الصراط المستقيم ، وكان مبذراً مسرفا بغير حساب فوقع تحت عبء من الديون أقضّ مضجعه وأشقى حياته ؛ ثم أخرج بعد ذلك ثلاث ملاهٍ لم تُصِبْ نجاحا على المسرح ، هى « الجنازة »[٢] ، و « المحب الكاذب »[٣] و « الزوج الرقيق الحس »[٤] ، وعلة فشل هذه الملاهى اعوجاجٌ فى ذوق الشعب لازمه منذ عودة الملكية ، فما كان لنظارةٍ أَلِفَتْ المسرحيات الماجنة فى عهد عودة الملكية لترتدَّ فى أعوام قلائل إلى الذوق المهذب السليم ؛ فواجب الأديب — إذن — هو قبل كل شىء تهذيب الذوق الشعبى وتطهيره من فساده ، وذلك عن طريق

---

(١) The christian Hero .
(٢) The Funeral .
(٣) The Lying Lover .
(٤) The Tender Husband .

الصحافة ؛ وهكذا صمم « ستيل » أن يخرج مجلة « تاتلَرْ »[١] ، ثم عقّب عليها بمجلة « سْپِكْتِيتَرْ »[٢] .

***

صدرت مجلة « تاتلَرْ » وقد وضّح محررها « ستيل » فى عددها الأول غايته من إصدارها : « الغاية من هـذه الصحيفة أن تعرِّض بفنون الحياة الزائفة وأن تمزق أقنعة الدهاء ، والغرور ، والتكلف ، وأن تشيد بالبساطة العامة فى ثيابنا ونقاشنا وسلوكنا » — وكانت « تاتلرْ » تصـدر ثلاث مرات كل أسبوع ، ولم تكد تظهر حتى صادفت نجاحا عظيما ، وظهورها يحدد بداية واضحة للصحافة الحديثة .

وكان « ستيلْ » يخاطب قراءه فى صحيفة « تاتلَرْ » باسم مستعار هو « اسحق بِكَرْستاف »[٣] ، ولهذا الاسم قصة لطيفة يجمل ذكرها ؛ فقد كان ثمة مُنَجِّم مشهور اسمه « پارتردج »[٤] يُخرج التقاويم وفيها نبؤات تخدع العامة الساذجة ، فصمم « سوفت » وزملاء له من الأدباء أن يسخروا بهذا المخادع ، فأصدروا تقاويم يتنبأون فيها بموت « پارتردج » ، وصدرت تلك التقاويم باسم منجِّم وهمى هو « اسحق بكرستاف » ، واستطاع سوفت وصحبه أن يوهموا الشعب أن « پارتردج » قد مات فعـلا وعبثا حاول « پارتردج » أن يثبت للناس أنه حى ، فـكسدت تقاويمه وبطل خداعه ؛ ومن هنا علق باسم « اسحق بكرستاف » شىء من الفـكاهة اللطيفة . فاختاره « ستيل » اسما مستعاراً .

ولما صدرت مجلة « تاتلر » كان « أَدِسُن » فى أيرلنده ، ولـكنه ما عتم أن واصلها بمدده ، ولبثت المجلة قائمة مدة عام وتسـعة أشهر أقفلت بعدها لظروف سياسية ؛ غير أن « ستيل » سرعان ما أعلن عزمه على إصدار صحيفة يومية .

وفى غرة مارس من سنة ١٧١١ صدرت « سْپِكْتِيتَرْ » معتزمة أن لا تمس شئون السياسة ، وأن تقتصر على الأدب وتهذيب الذوق ، وإصلاح الحياة الاجتماعية ، ولقيت نجاحا هائلا وشاعت فى طول البلاد وعرضها ، وما يزال قراء الأدب حتى يومنا هذا

---

(١) The Tatler .
(٢) The Spectator .
(٣) Isaac Bickerstaff .
(٤) Partridge .

يقرءون الصور الأدبية التى كانت تنشرها تلك الصحيفة ، وما تزال شخصية « سير روجر دى كَفَرْلى »[١] تحتل مكانة عالية بين أروع الشخصيات التى صورتها أقلام الأدباء ، ثم ختمت الصحيفة حياتها فى ديسمبر ١٧١٢ بعد أن أصدرت خمسة وخمسين وخمسمائة من أعدادها ، جمعت فى سبعة مجلدات أضاف إليها بعدئذ « أدسن » مجلداً ثامناً يحتوى طائفة من أجمل ما دبجته يراعته من المقالات الأدبية[٢]

***

وفى سنة ١٧١٣ — بعد أن طويت « سبكتيتر » بعام واحد ، أخرج « أدسن » مأساة « كاتو »[٣] فنجحت عقب نشرها ، لكنها لم تلبث أن كسدت سوقها فى عالم المسرح ؛ فلم يكن « أدسن » بالذى يجيد إنشاء المسرحية على الرغم من نبوغه فى تصوير الشخصية ، وذلك لعجزه عن تحليل الدوافع التى تتحكم فى أعمال الناس وتسيّرهم فى هذا الطريق أو ذاك .

***

أما « ستيل » فقد أخرج مجلة جديدة تسمى « جارديان »[٤] ، وبعد عامين — أى فى سنة ١٧١٥ — أشرف « أدسن » على مجلة أخرى ، هى « فْرِيهُولْدَرْ »[٥] .

وهنا تزوج « أدسن » من نبيلة ثرية وعيّن وزيرا ، وسارت حياته سيرا هادئا مطّردا لولا أن نشبت معركة أدبية بينه وبين صديقه القديم « پوپ » مصدرها ما تأجج به صدر « پوپ » من حسد وغيرة ، وسنذكر طرفا من هذه الخصومة الأدبية الطريفة حين نتناول « پوپ » بالعرض فى الجزء الثانى من هذا الفصل .

وكذلك خاض « ستيل » ميدان السياسة وانتخب عضوا فى البرلمان ثم فُصِلَ منه لنشره مقالة عنيفة عنوانها « الأزمة »[٦] ؛ وعلى كل حال فقد فرقت السياسة بين « سْتِيل » و « أُدِسُنْ » اللذين لبثت بينهما الصداقة طوال هذه السنين .

---

(١) Sir Roger de Coverley .

(٢) مجموع المقالات الأدبية التى نشرتها « تاتلر » ٢٧١ ، كتب منها ستيل ١٨٨ وكتب « أدسن » ٤٢ واشترك الكاتبان فى ٣٦ ، والباقى لغيرهما ؛ ونشرت « سبكتيتر » ٥٥٥ مقالا كتب منها « أدسن » ٢٧٤ وكتب ستيل ٢٣٦

(٣) Cato . (٤) Guardian . (٥) Freeholder . (٦) The Crisis

دانيال دفو Daniel Defoe (١٦٦١ — ١٧٣١) :

هو البادئ الحقيقى للقصة فى الأدب الإنجليزى ، ولد فى لندن لأبٍ قصاب ، وقد أراد له أبوه أن يكون واعظا دينيا ، لكن الفتى لم يطع أباه فيما أراد ، وبدأ حياته صانعا يصنع الجوارب ، ثم عاش بعد ذلك حياة شهدت من صنوف العيش ألواناً ، فهو تارة فى رغد وطورا فى ضنك وضيق ، ثم مات مفلساً لا يملك من حطام الدنيا شيئا .

ويخلده تاريخ الأدب لكتابه «رُوبِنْسَنْ كروزو»[١] ويكاد لا يعرف له الناس غير هذا الكتاب ، مع أنه ألّف مائتين وخمسين كتابا ؛ كتب قصصا أقربها إلى نفوس القراء المحدثين : «كابتن چاك»[٢] و «مُولّ فلانْدَرْز»[٣] و «رُكْسَانا»[٤] وكلها فياضة برائع الوصف للحياة فى لندن إذ ذاك ؛ وكتب تاريخا وسيراً ، وكتب رحلات وأنشد القصائد ؛ ونشر الرسائل يصف فيها السيد الكامل والتاجر الكامل ؛ وكتب دروسا نموذجية يرشد بها الآباء والعاشقين ، ودبج المقالات السياسية ، والرسائل الهجائية ؛ وأنشأ صحيفة تصدر ثلاث مرات كل أسبوع كان يكتبها كلها بنفسه !

ومع ذلك فكتابه الذى نعرفه به هو «روبِنْسَنْ كروزو» الذى نُشِرَ وله من العمر ستون عاما ؛ ولا نحسب أن قارئا واحدا يجهل مادة هذا الكتاب ، فلا تكاد تصادف بين الناس من لم يقرأ هذه القصة فى صباه ؛ وفكرة القصة مستمدة من حادثة حقيقية وقعت سنة ١٧٠٤ لرجل يدعى «اسكندر سِلْكيرك»[٥] انقطع به الطريق فى جزيرة موحشة أربعة أشهر ؛ فأوحت الحادثة بالقصة إلى «دفو» ، وأما شخصية «روبنسن كروزو» فهى شخصية الكاتب نفسه ، فروبنسن رجل يفيض نشاطا ويأبى أن يذعن لعقبات الحياة التى تعترض طريقه ، وهو مقدام لا يهاب شيئا ويؤمن بالله إيماناً صادقاً ؛ فلو كان للقصة مغزى يريده الكاتب فهو الصبر الجميل على أفدح الكوارث وأشق الصعاب ؛ فأنت تعلم كيف حاول «روبنسن كروزو» وهو وحيد فى الجزيرة الموحشة أن يصنع لنفسه كل شىء ، فلم تَحُلْ دون غايته الحوائل ، ولم ينهض فى وجهه صعبٌ إلا ذلّله ؛ وروعة القصة تنحصر فى تصويرها

---

(١) Robinson Crusoe . (٢) Captain Jack .

(٣) Moll Flanders . (٤) Roscana . (٥) Alexander Selkirk .

لهذا الرجل الذى يعتمد على نفسه فى كل شىء ، يبنى بيتا يسكنه ، ويخبز خبزه ويطهى طعامه ويشعل ناره ثم لا ييأس ولا يبتئس مع كل هـذه الصعاب لأنه يحمل بين جنبيه قلبا يعمره الإيمان ! إنها قصة فريدة فى بابها ، لأن سائر القصص تروى لنا حياة توشجت فيها روابط الجماعة وصلاتها ، وأما هى فتروى لنا حياة شخص تقطعت بينه و بين الجماعة الصلات ؛ إنها قصة للأطفال والرجال فى آن معا تقرؤها فلا تجد فيها ما يُضْحك ولا تجد فيها ما يُبكى ، فلا عجب أن تُرجمت هذه الآية الفريدة إلى لغات الأرض جميعا[١] .

وأهمية هذه القصة فى تاريخ الأدب أنها بدأت ضربا من القصص الواقعى ، يتعمد فيه الـكاتب أن يوهم قراءه بأن ما يطالعونه حقيقة لا خيال ؛ يقول « تشارلز لام » فى « روبنسن كروزو » : إنه يستحيل عليك أن تشك وأنت تقرؤها فى أن شخصاً حقيقيا يقص عليك ما حدث له فى حياته الواقعة » .

وأبدى « دِفُو » قدرته هذه على الخيال الواقعى فى كتاب له آخر ، هو « يوميات فى سنة الطاعون »[٢] الذى كانت وقائعه كلها من خلق خياله ومع ذلك انخدع معاصروه وظنوه تاريخا صحيحا لما حدث فى لندن حين فتك بها الطاعون .

ولئن بدأ « دفو » بقصـة « روبنسن كروزو » القصص الواقعى فقد أنشأ كذلك ضربا آخر من القصص ، هو القصص التاريخى الذى يمزج حقائق التاريخ بخلق الخيال ، وذلك بكتابه « مذكرات فارس »[٣] وهى طريقة سار على نهجه فيها « وولتر سْكُتْ » و « اسكندر ديماس » فى القرن التاسع عشر .

صموئيل رتشردسن Somuel Richardson (١٦٨٩ — ١٧٦١) :

على الرغم مما لقيه رجال القصة الفرنسية من نجاح فى أوائل القرن الثامن عشر ، ونخص منهم « لى ساج » فى قصته « چيلْ بْلا » و « پريڤو » فى قصته « مانون ليسكو » ؛ وعلى الرغم من ظهور مبادىء القصـة فى انجلترا عند « دِفُو » فلنا أن نقول إن أدب القصة لم تتكامل نشأته إلا بين يدى « رتشردسُنْ » فى قصة « پاملا أو الفضيلة تلقى جزاءها »[٤]

---

(١) وقد كتب بعض الباحثين فى المقارنة بين هـذه القصة وقصة حى بن يقظان فى الأدب العربى وبحثوا فى إمكان استفادة « دفو » من هذه القصة العربية .

(٢) Journal of The Plague year

(٣) Memoirs of a Cavalier .

(٤) Pamela, a Virtue Rewrded .

التى نشرت عام ١٧٤٠ . ومما هو جدير بالذكر أن رجال الأخلاق كانوا قبل « باملا » يحرمون قراءة القصة لأنها فى رأيهم مباءة إفساد ، ثم جاءت هذه القصة على غير ما يظن بالقصص ، إذ جاءت درسا فى الأخلاق ، تقى قراءتُها ضعافَ النفوس مواردَ الزلل ، فقد قصد « رتشردسن » إلى تقويم الأخلاق قبل كل شىء ، وقال عنه چونسُنْ الناقد الانجليزى المعروف فى القرن الثامن عشر إنه علم العواطف الإنسانية كيف تضع زمامها فى يد الفضيلة .

لسنا نعرف من طفولة الكاتب إلا قليلا ، فهو يحدثنا عن نفسه أنه فى سن الحادية عشرة أخذ على نفسه أن يكتب خطاباً يستشهد فيه بكثير من آيات الكتاب المقدس إلى سيدة فى الخمسين من عمرها عرفت بالنميمة ليعظها ويهديها سواء السبيل ، وأنه فى سن الثالثة عشرة كان يكتب خطابات غرامية لكثير من الفتيات اللائى عرفن فيه القدرة على الإنشاء ، وأنه فى سن السابعة عشرة التحق « صبيا » بمطبعة يمارس فيها فن الطباعة ، وفى سن الثلاثين أدار بنفسه عملا يرتزق منه ، وبعد عامين تزوج من ابنة « معلِّمه » الذى دربه على الطباعة ؛ ولم يبدأ كتابة قصته « پامِلاَ » إلا وهو فى الخمسين من عمره ؛ وپاملا فتاة ريفية عفيفة ساذجة ، حاول سيدها المستهتر العربيد أن يغريها بالفجور لكنها قاومت إغراءه بكل ماله من شباب ومال ، وأخيرا « لقيت الفضيلة جزاءها » — كما يشير عنوان القصة — بأن اضطر السيِّد المتعقِّب إلى الزواج من الفتاة التى يشتهيها ، ويعلِّق المتزمتون فى الأخلاق على هذه الخاتمة بقولهم إن زواج الفتاة الطاهرة ممن أراد بها الغواية ليس فضيلة من الطراز الممتاز ، إنما هى فضيلة « تجارية » تقاوم الرذيلة حتى تستفيد منها ثم تذعن لها وتستسلم ؛ فحقيق بنا أن نقول إن « رتشردسن » فى محاولته تقويم الأخلاق كان رجلا عمليا لا يحلِّق فى سماء الخيال والتجريد ؛ ومهما يكن من شىء ، فقد كانت قصة « باملا » بداية قوية للكاتب ، بل بداية قوية للقصة فى الأدب الانجليزى ؛ وهى تجرى فى سلسلة من الرسائل التى يستشف القارئ من ثناياها طبيعة المرأة على حقيقتها ، وهذه الناحية هى أظهر ما امتاز به الكاتب فى فنه القصص .

ثم أخرج وهو فى التاسعة والخمسين قصة « كلارسا أو مغامرات فتاة »[1] : يتقدم

(١) Clarissa or the Aduentures of a yorng Lady .

شاب بغيض ممقوت لخطبة « كلارسّا هارلو » فترفض الفتاة ، وتضطهدها الأسرة لهذا الرفض ، فيحبك لها الخطيب الدنىء « لَفْلِيس »[١] أحبولة من الأكاذيب والدسائس وألوان الخداع حتى يتمكن بمعونة طائفة من بنات جنسها أن يخدرها فيفقدها الوعى ثم يسلبها الشرف ؛ فتنكرها أسرتها ، وتلاقى الفتاة من المحن ما تلاقى ؛ ويستيقظ الضمير فى الفاجر المعتدى فيعرض عليها الزواج . لكن كبرياء الفتاة تأبى عليها هذا الإذعان الذليل ؛ والفتاة مطمئنة فى أعماق نفسها إلى طهارة ذيلها وقوة إرادتها ، لكنها تعلم بغير شك أنها قد أُوذيت وأُثْلم شرفها فتُسْلم نفسها إلى كروب النفس تُذويها وتضنيها حتى تلفظ الروح ؛ فتتنبَّهَ الأسرة إلى الجريرة التى اقترفتها فى ظلم الفتاة فيعذبها تأنيب الضمير ، ويلقى « لفْليس » جزاءه الطبيعى بأن يقتل فى مبارزة مع ابن عم الفتاة .

هذه هى القصة التى لم تقتصر شهرتها على إنجلترا ، بل ذاعت فى أرجاء أوربا كلها ؛ وترجمها « ديدرو » لينشر فنها القصصىّ فى فرنسا ، وكذلك ترجم « پريڤو » القصصى الفرنسى آثار « رتشردسن » فى حينها كما أسلفنا لك القول عند الكلام على الأدب الفرنسى فى القرن الثامن عشر ؛ وقد كان لقصة « كلارسّا » أثر قوى فى تنمية الروح الديمقراطية ؛ إذ لم يكن مألوفا بين الكتّاب والقراء على السواء أن تُخْتار فتاةٌ من غمار الشعب بطلة لقصة تثير اهتمام الناس جميعاً ، ولعل ذلك ماحدا بالفرنسيين فى القرن الثامن عشر إلى الإسراع فى نقلها إلى أدبهم لتكون عاملا من العوامل التى أخذت تتجمع حتى انفجر بقوة ضغطها بركان الثورة الفرنسية ، وقد لقيت هذه القصة إعجابا وتقديراً بين أعلام الفرنسيين إذ ذاك ، حتى وضع « ديدرو » كاتبها فى صف « هومر » و « يوريپيد » و « سوفوكليز » واتخذه « چان چاك روسو » نموذجا احتذاه فى قصة « چولى أو هلويز الجديدة » ثم جاء بعد ذلك « الفرد دى ميسيه »[٢] الشاعر الفرنسى فزعم أن « كلارسّا » أعظم قصة فى أدب العالمين إطلاقا .

والقصة الثالثة والأخيرة لرتشردسن هى « السير تشارلز جراندسَنْ »[٣] ، والبطل فى هذه القصة — وهو الذى سميت القصة باسمه — رجل قويم الخلق لا يعرف الخطيئة ، وقد

---

(١) Lovelace . (٢) Alfred du Musset . (٣) Sir Charles Grandison .

قصد به الكاتب أن يمثل الرجولة فى أكمل صورها .

هنرى فيلدنج Henry Fielding (١٧٠٧ — ١٧٥٤) :

نشأ فى كلية « إيتُنْ » التى تنشِّئ أبناء الخاصة ، وجاء إلى لندن يعتمد فى عيشه على رزق مضطرب تدره عليه مسرحياته ، إذ ماتت أمه وتزوج أبوه من غيرها ، فكان لا يأتيه المدد إلا لماما متقطعاً ؛ ولما بلغ الثالثة والثلاثين التحق بسلك القضاء ؛ وإنما يخلده الأدب بقصصه الروائع .

وأول ما نشر من قصصه « جوزيف أندروز »[١] ، وقد أراد بها أن يتهكم بزميله « رتشردسن » فى قصته « باملا » ، وطريقته فى التهكم أن يجعل « جوزيف » أخا لباملا ، وكما أخذ سيِّد باملا يغريها بالغواية عن نفسها ، فقد أخذت سيدة « جوزيف » تغريه بالغواية عن نفسه ، فيقاوم الفتى إغراء سيدته ، كما كانت تقاوم الفتاة فى قصة رتشردسن إغراء سيدها ؛ هكذا بدأ « فيلدنج » قصته بنيَّة السخرية والتهكم من الفضيلة كما تصورها زميله ، لكنه سرعان ما توثقت العلائق النفسية بينه وبين شخصياته التى خلقها بقلمه ، فاطّرح روح التهكم وجعل يصوِّر لنا فى سائر القصة حياة عصره أصدق تصوير وأروعه ويقول « بَيْرُنْ » عن « فيلدنج » بمناسبة هذه القصة » إنه هومر النثر فى وصف الطبيعة البشرية » ذلك لأن قصة « جوزيف أندروز » صورة مزدحمة بالأشخاص الذين يمثلون صنوف الناس جميعاً : ففيها الحوذية والرحّالة ورجال الدين وسادة الريف والخادمات والزوجات والبائعون الجوالون وأصحاب الدكاكين ، كل هؤلاء وغيرهم يسوقهم لك فى قصة جميلة السبك ممتعة السياق ؛ على أن أبدع ما فى القصة قوة تصوير الأشخاص تصويراً صادقاً ناصعاً ، وروح الفكاهة اللطيفة التى تميل أحياناً نحو السخرية والهجاء .

وبين أشخاص هذه القصة شخصية كتب لها الخلود بين الشخصيات الأدبية الخالدة ، ونعنى بها شخصية « القس آدمز »[٢] الذى اتخذه بطل القصة « جوزيف » زميلا وصديقاً ؛ « والقسّ آدمز » يمثل المسيحى الصالح الذى يجتذب قلوب عارفيه ، لكنّ فى سلوكه

---

(١) Joseph Andrews . (٢) Parson Adams .

شذوذاً وبُعْداً عما تقتضيه الحياة الدنيا بحث لا يسعنا إلا أن نضحك منه ، لكنه ضحك العطف الذى لا تشوبه شائبة من زراية واحتقار ؛ فهو رجل عالم بكل شىء إلا بما تنطوى عليه نفوس الناس من ضَعَة وخسّة ، وجهله بهذه الناحية من النفس البشرية يؤدى به إلى كثير من المواقف المضحكة ، لكن ذلك كله لا يخمد من حرارة قلبه وإيمانه ، وحسبك أن تلمّ بصورة هذه الشخصيه وحدها لتحدد موضع فيلدنج فى القصة ، فهو يحب أن يبعث الضحك فى قارئه ، لكنه الضحك الذى يزيده حبا فى الفضيلة وطيبة القلب ؛ وقد تأثر بهذه الشخصية قصصىّ إنجليزى آخر فى القرن الثامن عشر ، هو « جولدسمِثْ » حين أنشأ قصته المشهورة « راعى ويكفيلد »[١] .

وفى سنة ١٧٤٩ ، نشرت قصته الثانية « تُومْ چونزْ »[٢] ؛ وصفوة القصة أن « السيد أُولْوِرذى »[٣] يقوم على تربية ابن أخته ولفيط يسمى « توم چونز » كأنهما ولداه ؛ وكان الولدان مختلفين اختلاف النقيض عن نقيضه ، فابن الأخت « بلايْفِلْ »[٤] منافق لئيم حذر ، و « توم » طيب القلب ساذج سريع الغضب ؛ ويزلّ « توم » فى أخطاء كثيرة هى أخطاء الشباب المتحمس المحتدم العواطف ، وهو سرعان ما يندم على خطئه لأنه يحمل نفسا قوية ليس فيها عوج ؛ وما زال « بلايْفِلْ » بدهائه ولؤم طبعه يوقع « بتوم » ويدس له الدسائس ، وما زال « توم » على حمقه وطيش شبابه حتى ضاق « أولورذى » به ذرعا وأخرجه من كنفه ؛ فخاض الفتى مغامرات كلها صعاب ، ثم انتهى الأمر بأن كُشِفَ عما ينطوى عليه « بلايْفِلْ » من خبث ، ومايضمره « توم » من نفس خيرة ، فكان « توم » هو الظافر ، وتزوج من الفتاة الحسناء « صوفيا وِسْتِرْن »[٥] — وهى بطلة القصة — وذهبت جهود « بلايفل » فى الايقاع بينهما أدراج الرياح .

وكل ما أراد الكاتب أن يؤكده هو أن طيبة القلب خير شفيع لما يزل فيه الانسان من أخطاء ؛ وأن من يحب اخوانه من بنى الانسان جدير أن تغفر له رذيلته ؛ فها هو ذا « توم چونز » يحمل قلبا طيبا لكن فضيلته ليست من القوة بحيث تستعصى على الاغراء فيزلّ فى الرذيلة آنا بعد آن ؛ فنحبّه ونعطف عليه ونغفر له ذنوبه .

---

(١) Teh Vicar of Wakfield . (٢) Tom Jones .

(٣) Squine Allworthy . (٤) Blifil . (٥) Sophia Western .

وأخيرا نشر قصته الثالثة «أَمِلْيا»[١] ثم أصابته علة اضطر معها أن يقصد إلى لشبونه وقد قصّ أنباء رحلته الشاقة فى يوميات نشرت بعد موته ، وجاءته المنية وهو فى لشبونه حيث رقد جثمانه .

كان «رتشردسُنْ» يكتب للنساء «وفيلدنج» يكتب للرجال ، وكان «رتشردسن» يميل بخياله مع العاطفة و «فيلدنج» واقعى يشاهد ويكتب ؛ وعلى كل حال فأدب «فيلدنج» عند النقاد يرجح أدب زميله : يقول عنه «هازلِتْ»[٢] : إنه فى ملاحظته للطبيعة البشرية يقل قليلا عن شيكسبير ، فلو عددت فى الأدب الإنجليزى كله ست قصص وجدت «توم چونز» واحدة منها .

والقصة عند «فيلدنج» لها طابع خاص يميزها ؛ بحيث قال عنها «ثاكَرِى»[٣] إنها «ملحمة تهكمية عظمى» ، وقد رأينا «بَيْرُن» يسمى فيلدنج «هومر النثر فى وصف الطبيعة البشرية» فما الذى يقرب القصة عند هذا الكاتب من الملحمة ؟ يقول فيلدنج نفسه فى مقدمة قصته «چوزيف أندروز» «إن الملحمة يمكن تأليفها نثرا كما يمكن انشادها شعرا ؛ إذ القصة التى تحمل كل خصائص الملحمة ما خلا الوزن جديرة أن تُعَدَّ ملحمة تمييزا لها من القصة التى لا تصور الواقع ؟ فقصة مثل «چوزيف أندروز» ملحمة هزلية نثرية ، تختلف عن الملهاة المسرحية بمقدار ما تختلف الملحمة الجادة عن المأساة المسرحية ، والفرق هو أن دائرة الفعل والحركة تمتد فى نطاق أوسع مما تمتد فيه المسرحية ، وفيها عدد أكبر من الحوادث ومجموعة من الشخصيات أكثر تنوعا ؛ ومن أخص خصائص قصة فيلدنج التى — على حد قوله — لم تعرف لها اللغة الإنجليزية مثيلا قبلها ، أنها تعالج أشخاصا من طبقات المجتمع الدنيا ، وتصور ألوانا من السلوك الدنىء المرذول .

ويقول فيلدنج فى مقدمة «توم چونز» إنه يتأثر خطو أصحاب الملاحم الكبرى : هومر وڤرچيل ، كما يقتص أثر القصصىّ الأسبانى سيرڤانتيز فى قصته ، «دون كيشوت» ويصرح بأن غايته من القصة أن يعكس الدنيا الحقيقية كما تجرى فى عالم الواقع ، وأن يحصر نفسه فى حدود الممكن المحتمل ، قائلا إن القصصى لا ينبغى أن يكتب إلا فيما يعلمه حق العلم من صور الحياة .

---

(١) Amelia . (٢) Hazlitt . (٣) Thackeray .

توبياس سمولت Tobias Smollett (١٧٢١ — ١٧٧١) :

هو اسكتلندى تخرج فى جامعة جلاسجو طبيبا ، ولما بلغ سن الثامنة عشرة ارتحل فى أنحاء انجلترا ، وأثبت ملاحظاته عن تلك الرحلة فى الفصول الأولى من قصته «رودريك راندَمْ »[١] وزار مدينة لندن وهو لايحمل فى جعبته إلا مأساة « قتل الملك »[٢] ولكنه لم يستطع أن يلتمس لها سبيلا إلى المسرح ، ولم يجد فى قلمه معينا له على كسب قوته ، فاشتغل جراحا فى سفينة ، ولبث فى البحر ستة أعوام أو سبعة ، شهد خلالها حصار قرطاجنة سنة ١٧٤١ ، ووصفه فيما بعد فى قصته « رودريك راندَمْ » ، كما خبر البحارة وصورهم فى بعض قصصه .

وترك البحار وعاد إلى انجلترا وكانت سنه إذ ذاك خمسة وعشرين عاما ، وعندئذ أنشد قصيدة « عَبَرات اسكتلنده »[٣] إذ تحركت نفسه لما كان يعانيه الاسكتلنديون بعد وقعة كالدونْ ، والقصيدة تتألف من سبع مقطوعات هذه أولها :

حداداً ، كالدوينا التعيسةُ ، حداداً
على إكليلك الممزَّق وأَمْنِكِ الذى بادا ؛
فبنوك الذين عرفتْهم الأيامُ بُسْلا ميامين
أراهم على أرض أوطانهم صرعى راقدين ؛
وديارُك الكريمة بعدئذ لن تعودا
تدعو الغريب إلى أبوابها كرما وَجُودا
إذ اندكَّتْ آساسُها فى خرائبَ واهنة
ستظل أنصابا عن العسف مُعْلنة

وأخذ بعدئذ يحاول ألواناً من فنون الأدب ، ثم تزوج سنة ١٧٤٧ فاضطره الفقر والإسراف أن يحترف الكتابة ، وأصدر فى العام الذى تلا زواجه قصة «رودريك رَانْدَمْ» فجاءته بالشهرة والمال معا ، وعقّب عليها بقصة « پِرچْرِينْ پِكِلْ »[٤] وهى شبيهة بقصة

---

(١) Roderick Random .
(٢) The Regicide .
(٣) The Tears of Scotland .
(٤) Peregirine Pickle .

« رودريك راندَمْ » وفيها كثير من سيرة حياته ؛ وبعدئذ كفّ عن الكتابة قليلا إذ عاد إلى مهنة الطب ، ثم ما لبث أن أخرج قصة « مغامرات فردناند »[١] ؛ وبعدها نشر خير قصصه جميعا « هَمفرى كِلِنْكَرْ »[٢] ومات غريبا عن بلاده فى « مجهورن » فى العام الذى صدرت فيه هذه القصة الأخيرة ؛ ومن آثاره الأدبية غير قصصه ترجمته لدون كيشوت ، وكتابة بعض الرسائل التاريخية عن انجلترا وفرنسا وإيطاليا وغيرها .

فى قصة « رودريك راندَمْ » يقص الكاتب سيرة حياته إلى حد كبير ، فهو لا يبتكر أحداثها إنما يستذكر ويستعيد ثم يسجل ، ويشيع فى القصة روح الفكاهة التى يخرج بها أحيانا عن حد التهذيب ، فيجعل كثيرا من نكاته فاحشا غليظا ؛ وقد كان « سمولت » فى هذه القصة تلميذا للقصصى الفرنسى « لى ساج » ، فقصته — كقصة « چيلْ بْلاَ » — سلسلة من المغامرات يتلو بعضها بعضا فى غير اتصال وثيق بين السابقة واللاحقة .

وأما « همفرى كلنكر » فالقصة فيه تُرْوى فى سلسلة من الرسائل كُتبت عن رحلة فى أرجاء اسكتلنده وإنجلترا ، بأقلام أشخاص عديدين ، أهمهم جميعاً « ماثيو برامْبِل »[٣] وهو رجل كهل طيب القلب يقوم برحلته مستردا لصحته ، و « همفرى كلنكر » وهو سائق فى خدمة « برامبل » تقىٌّ ورع ، ثم يتبين آخر الأمر أنه ابن « برامبل » ، وغير هذين أشخاص كثيرون يبعثونك على الإعجاب الشديد بفن الكاتب فى تصوير الأشخاص .

ومما يجدر ذكره عن « سمولت » أنه كان ذا أثر قوى فى قصصىّ إنجليزى عظيم فى القرن التاسع عشر ، هو « دكنز » الذى قرأ « سمولت » طفلا فتعلم منه فن القصة ؛ وكلا الكاتبين يتشابهان فى الفكاهة الصارخة وفى التصوير « الكاريكاتورى » لأشخاصهم ، فتراهما يبرزان فيمن يصورانه جانباً ثم يبالغان فى تصويره ، وكلاهما يحدد نفسه بالواقع فيما يصف فلا يشطح بخياله فى أوهام ؛ على أن « سمولت » امتاز عن كتّاب عصره بقدرته العظيمة على وصف دخائل بعض الطبقات ، كوصفه لحياة البحارة فى أدق تفصيلاتها .

---

(١) The Adventures of Ferdinand .

(٢) Humphrey Clinker .

(٣) Matthew Bramble .

لورنس ستيرن Laurance Sterne (١٧١٣ — ١٧٦٨)

كان أبوه من رجال الجيش ، وكان بحكم عمله يتنقل من بلد إلى بلد وأسرته فى صحبته . فلم يستقر « ستيرْن » فى مكان واحد إبان طفولته ، فكان لذلك أعظم الأثر فيه ، لأنه أتاح له الفرصة أن يجمع فى سنيه الباكرة تجارب الحياة ويختزنها حتى يحين حين الكتابة ؛ وهو فى هذا شبيه « بسمولِتْ » فكلاهما يتخذ من أسفاره وحوادث حياته مادة لقصصه ، فلما بلغ الفتى عامه العاشر عُهِدَ به إلى مدرسة استقر فيها نحو ثمانية أعوام ، ثم أرسل إلى كمبردج حيث أتم علومه ؛ وبعد تخرجه انخرط فى الوظائف الكنسية حينا ؛ حتى إذا ما بلغ السابعة والأربعين من عمره طلع على الناس بأثر أدبى عظيم هو قصة « حياة ترِسْتِرَامْ شاندى وأفكاره »[1] ، فكانت له ضجة هائلة بين جمهور القارئين على الرغم من أنه كتاب لكاتب مغمور لم يسمع به أحد من قبل ؛ حتى لقد زار الكاتب لندن عقب صدور الكتاب ، فألفى نفسه — على غير توقع منه — مشهوراً مذكوراً بين الناس ، وقد تلقى من الدعوات ما كان يكفى أن يُطْعِمه الأيام القليلة التى بقيت له من حياته ؛ ونفقت سوق الكتاب بحيث لم تكد تخرج طبعته الأولى حتى بدىء فى الطبعة الثانية .

يقع « ترِسْتِرَامْ شاندى » فى تسعة أجزاء ، ومع ذلك لم يتركه الكاتب عند خاتمة تُنْهيه ؛ ويستحيل علينا أن نوجز لك حبْكة الحوادث فى هذه القصة ، لأن أبرز ما يميز الكتاب أنه بغير حبْكة ولا خطة ولا نظام ؛ فالمفروض أنْ تدور القصة حول حياة « ترِسترام شاندى » وأفكاره ، لكنك تقرؤها فتصادف فيها كل ما وسع كاتبها من مشاعر وخواطر ؛ ومما يلفت النظر فى الكتاب غرابةُ استعمال علامات الوقف وما إليها ، مما تعمده الكاتب وكان مصدراً للضحك عند القراء ، فتراه مثلا يترك مسافة خالية بغير مبرر أو يقطع مجرى الكلام بعلامة غريبة لا معنى لها ، أو يضع نجمة صغيرة على كلمة دون حاجة إليها ؛ وهكذا . وفى الكتاب كذلك استطرادٌ كثير ، وعن هذا الاستطراد يقول الكاتب : « إنه حياة القراءة وروحها » ؛ وقد برع « ستيرن » براعة تسحق

---

(١) Life and Opinions of Tristram Shandy .

الإعجاب فى جودة تصوير الأشخاص مثل « العم توبى »[١] الضابط المتقاعد، « والجاويش تِرْمْ »[٢] و « الأرملة وادمَنْ »[٣] وغيرهم ؛ ومن بين ما لجأ إليه الكاتب فى تصويره للأشخاص ليزيدهم وضوحا وتمايزاً وصف حركاتهم التى تلازمهم .

و « لستيرْن » كتابٌ آخر هو « رحلة عاطفية فى فرنسا وإيطاليا »[٤] والقصة تجرى على لسان « يُورِكْ »[٥] الذى هو « ستيرن » بعينه ؛ وفى الكتاب كثير من تجارب الكاتب الشخصية أثناء ارتحاله فى تلك البلاد ؛ وهو يحتوى على كثير من الصور النابضة بالحياة للفنادق القديمة والرهبان والغلمان والخدم والحوذية والسائلين ، وأصحاب الفنادق والجنود والسيدات وما إلى ذلك .

وليس فى هذا الكتاب قصةٌ ، بل هو وصف لرحلة يسجل فيها الكاتب ما يعنُّ له من خواطر ، وهاك مثالا ذكره حين رأى زرزوراً فى قفص وهو فى فندق فى باريس :

« أزعجنى وأنا مستغرق فى تأملى صوتٌ ظننته لطفل ، يقول شاكياً ، إنه لا يستطيع الخروج ، فصعّدت بصرى وصوّبتُه على طول الممشى ، ولما لم أجد رجلا ولا امرأة ولا طفلا خرجت أنظر الأمر .

ولما عدتُ مارًّا بالممشى سمعتُ الألفاظ بعينها تتردد مرتين ، فنظرت إلى أعلى ورأيت أنه زرزور معلق فى قفص صغير ، فقال الزرزور « لا أستطيع الخروج ، لا أستطيع الخروج » .

وقفت أنظر إلى الطائر ، وكلما جاء إلى الممشى قادمٌ ، طار يرفّ إلى الناحية التى يدنو منها القادم الجديد ، وفى كل مرة يرثى لأسره بالعبارة نفسها « لا أستطيع الخروج » ؛ فقلت : « كان الله فى عونك لكنى سأطلق سراحك ، وليكن بعد ذلك ما يكون ! » فأخذت أدور حول القفص ألتمس بابه ؛ لكنى وجدته ملفوفا بالسِّلْك فى طيّات مزدوجة ، بحيث يستحيل فتحه بغير تحطيم القفص ، فهممت أن أفعل بكلتا يدىّ .

وطار الطائر إلى حيث كنت أحاول خلاصه ، ودفع رأسه خلال القضبان وضغط

---

(١) Uncle Toby . (٢) Corporal Trim . (٣) Wadman

(٤) A Sentimintal Journey Through France and Italy .

(٥) Yorick .

بصدره عليها كأنما أخذه القلق ؛ فقلت : « لَكَمْ أخشى أيها الطائر المسكين ألا أستطيع لك فكاكا » ، فأجاب الزرزور « كلا ، لا أستطيع الخروج ، لا أستطيع الخروج » .

وأُقسِمُ أن مشاعرى تحركت عندئذ بعطف ما أحسست له مثيلا قبل ذاك ؛ واست أذكر فى حياتى كلها حادثة أثارت فى نفسى فجأة ثورة جامحة — وقفت قواى العقلية إلى جانبها فقاعةً واهيـة — بمثل ما أثارت تلك الحادثة ؛ نعم كانت نبرات الطائر فى شكاته آلية لكنها جاءت مطابقة فى أنغامها لأنغام الطبيعة ، حتى لقد ارتدّتْ قواى العقلية المنطقية فى لحظـة إلى الباستيل ، وصعدتُ السُّلَّم بخطوات ثقيلة ، منكراً على نفسى كل لفظة نطقتُ بها إذ كنت أهبطه قلتُ : « تنكّرْ بما شئتَ من قناعٍ أيها الرِّقّ ، فما زلتَ جرعةً مريرة ، ورغم ما شهدتْه العصـورُ كلها من ألوفٍ أُرْغمت على اجتراعك ، فلم تقلّ بذلك عما كنتَ مرارةً » ؛ ثم توجهتُ بالخطاب إلى (الحرية) قائلا : « إن الناس لا يعبدون إلاك فى السرّ والعلن ، أيتها الإلاهة الرحيمة المحببة إلى النفوس ، إن مذاقك حلو ، وسيظل كذلك إلى أبد الآبدين حتى تتبدل الطبيعة غير الطبيعة ؛ إن ثوبك الأبيض الناصع لن تلوثه شـوائب الألفاظ ، كلا ولن تستطيع قوة أن تردّ صولجانك إلى قضيب من حديد ؛ إنك إذا افترّ ثغرك بابتسامة على القروىِّ الساذج وهو يأكل خبزه القديد جَعَلْتِهِ أسعد من ملك أنتِ عن قصره مُبْعَدَة . . . »

وبعدُ ، فقد استطاع « ستيرن » بكتابيْهِ — و « تَرِسْتِرَامْ شندى » على وجه أخص — أن يحرك أجيالا متعاقبة إلى الضحك والبكاء فى آن معاً ؛ وقلما تجد فى الأدب الإنجليزى أديباً آخر كان فى مقدوره أن ينال بمثل إنتاجه القليل ما ناله من أثر عميق ؛ فمهما قلّتْ مادته رأيت فى مستطاعه أن ينسج من خيوطها نسيجاً فاتناً جذابا حلو الفكاهة ؛ وإن كان لنا أن نقسم الأدباء صنفين ، صنف كدودة القز تغزل غزلها لأنها مليئة ، وصنف كالعنكبوت يغزل غزله لأنه خاوٍ ، كان أديبنا « ستيرن » بغير شك من دود القز الذى يُفْرغ فى غَزْله مادةً أُتْرع بها جوفُه ، ومهما جاءت خيوطه دقيقة رفيعة ، رأيتها قويةً محبوكة ؛ وهو — فى رأى كارليلْ — ضريبٌ لسيرڤانتيز فى طلاوة الفكاهة التى استحق بها أن يحتل مكانه فى طليعة الأدباء .

أوليفر جولدسمث Oliver Goldsmith (١٧٢٨ — ١٧٧٤) :

ستقرأ عن هذا الأديب العظيم فى ثلاثة مواضع من هذا الكتاب ؛ ستقرأ عنه هنا ناثرا ، وفى مكانين آخرين مسرحيا وشاعرا .

ولِدَ لقسيس فقير ؛ ولما كان فى سنته الثامنة أصابه جدرىّ ترك وصماته الشائهة على وجهه طول الحياة ؛ وأرسل حين بدأ عهد الطلب إلى مدرسة تديرها سيدة ، فقالت عنه « لم أصادف قط طفلا فى غباء هذا الطفل » ؛ ثم عُهِدَ به بعدئذ إلى معلم كان قبل جنديا فى جيش « مولْبرا » ؛ وكان هذا المعلم الجندىّ زاخر الذاكرة بالقصص عن البر والبحر وعن مغامراته ومغامرات سواه ؛ كما كان يحفظ كثيراً من الأغانى الشعبية الإيرلندية القديمة والقصص الخرافية ، ولعل هذا المعلّم أن يكون أول من وجّه أديبنا فى سن الصبا إلى كتابة القصة ؛ وأخذ ينتقل الفتى فى المدارس الريفية حتى أكمل ثلاثة عشر عاما من سنّه فالتحق بكلية فى دَبْلِنْ يتعلم فيها بالمجان لقاء خدمات يؤديها ، وكان « جولدسمث » فى الكلية متراخيا لا يحافظ على موعد أو نظام ، تؤرقه حاجته إلى المال ، فكان يكتب الأغانى ويبيعها ؛ وحدث أن أشرف عليه فى الكلية مربٍّ غليظ القلب طاغية فلقى منه صاحبنا عنتاً ، من ذلك أن زاره بعض أصدقائه يوما ، فدخل عليهم المربِّى محتدم العواطف ثائر النفس وصفع جولدسمث وركله فأوقعه أمام رفاقه ؛ فما طلع الصباح حتى باع الطالب كتبه وغادر الكلية ليضرب فى فجاج الأرض هائما على وجهه ، فصادفه أخوه وكساه بكساء جديد وأعاده إلى كليته حيث أقام حتى ظفر بدرجته العلمية وهو فى عامه الحادى والعشرين .

وما فرغ من الكلية حتى أرسل له عمه مبلغا من المال يمكنه من دراسة القانون فى « دبلن » لكن أديبنا أضاع المال على مائدة القمار ، وسافر إلى أدنبره حيث شرع يدرس الطب ولبث عاما ونصف عام ، ثم حفزه حافز أن يرحل عن أرض الوطن ، فيمم شطر بوردو فى سفينة تحمل طائفة من الجنود الخوارج على القانون ، فسيق راكبوها جميعا إلى السجن ، وظل جولدسمث فى ظلماته أربعة عشر يوما ، ثم عاد فصمم على الابحار مرة أخرى ، وكانت غايته هذه المرة مدينة « روتردام » ومنها واصل الرحلة إلى « ليدن » حيث التحق بجامعتها عاما يواظب مرة وينقطع أخرى .

وعندئذ بدأ جولدسمث « الرحلة الكبرى » سائرا على قدميه ، لا يملك من حطام الدنيا إلا جنيها واحدا ومزمارا ، فكان وهو يجول فى فرنسا يزمر للزارعين فى رقصهم لقاء نومه وطعامه ؛ وطوف بعد فرنسا فى ألمانيا وسويسرا وإيطاليا ، ويقال إنه وهو فى پادوا ظفر باجازة الطب ؛ ولكن كيف السبيل إلى الرزق فى إيطاليا ؛ فلئن استطاع مزماره فى فرنسا أن يكسب له قوتا ومخدعا ، فماذا هو صانع بمزماره فى بلاد كل زارع فى حقولها يفضله فى العزف والموسيقى ؟

أسرع إلى العودة إلى إنجلترا مفلسا مهلهل الثياب بشع المنظر ، فتعذر عليه أن يجد عملا يقتات منه ؛ ثم بدأ ينتقل من عمل إلى عمل كيفما اتفق له ، فهو اليوم معين لصيدلى ، وهو غدا طبيب يعالج المرضى ؛ وهو تارة يصلح التجارب فى مطبعة (هو الذى أصلح تجارب قصص رتشردسن) وهو طورا حاجب فى مدرسة ، وأخيرا عيّن محررا لمجلة شهرية .

هنا بدأ جولدسمث حياة أدبية يعتمد فيها على قلمه ؛ وأخرج سلسلة خطاباته المشهورة مُنَجَّمةً فى إحدى المجلات ، وهى التى تعرف باسم « المواطن العالمى »[1] وتجرى هذه الخطابات على لسان فيلسوف صينى يرسلها إلى صديق له فى الصين وفيها يصف الحياة كما شهدها فى إنجلترا ؛ وآيته فى النثر قصة « راعى ويكفيلد » ؛ وسنترك الحديث عن قصائده ومسرحياته إلى موضع آخر .

أما مجموعة مقالاته — أوخطاباته — التى نشرت باسم « المواطن العالمى » فهى ترمى إلى تصوير الحياة الانجليزية كما يراها الأجنبى ، وبين هذه المجموعة مقالات هى من أجود ماجرى به فى الانجليزية قلم ، نذكر منها بصفة خاصة « صاحب الرداء الأسود »[2] و « بُوتبز »[3] فهاتان شخصيتان جديرتان أن توضعا إلى جانب « سير روجر دى كفرلى » الذى صوره ادسُنْ ، وقد سلف الحديث عنه ، فاقرأ هذه المقالات تجد متاعا لا يعد له متاع ، فأسلوب رشيق رائق ، وفكاهة جيدة لطيفة ، وسخرية مستساغة رقيقة .

طارت هذه المقالات بشهرة جولدسمث ، فتسابق عليه الناشرون ، وأجزلوا له العطاء ، فتدفق المال غزيرا فى جيوبه ، لكنه ظل على فقره ، وماذا يصنع المال الغزير أمام هذا

---

(١) The Citizen of the World .

(٢) man in Black . (٣) Beau Tibbs .

الإسراف الشديد ، فلباسٌ فاخر ، وميسر ، وإحسان فى تبذير ! واتصل جولدسمث باعلام الأدب ، فهو صديق حميم لأمام العصر « الدكتور چونسُنْ » وهو مُجالسٌ لمعشر الأدباء فى « الندوة الأدبية » المشهورة فى تاريخ الأدب والتى سيرد ذكرها عند الكلام على « چونسُنْ » .

أما قصة « راعى ويكفيلد » فهى — كما يقول ناقد — شبيهة بِسِفْر أيوب ، تتناول رجلا طيب القلب ، وتمتحنه بالكوارث المتلاحقة ، فتظل شعلة نفسه صافية النور وسط ما يحيط به من ظلام ، وفى آخر الأمر تجزيه عما صبر ، فتردّه إلى السعادة التى سُلِبها ؛ وليست تُمْدح القصة لفنها القصصىّ ، فهى هنا ناقصة معيبة ، وهى كثيراً ما تجاوز حدود المعقول الممكن فى عالم الواقع ، وتجعل فى مجرى الحوادث دخلا المصادفة أكبر مما نشاهده فى الحياة . ويظهر أن « جولدسمث » حين بدأ كتابة هذه القصة لم يكن فى ذهنه حَبْكة الحوادث فى إطارها ؛ ولكنا لا نقرأ هذا الكتاب لحبكته ، وإنما نقرؤه ويقرؤه العالم كله لهذه الشخصيات الإنسانية التى أجاد الكاتب تصويرها . إن هذا الكتاب وحده لدليل على تشابه النفوس الإنسانية أينما كان الإنسان ؛ وإلا فكيف تهتز قلوب القراء من كل أرض وفى كل زمن لهذه القصة التى تصف أسرة إنجليزية تعيش حياة هادئة فى بيت ريفى متواضع ؟

صموئيل جونسن Somuel Johnson (١٧٠٩ — ١٧٨٤)

هو من الأدباء القلائل الذين سيطروا على الحركة الأدبية فى عصرهم ؛ ولم يُسْلمه الأدباء قيادهم لكثرة ما أنتج من أدب أو لامتيازه فيما أنتجه ؛ إنما سَلَّسَ له قيادهم لقوة خلقه ورجحان عقله ؛ فبمثل تلك الخلال الخلقية العالية والخصائص العقلية الممتازة تكون العظمة فى الرجال ؛ ولقد كان « چونسن » طوال حياته يعانى العلل ، ويقاسى ما ينتج عن ذلك من نفس ضيِّقةٍ ومزاج مكتئب ، لولا أنه سرعان ما وجد فى قوة الإيمان الدينى ما كان يرجوه لنفسه من طمأنينة وهدوء ، ولا عجب ، فهو المسيحىّ الورع صاحب الخلق القوى القويم والإحسان المتصل الذى لا ينقطع ؛ وكان لا يدنو منه أحد من معاصريه فى حدَّة فهمه وقدرته العجيبة على الإعراب عما فى نفسه من خواطر ومشاعر ، مما جعله

محدّثاً من الطراز الأول ، يجلس بين رفاقه فى « الندوة الأدبية » ، فيصبّ ذخيرة عقله فى عبارات تأخذ بجمالها الألباب ؛ ولقد قيض الله للأدب « بُوزْوِيل »[1] — صديقه الحميم — فكتب سيرته وسجّل حديثه فى كتابٍ هو فى ذاته آيةٌ أدبية فريدة نادرة .

ولد فى لتشفيلد ، وأبوه « ميخائيل چونسُن » كان يبيع الكتب فى ذلك البلد ، وقد عُرِفَ بسعة علمه وسلامة رأيه ، بعث بابنه إلى مدارس لتشفيلد ، ولبث بها الفتى حتى بلغ السادسة عشرة ، وعندئذ أقام فى الدار عامين وضع فيهما أساس علمه وثقافته ، إذ انصرف إلى الكتب التى فى مكتبة أبيه ، وهى كثيرة منوعة ، ووجّه عنايته بصفة خاصة إلى المؤلفات اللاتينية ، وبذلك اكتسب علما واسعاً بالأدب اللاتينى ؛ وبعد ذلك التحق بجامعة اكسفورد التى لقى بها ماجرح عزته وكبرياءه ، فقد كان فقيرا يلبس الثياب البالية أحياناً وكثيراً ما يلمح على وجوه أصحابه نظرات الإشفاق تارة والازدراء طوراً ؛ وأخذت الرحمةُ قلب صديقٍ فوضع أمام غرفة صديقه « چونْسُن » — فى الخفاء — حذاء ليستبدله الطالبُ المسكينُ بحذائه الممزق العتيق ، فما أبصر به « چونْسُن » حتى طوح به من النافذة ، وترك أكسفورد بغير درجة علمية .

وظل الأديب ينتقل من عمل إلى عمل ، وكلها لا يتناسب مع ما كتب الله له من مكانة عظيمة فى أيامه المقبلة ؛ وصادف فى تنقله أرملة تكبره بعشرين عاما فأحبها ، مع أنها امرأة لا تفتن بجمالها ولا تجذب بحسن حديثها ، تلبس الثياب المزخرفة التى تتنافر ألوانها ، ولا تدل على ذوق سليم ، وتصبغ وجهها على هيئة زرية ، لكن «چونسن» — بعينيه الضعيفتين — لم ير فيها كل هذه النقائص ، فهام بها حبا لا يرجو منه مالاً لأنها فقيرة ، لكنها كانت له فى الحق زوجة صالحة ؛ وبعد ذلك بقليل فتح مدرسة لم يشأ لها الله نجاحا ، فاعتزم الأديب أن يأخذ سمته نحو لندن ليحترف الأدب ويكسب منه القوت ؛ فما انغمس فى العاصمة الصخّابة حتى أحسّ مرارة الفقر على أشدها وكاد يهلك جوعا ؛ ثم هداه الله إلى عمل ينتفع فيه بموهبته الأدبية ، وذلك أن يعرض فى إحدى الصحف مناقشات النواب ؛ وكان مثلُ هذا العرض لما يدور فى مجلس النواب محرما فى ذلك الزمان ؛

---

(١) Boswell .

فلجأ « چونسن » إلى الرمز والإيماء ، فالمناقشات يزعم أنها تجرى فى مجلس الشيوخ ببلاد ليليپت[١] ، و « بليفَسكو » وهى فرنسا[٢] ، وهكذا وهكذا ، فلكل مكان اسمٌ ولكل شخص رمز ، لكى يفهم القراء ولا ينال منه القانون — على أن الرجل لم يُعْترف له بالقدرة الأدبية حتى نشر قصيدة « لندن » وطبعت طبعتين فى أسبوع واحد ، ولفت بها أنظار « پوپ » فعرفه وكان « پوپ » إذ ذاك فى أوج عظمته .

ذاع صوته وعرفه الناشرون ، فعرض عليه بعضهم أن يكتب « قاموساً » للغة الإنجليزية فى مجلدين ، وكان الأجر المعروض ألفاً وخمسمائة جنيه ، لكن معظم هذا الأجر تسرَّبَ إلى من عاونوه ولم يكسب من هذا العمل المضنى إلا قليلا ، وظهر « القاموس » فجاء دليلا على دقة لغوية ممتازة وسعة اطلاع على الآداب بَدَتْ فيما كان يسوقه من الشواهد .

وظهرت له بعد ذلك قصيدة ثانية عنوانها « شهوات الإنسان وعبثها »[٣] وفيها يعرض لبعض من صعد ثم سقط من العظماء ، ويسخر أمر السخرية بما نسميه العظمة والمجد وما إلى ذلك من عبث وغرور .

وأخرج مأساة « أيْرين »[٤] ولم يكن فيها موفقًا ، ثم اتجهت نيته نحو إخراج صحيفة ينسج فيها على منوال صحيفة « سپكْتِيتَرْ » — التى كان يحررها « أدِسُنْ » و « ستِيلْ » — وأطلق على صحيفته « رامْبِلَرْ »[٥] (الطوّاف) ودامت عامين ، وقد حكم لها « رتشردسن » القصصى الذى عرفْتَه فيما مضى — بأنها تضارع صحيفة « أدسن » إن لم تفقها ؛ لكن أسلوبها كان ثقيلا مسرفا فى غزارة العلم الذى يسوقه والوعظ الخلقى الذى يرمى إليه ، فأعوزه ما كان يتحلى به أسلوب « أدسن » من خفة ورشاقة ، وطلاوة ساحرة نفذت به إلى قلوب القراء ؛ ومضت بعد ذلك ستة أعوام — من ١٧٥٢ إلى ١٧٥٨ . ثم أخرج چونسُنْ مجلة أخرى أطلق عليها اسم « أيْدِلَرْ »[٦] ودامت هى الأخرى عامين كزميلتها .

---

(١) هى بلاد الأقزام فى « رحلات جلفر » راجع « سوفت » .

(٢) وهذا الاسم أيضا مأخوذ من رحلات جلفر ، وكان سوفت يرمز به إلى فرنسا .

(٣) Vanity of Human Wisbes .

(٤) Irene (٥) Rambeler (٦) Idler

وماتت أمه وهو لم يزل فقيرا لا يملك المال الذى ينفقه على جنازة جديرة بها ، فنشط نشاطا يخالف تراخيه المعهود ، وصمم على أن يؤلف كتابا يدر عليه مايسد به نفقات الجنازة ؛ ولم يمض أسبوع واحد حتى فرغ من الكتاب وأرسل مسوداته إلى المطبعة بغير مراجعة . ودُفِعَتْ له فيه مائةُ جنيه ؛ ذلك الكتاب هو « راسلاس أمير الحبشة »[1] ، وتروى القصةُ كيف ضاق « راسلاس أمير الحبشة » ذرعا بعزلته فى قَصْره الذى يقع فى واد بعيد عن خضم الحياة ، فصمم على أن يلوذ بالفرار من ذلك القصر إلى حيث الحياة الزاخرة فيراها ؛ وهكذا يبدأ « راسلاس » رحلة طويله يطوف بها أرجاء العالم ويمر خلالها بأقوام مختلفة . وأهمية القصة تنحصر فى الخواطر التى تستثيرها مَشاهدُ الرحلة ، والمناقشات التى تدور بين الأمير وبين من يلاقيهم فى طريقه ؛ وإذن فالقصة فى حقيقة أمرها ذريعة يستخدمها جونسن لعرض فلسفته وآرائه ؛ فلا حوادثُ القصة ذاتها تثير انتباه القارئ ولا تصويرُ الأشخاص يستحق أى ثناء ، ذلك على قلة ما فيها من حوادث وأشخاص . وأما موضوعات البحث والحديث والتعليق فكثيرة ؛ يَرُدُ ذكرُ العلم فيقول : « إن حياة خُصِّصَتْ للعلم تمضى هادئة ولا تُفزِّعُها الحوادث إلا قليلا » ويَذكر الشعر فيقول : « إن الشاعر لا يَعُدُّ خطوط السوسنة . ولا يصف الظلال المتباينة التى تغشى خُضْرة الغابة ، إنما عليه أن يبرز فى تصويره للطبيعة المعالم الواضحة الرئيسية التى تستعيد صورة الأصل فى ذهن كل قارئ » ويذْكر الزواج فيقول : « فى الزواج آلام كثيرة ، لكن العزوبة ليس فيها من المباهج شىء » — وعلى الجملة فالفلسفة العامة التى تشيع فى الكتاب كله هى فلسفة المتشائم التى ترى الدنيا غروراً وعبثاً ليس وراءه من طائل . « الحياة البشرية — أينما كانت — فيها كثير من الألم وقليل من المتعة » . ومما هو جدير بالذكر فى هذا الصدد أن « ڤولتير » نشر كتابه « كانديد » فى نفس السنة التى نشر فيها « جونسن » كتابه « راسِلاس » والكتابان — كما ترى — يشتركان فى النظرة المتشائمة إلى الحياة ، ولا شك أن « كانديد » أروع فنا من « راسلاس » .

كان « صموئيل جونسن » قد بلغ فى عالم الأدب عندئذ مكانة الإمام الذى يقول الكلمة فإذا هى القول الفصْل ، وهى نفس المكانة التى احتلها سميُّه « بن جونسن » فى القرن

---

(١) Rasselas, Prence of Abyssinia

السابع عشر . وتكونت فى لندن ندوةٌ أدبية يجتمع فيها قادة الأدب ، وكان « جونسن » فى تلك الندوة رئيسا ، وسائر الأدباء إلى جانبه أتباعٌ ومريدون ؛ و بين أعضاء تلك الندوة « أولفر جولدسمث » الأديب المطبوع صاحب « راعى ويكفيلد » ، و « إدمَنْد بِيرْك » أعظم الساسة فى عصره و « جِبُن » المؤرخ العظيم وغيرهم كثيرون — فى تلك الندوة نتج الشطر الأعظم من الحديث الأدبى الذى ورثناه عن « چونسن » ، فقد كان چونسن — كما ذكرنا — محدثا بارعا يتحدر الأدب من بين شفتيه إذا ما تحدث ، فسجَّل صديقه « بُوزْويل » أحاديثه تلك فى السيرة التى كتبها عنه ، ولعلها أعظم ما شهدت الآداب من أدب السِّيَرْ .

وحدث أن زار « چونسن » اسكتلندة فى صحبة « بوزويل » وجاسا خلال نجادها المهجورة ، وعرَّجا على جزائر « هبريديز » التى كاد الناس لا يعلمون عنها شيئاً ؛ وأنتجت هذه الرحلة كتابا هو « رحلة إلى جزائر اسكتلندة الغربية » ، وكان ذلك سنة ١٧٧٥ ، وهى السنة التى منحته فيها جامعة أكسفورد درجة الدكتوراه ؛ و بعد ذلك بعامين طلب إليه كبار الناشرين فى لندن أن يكتب مقدمات لمجموعة كاملة أرادوا نشرها عن الشعراء الإنجليز ؛ فرحب « چونسن » بهذه المهمة وأقبل على أدائها فى شغف ولذة ، فقد كان إناؤه طافحاً بالمحصول الأدبى والآراء النقدية ، وظل يكتب ويكتب حتى بلغ ما كتبه أربعة مجلدات كاملة ، وكان المطلوب فقرات قصيرة يمهد بها لكل شاعر ؛ فجاء « تراجم الشعراء »[1] خير إنتاجه ، واستحق به أن يوضع فى الطليعة بين رجال النقد فى الأدب الإنجليزى ؛ وكانت خطته أن يبدأ بترجمة لحياة الشاعر ثم يعقّب بنقد لشعره موضحاً ذلك بالأمثلة التى يظهر فيها حسن الاختيار ؛ ولسنا ندرى أى الجزءين كان أروع : وصْف السِّيرة أو النقد ؛ فهو فى عرض السيرة فنان بارع يصور الشخصية تصويراً قويا فى أسلوب قصصى جذاب ؛ وهو فى النقد قدير حاد الذهن نافذ البصيرة . على أننا لا نحب أن نذهب فى مدحه إلى حد الإسراف الذى يجاوز الإنصاف ، فقد كانت للرجل عيوبه ونقائصه ؛ فهو فى جانب السِّيَر متأثر بوجهة نظره السياسية ، إذ كان محافظاً جامداً متعصبا ، فإن كان الشاعر الذى يترجم له على غير مذهبه رأيته يجحف به ولا يزنه بميزان عادل ؛

(١) The Lives of the Poets

وهو فى جانب النقد متأثر أيضاً بتشيعه للآداب القديمة ، ولذلك تراه ناقماً على كل أدب فيه نزوع نحو « الابتداع » ، أضف إلى ذلك عجزه أحياناً عن تقويم الشعر بقيمته الصحيحة ، إذ لم تكن له الأذن الموسيقية التى تميز الأنغام تمييز الخبير ؛ ومن أخطائه النقدية المشهورة أنه قلل من قيمة « المقطوعات الشعرية » لمِلْتُن ، لأنه كان يكره هذا اللون من الأدب ، وأنه لم يتذوق قصيدة « لِسِدَاس » التى رثى بها مِلْتُن صديقه كِنْج ، مع أنها من أجود الشعر ؛ وأنه قسا فى الحكم على سوفت لا لشىء سوى أنه ارتاب فى إخلاصه الدينى . . . أما إن خلا جونسن من دواعى التعصب ، رأيت أحكامه صادقة ؛ فنقده لدريدن وپوپ بلغ حد الإعجاز ؛ خذ هذا المثال من « حياة پوپ » :

« فى المعرفة المكتسبة لا بد لنا أن نعترف بالتفوق لدريدن ، الذى جاء تعلّمه أكثر انطباقا على النظم المدرسية ، والذى أتيح له — قبل أن يأخذ فى التأليف — زمنٌ أطول للدرس ، ومواردُ أفضل لنيل المعرفة ؛ وعقله أوسع أفقاً ، وهو يجمع صوره الذهنية من نطاق علمى أوسع محيطاً ؛ وكان « دريدن » أكثر معرفة بالانسان فى سلوكه الخاص ؛ والأفكار عند « دريدن » تتكون بعد تأمل شامل ، وهى تتكون عند « پوپ » من توجيه الانتباه إلى الأجزاء ؛ والمعرفة عند « دريدن » أكثر اتزاناً وهى عند پوپ أكثر دقة .

« لم يكن الشعر هو الحسنة الوحيدة فيهما ، فكلاهما ضرَبَ فى النثر كذلك بسهم موفور ؛ غير أن « پوپ » لم يستمد نثره من سلفه ؛ فالأسلوب عند « دريدن » متقلب متنوع ، والأسلوب عند پوپ متأنق مطرد ؛ فدريدن يستمع إلى خلجات عقله . أما پوپ فيقسر عقله على التزام قواعده فى الإنشاء ؛ ودريدن فى بعض الأحيان قوىّ متدفّق ، أما پوپ فلا ينفك سلساً مطرداً رقيقاً ؛ والصفحة عند دريدن كالحقل الطبيعى ، فيها تفاوت ، وتتنوع باختلاف الخصوبة حيث يكثر النبات ؛ أما الصفحة عند « پوپ » فرقعةٌ من المخمَّل شذَّبها المنجلُ وسوَّاها المقراض » .

***

عُرف جونسن بالتفخيم فى أسلوبه ، فهو يُؤثر الألفاظ القوية الطويلة ، حتى ليوصف باسمه كلُّ أسلوب يجرى على هذا النسق . والحقيقة أن أسلوبه يختلف باختلاف الموضوع

الذى يكتب فيه ؛ فهو أحياناً يستخدم الألفاظ القصيرة إن اقتضتها طبيعة الموضوع ؛ وهو أجود ما يكون أسلوبا حين يكتب كما يتحدث ، غير أنه فى حديثه كان يتوخى العبارة القوية ، وفى ذلك يقول لأحد أصدقائه من روّاد الندوة الأدبية : « لقد اتخذتها قاعدة منذ بعيد أن أبذل قصاراى فى كل مناسبة و بين أية صحبة من المجالسين فى أن أعبر عما أعلمه كائناً ما كان فى أقوى عبارة أستطيع أن أعبر بها عن المعنى الذى أريد ، حتى أصبح ذلك عادة بالمران المتصل و بالحرص الشديد على أن لاتفلت منى عبارة واحدة أهمل تركيبها ، وألا أُخرج أفكارى قبل ترتيبها ترتيباً يؤدى إلى توضيح المعنى إلى أقصى حد مستطاع » . وكتابه «راسلاس» مثال للأسلوب المتكلف الفخم . أما «تراجم الشعراء» ففيه القوة مع السلاسة ، وفيه التنوع الخصيب فى الأسلوب ، وفيه مرونة الجرس و براعة الفطنة وروعة الخيال ؛ غير أن « چونس » يميل إلى موازنة العبارة صدرها مع العجز ، و إلى المقابلة التى كثيرا ما تكون آلية لا تصدر عن طبع ؛ كما يميل إلى الجملة الثقيلة فى لفظها المثقلة بمعناها ؛ فهو مثلا يُجْرى على لسان فتاة فى سن السادسة عشرة ، تتحدث عن عمتها ، هذه العبارة : « لم تكن عواطفها سامقة التسامى ولا نظراتها رحيبة الأفق ، لكنها خيرة المبادئ خالصة النوايا ، فلئن جاز أن يكون بعض الناس أكثر منها فضيلة فقلّ أن تجد مَنْ يقلّ عنها إثما » . وهو كذلك يميل أحيانا إلى استخدام الألفاظ التى تدل على العلم والثقافة ولو لم يقتض الموقف مثل هذه الألفاظ ، وفى ذلك يقول ما كولى : « إن كل كتبه مكتوبة بلغة علمية (المقصود باللغة العلمية هنا اللغة التى تنم عن ثقافة عالية) لغة لا يسمعها أحد من أمه أو مرضعته ، لغة لا يَشْتَجر بها الناس ولا يعقدون بها الصفقات ولا يغازلون بها ، لغة لا يفكر بها أحد » .

ادورد جبن Edward Gibbon (١٧٣٧ — ١٧٩٤) :

هو صاحب الآية التاريخية العظيمة ، « تاريخ تدهور الإمبراطورية الرومانية وسقوطها »[١] ، وقد ظهر منه الجزء الأول سنة ١٧٧٦ ثم بلغ ختامه بعد ذلك باثنى عشر عاما .

---

(١) The History of the Decline and Fall of the Roman Empire

أرسل « جِبُنْ » إلى جامعة اكسفورد وهو فى سن الخامسة عشرة ، حيث أقام عاما وبعض عام هى « أشد أيامى خمولا وأقلها نفعا » . ثم حدث له أن قرأ « بوسويه »[1] فتأثر به وارتد عن عقيدته الدينية البروتستنتية ليعتنق الكاثوليكية الرومانية ، فاقتضى ذلك أن يُفْصل عن الجامعة ، فأرسله أبوه إلى قسيس فى لوزان ما زال به حتى ردّه إلى عقيدته الأولى من جديد ؛ وأقام جِبُنْ فى لوزان خمسة أعوام أدام فيها اطلاعه على الأدب اللاتينى والأدب الفرنسى ؛ فكان لطول غيابه عن بلاده أثر فى انعدام اللون الإقليمى فى أدبه ، فهو فى مزاجه وأحكامه وأسلوبه ليس بالانجليزى الصميم ، وبهذا الطابع امتاز من سائر أدباء الإنجليز . وعاد الكاتب إلى أرض الوطن حيث التحق بالجيش المرابط أعواما عدة ، أفادته — كما يقول — حين أخذ فيما بعد يكتب عن الحملات الحربية والمعارك فى مؤلفه التاريخى العظيم ؛ ولكنه ما لبث أن عاد إلى القارة الأوربية من جديد ، يطوف بفرنسا وسويسرا وإيطاليا . فلما كان فى مدينة روما نضجت فى ذهنه الفكرة عن إخراج شىء فى التاريخ . يقول جِبُنْ : « كنت فى روما فى الخامس عشر من شهر أكتوبر سنة ١٧٦٤ ، جالسا أفكّر بين آثار « الكابتُلْ » ، بينما كان القساوسة الحفاة يرتلون صلاة المساء فى معبد چوپتر ، وعندئذ بزغت فى ذهنى لأول مرة فكرة الكتابة فى تدهور روما وسقوطها» . ثم عاد إلى إنجلترا مرة ثانية ، وأخذ يُعِدُّ لمؤلفه التاريخى الذى اعتزم إخراجه ، وهنالك انخرط فى جماعة « الندوة الأدبية » التى التف أعضاؤها حول « چونسن » .

صدر الجزء الأول من كتابه فتقبله الجمهور قبولا حسنا ، بل صادف المدح والإعجاب عند العلماء والناقدين ، حتى من عرف منهم بالتزمت والعنت . والحق أنه كتاب ما كان ليصدر لولا ما بذله فيه مؤلفه من جهود مضنية متصلة وصبر جميل لا ينفد ، فهو فى الواقع يؤرخ للعالم المتمدين كله . « فليس سقوط روما سقوطا لامبراطورية وكفى ، بل هو زوال للون من الفكر وطور من أطوار العقائد الدينية والأخلاق والسياسة وأوضاع الحضارة بوجه عام ؛ فسقوط روما فيه فناء الوثنية القديمة ومولد العالم المسيحى الجديد ، وهو أكبر تطور شهده التاريخ »[2] . وقد عالج جِبُنْ هذا الموضوع المتشعب بقدرة لا تزال تثير إعجابا

---

(١) راجع فصل الأدب الفرنسى فى القرن السابع عشر

(٢) كتر مورسن Cotter Morrison

عند العلماء ؛ فعلى الرغم من تفرّع الموضوع وتعقّد الحوادث والأشخاص ، لم تَفُتْه الدقة فى موضوع من المواضع — وأخذت تصدر أجزاء الكتاب تباعا ، وقد كتب الأجزاء الأخيرة وهو فى لوزان .

والكتاب يبدأ بعرضٍ جميل للتاريخ الرومانى منذ عهد أوغسطس ، ثم يبدأ التفصيل من تربّع كومودس على عرش البلاد (١٨٠ م) ويتتبع فى وصف جميل وعبارة واضحة تاريخ الرومان ، وانحلال الامبراطورية الغربية نتيجة لغارات القبائل الهمجية القادمة من أواسط أوربا ، وتطور الكنيسة المسيحية ونموها ، وتوطيد الدولة البيزنطية ، حتى يصل إلى سقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣ .

وهاك مثالا من هذا الكتاب :

« ... وعلى رأس هؤلاء الأمجاد وحّد ابنه نور الدين قُوى المسلمين رويداً رويدا ، فأضاف مملكة دمشق إلى مملكة حلب ، وشنّ حربا طويلة موفّقة على المسيحيين فى سوريا ، فبسط سلطانه القوى من دجلة إلى النيل ، وكافأ العباسيون عاملهم الأمين بكل ما يتمتع به السلاطين من ألقاب وحقوق ؛ وقد اضطر اللاتينيون أنفسهم أن يعترفوا بما لهذا العدو العنيد من حكمة وشجاعة ، بل بما له من عدل وتقوى ، وكان هذا المجاهد الورع فى حياته وحكومته قد أعاد ما عُرِفَتْ به عهود الخلفاء الأولين من حماسة و بساطة ، فأزال من قصره الذهب والحرير ، ومنع فى أرجاء ملكه احتساء الخمر ، وأنفق دخل الدولة فى خدمة الشعب ، لا يتهاون فى ذلك قيد أنملة ، وأما نفقات بيته — وكان فيها كزّاً — فقد اعتمد فيها على نصيبه المشروع من الغنائم ، الذى استثمره فى ضيعة خاصة اشتراها ؛ وحدث أن تحرقت زوجته العزيزة « سلطانة » شوقا إلى حلية ثمينة مما يتحلى به النساء ، فأجاب الملك : « وا أسفاه ! إنى لأخشى الله ، فما أنا إلا خازن لمال المسلمين ، وليس فى وسعى أن أتصرف فى مِلكهم ، لكنّ لى ثلاثة حوانيت لا أزال أملكها فى مدينة حمص ، فلك أن تأخذيها ، وليس لى أن أهب شيئا سواها » وكانت ساحة عدله ملجأ للعظيم ومأوى للفقير . فلما مضت بضعة أعوام بعد موت السلطان ، صاح فى شوارع دمشق رجل أصابه غبن : « نور الدين ! نور الدين ! أين أنت اليوم ؟ انهض ، انهض لترحمنا وتحمينا ! »

ادمند بيرك Edmund Burke (١٧٢٩ — ١٧٩٧) :

هو من أعظم من أنجبتهم انجلترا من الخطباء والمفكرين السياسيين ، ولد فى دَبلن ، وكان زميلا لجولد سمث فى الجامعة ، وقد أطال القراءة فى الأدب الإنجليزى والشعراء الانجليز وهو طالب ، وأسس فى الجامعة « جمعية تاريخية » ، فكانت أول حلبة تجلت فيها مواهبه الخطابية والأدبية .

وكان أول نتاجه الأدبى « دفاع عن المجتمع الطبيعى »[١] ، ثم نُشر له بعد ذلك « بحث فلسفى فى نشأة آرائنا عن الجليل والجميل »[٢] .

وهو كتاب فى علم الجمال استوقف الأنظار وأثار الاهتمام عند صدوره لجدَّة الموضوع وطرافته ، إذ لم يكن قبل ذاك موضوع الجمال مطروقاً مألوفاً ، غير أن الكاتب فى هذا البحث ينقصه كثير من العلم الضرورى بشئون الفن لكى يستطيع الاجادة ، ثم اتفق مع ناشر على إصدار مجلة تاريخية ، هى « السجل السنوى »[٣] ، وظل أمداً طويلا من حياته يواصل المجلة ببحوثه .

ولما بلغ السابعة والثلاثين من عمره دخل البرلمان حيث لبث عضواً مدى ثلاثين عاما ، وكان « بيرك » رغم فصاحته الخطابية عضواً برلمانياً فاشلا ، فقد كان يلقى الخطاب الجيد البليغ فلا يصغى إليه أحد ، ثم ينشره فى صحيفة فإذا هو مثيرٌ لاهتمام القراء جميعاً ، وهنا يجدر بنا أن نعيد ما قلناه فى الخطابة فى الجزء الأول من هذا الكتاب .

« والخطابة إنما تكون أدباً حين تحتفظ الألفاظ المنطوقة بقوة فصاحتها إذا ما خُطَّتْ على الورق لتُقرأ ، فما أكثر ما تفنى خطب الخطباء مع الهواء كما تفنى ألحان المنشدين وأصوات الممثلين . والخطب ثلاثة أنواع : « خطب تُسمع ولا تقرأ ، وخطبٌ تُقرأ ولا تسمع ، وثالثة تشمل بتأثيرها العيون والآذان ؛ فها هوذا « غلادستون » مثلا حرَّك النفوس بخطبه ، ولكنها حين صُبَّت فى أحرف المطابع بردت نارها ، وذلك هو « إدْمَنْد

---

(١) A Vindication of Natural Society

(٢) A Philosophical Inquiry into the Origin of our Ideas of the sublime and Beautiful

(٣) The Annual Register

بيرك » ، لم يكن له من القدرة الخطابية ما يقنع البرلمان الانجليزى ، ومع ذلك فخطبه — مكتوبةً — ساحرةٌ فاتنة ، وهى تحتلُّ مكانة رفيعة فى الأدب الخالد ، وأما خطباء اليونان فقد بلغوا بهذا الفن حداً بعيداً من الكمال ..... » .

كان « بيرك » يلقى الخطبة فَيُبْهت لها الأعضاء الحاضرون ، لكنهم لا يتحمسون لها ولا يقتنعون بها إلا إن قرءوها مكتوبة فى صحيفة ؛ بل أطلق عليه فى أُخْريات سنيه كنيةٌ تَصِفُ وَقْع خُطَبه ، هى « جرس الغداء » لأن نهوضه للخطابة كان إيذانا بانصراف الأعضاء ؛ والعجيب أن خُطَبه فى جموع الشعب كانت على النقيض من ذلك ، إذ حركت نفوس سامعيها وهزّت قلوبهم هزا حارا عنيفا ؛ فقد وُجِّه اتهام إلى « هيستِنْجز »[1] وقام « بيرك » يخطب فى اتهامه ، فاسمع ما تقوله أديبةٌ كانت تناصر المتَّهم : « أثار اهتمامى ثم ملأ علىّ شعاب قلبى ، ثم حطّم قواى فى نهاية الأمر تحطيما ؛ أحسستُ أن القضية التى أناصرها قد ضاعت ، فكدتُ لا أستطيع القرار فى مجلسى ؛ ولم تَقْوَ عيناى على أن توجّها لمحةً واحدة إلى رجل بلغ اتهامه ما بلغه مستر هيستنجز ، ووددت لو ابتلعتنى الأرض حتى لا أكلّف عينىّ مثل هذا المنظر الأليم » والحق أن خطبته فى اتهام هيستنجز بلغت من جودة الصناعة وروعة الفن ما يتعسر معه أن تجد لها شبيها .

ومن آياته الباقيـــة « آراء فى حالة التبرم القائمة »[2] » و « خطاب فى الضرائب الأمريكية »[3] و « خطاب إلى رؤساء الأقاليم فى بِرِسْتُل[4] وغيرها ، مما يعد نموذجا للقول فى الشئون السياسة ، فهى مترعة بالحكمة العميقة ، والحكم الصائب ، والتأمل الفلسفى ؛ ولم تشهد الكتابة السياسية قبل « بيرك » هذه الذخيرة الزاخرة الخصيبة من الشواهد تساق فى لغة تتألق بلمعات الخيال ، وتكتسب حرارة من الرأى الأصيل والشعور الدافق الفياض ؛ ولا عجب ، فقد كان الرجل يشتعل حماسة للذود عن المظلوم ورفع السياسة الإنجليزية — فى الداخل والخارج — إلى مستوٍ رفيع ؛ ومما يميز كتابته السياسية كلها نفوره من النظريات المجردة وانتزاع القواعد العامة ؛ فقد كان من المحافظين عمليا لا يتعلق بالآراء النظرية ، ولئن أراد الإصلاح فقد كره التجديد .

---

(١) Hastings .

(٢) Thoughts on the present Discontents .

(٣) Speech on American Taxation .

(٤) Letter to ihe Sheriffs of Bristol .

وإن كان ذلك كذلك ، فلا بد أن تكون الثورة الفرنسية قد ساءته بعنفها ، فتصدى لها يوجِّه إليها أمَرَّ النقد ويقاوم عوامل الهدم التى خلفتها الثورة ، وعندئذ ألّف كتابه الخالد « تأملات فى الثورة الفرنسية »[1] سنة ١٧٩٠ ، وحَسبك أن تعلم أنه قد طبع إحدى عشرة طبعة فى عام واحد ، لتدرك منزلته من القراء ؛ وكان كتاب « تأملات فى الثورة الفرنسية » من أقوى الحوافز التى استحثت ملوك أوربا على مقاومة الحركة الثورية ؛ لكن الثورة الفرنسية مضتْ فى طريقها تقوض كل بناء للنظام والقانون ، فيتميز صاحبنا من الغيظ ويغلى صدره بالعواطف المشتعلة ، ويُخرج غَضْبته الحامية فى « آراء فى الشئون الفرنسية »[2] .

واعتزل « بيرك » معترك السياسة إذ مات وحيدُه الذى حل من قلبه فى السويداء ، فتحطمت قواه وازورّ عن الدنيا وعبثها ، فلم يعد له فيها مأرب ولا رجاء .

ومن خصائص أسلوبه تلاحق الإشارات وكثرة الاستعارات ، وهو يمتاز بالقوة والطلاقة ؛ وكثيرا ما يستعير الشواهد من الكتاب المقدس ، فقد أدمن قراءته حتى كانت آياته على سنان قلمه وتوقيع أنغامه حاضرة فى ذهنه وهو يكتب ؛ وكان يحب التعبير عن المعنى الواحد فى عبارات مختلفة ، ويميل إلى التكرار أحيانا — شأن الخطيب المصقع الذى يقصد بكلامه إلى صميم القلوب ؛ وهو يؤثر الأمثلة العملية المحسوسة على الأقوال النظرية المجردة ، وتراه يجمع بين الجمل القصيرة الحادة والجمل الطويلة المديدة .

وهذا مثال من « تأملات فى الثورة الفرنسية » :

« مضت ستة عشر أو سبعة عشر عاما مذ رأيت ملكة فرنسا فى ڤرساى ، وكانت إذ ذاك ولية للعهد ؛ وإنى لعلى يقين أن هذا الفَلَكَ السماوىّ — الذى لم تكنْ قد مَسَّتْه إلا مسًّا رفيقاً — ما شهد قط أبهج منها منظراً ؛ رأيتها وقد أشرقت فى الأفق منذ قليل ، تزيِّن ذلك العالم الرفيع الذى بدأت لتوِّها تتحرك فى أرجائه فملأته مرحا وبهجة ، وهى تتلألأ كأنها نجمة الصبح ، تملؤها الحياة والجلال والغبطة . أواه ! يالها من ثورة ! ويالله من قلبٍ لابد أن أحمله بين أضلعى لأتخيل ذلك الارتفاع وذاك السقوط دون أن يهزّنى

---

(١) Reflections on the french Revolution . (٢) Thoughts on french Affairs .

انفعال ! . . . لم يَدُرْ بخلدى أنى سأحيا حتى أرى هذه الكوارث تنصبّ عليها فى أمة عُرِفَ بالشهامة رجالُها ، فى أمةٍ يتصف بالشرف أبناؤها ، فى أمة فى أهلها نخوة الفرسان ؛ لقد حسبتُ أن ألوف السيوف ستنسلُّ من أغمادها لتثأر لها لو توجهت إليها نظرةٌ واحدة تتهددها بالهوان ؛ لكن عهد الفروسية انقضى ، وأعقبه عهد فيه رجال الجدل الزائف والاقتصاد والحساب ، فذهب عن أوربا مجدها إلى الأبد ؛ ولن نرى بعدُ ، لن نرى ذلك الولاء السَّمْح لأبناء الطبقة النبيلة و بنات الجنس اللطيف ؛ لن نرى بعدُ ذلك الإذعان فى عزةٍ ، وتلك الطاعة فى كرامةٍ ، وذلك الخضوع يصدر عن القلب و يُبقى روح الحرية الشامخة حيَّة حتى فى العبودية نفسها .

(ب) الشعر :

كانت بوادر المذهب الاتّباعى قد ظهرت فى الشعر الإنجليزى فى أواخر القرن السابع عشر ؛ ثم بلغ هذا المذهب نهاية شوطه فى النصف الأول من القرن الثامن عشر على يدى « پوپ » — أو فيما يسمى بالعصر الأوغسطى ؛ وهنا نرى لزاما علينا أن نوضح العناصر الأساسية فى المذهب الاتباعى فى الأدب ونحاول التفرقة بينه و بين المذهب الابتداعى .

لسنا نريد بلفظ الاتّباع أن الأديب يستقى وحيه من الآداب اليونانية والرومانية القديمة فحسب ، فذلك وحده لا يكون اتّباعا ، لأن الأدب فى عصر اليصابات كان يستوحى تلك الآداب القديمة ، ومع ذلك فهو أدب ابتداعى خالص ؛ و إنما نعنى مجموعة من الخصائص مجتمعة ؛ فالاتّباعيون يعنون كل العناية باللفظ قبل المعنى ، بالصورة قبل المادة ؛ هم يكثرون من القيود التى يراعون فيها أن تكون مستمدة من الآداب القديمة ، ثم تكون البراعة عند الأديب أن يحافظ على تلك القيود ؛ والشاعر الابتداعى يهتم بالمعنى و بالمادة التى يريد أن يعبر عنها ، ثم لا يتقيد بشىء حين يختار لنفسه أداة التعبير ، لأنه حر يختار أنسب أداة تُخْرج المعنى الذى يريد إخراجه قويا سليما ؛ أما الشاعر الاتّباعى فيبدأ بالتسليم بضرورة صور معينة للتعبير ، ثم يحاول أن يعرب عما فى نفسه فى حدود تلك الصور .

وقد يتشابه الاتباعى والابتداعى فى المعانى ، لكن هنالك سماتٍ تميز أحدهما من

الآخر ؛ فالكاتب الاتّباعى يميل إلى السخرية والهجاء ، وإلى أن يكون أدبه تعليميا تهذيبيا ؛ ويحبّ أن يصف حياة المدينة لا حياة الريف ووصفه موضوعىّ يتعلق بالشىء الموصوف أكثر منه ذاتيا يعبر عما يجيش فى نفس الأديب الواصف ؛ على نقيض الكاتب الابتداعى ، فهو يميل نحو الطبيعة كما تبدو فى كافة صورها ، ومن بينها الحقول والأزهار والحياة الريفية ، ويميل كذلك إلى وصف الغريب دون المألوف ، والمغامرة دون الاستقرار ، ثم هو فى وصفه ذاتى يدوّن خلجات نفسه إزاء ما يصف ؛ ولئن كان الأديب الاتباعى يريد أن يعلّم قارئه درسا بما يكتبه فإن الأديب الابتداعى يكفيه أن يغنّى بما فى قلبه ولا يعنيه بعد ذلك أفاد القارئ شيئاً أو لم يُفِدْ ؛ والاتّباعى يحتكم إلى العقل ويلجم العواطف الحادة ، أما الابتداعى فيرخى العنان لخياله ولا يكبت شيئاً من عواطفه ، بل — على نقيض ذلك — لا يرى الأدب إلا أداة للتعبير عن تلك العواطف .

اسكندر بوب Alexander Pope (١٦٨٨ — ١٧٤٤)

ولد فى لندن لأب كان يشتغل بالتجارة ، وقد نشأ على عقيدة أبيه كاثوليكيا رومانيا ، ولبث يعتنق تلك العقيدة طوال حياته ؛ وأهم ما يلفت النظر فى سيرة الشاعر حقيقتان : الأولى نضجه المبكر ؛ والثانية علة جسده ، فقد ورث الدُّوار من أمه والجسم الشائه عن أبيه ، وحيل بينه وبين الجامعات بسبب عقيدته الدينية ، لكن الله وهبه نبوغا يستغنى به عن الجامعات ؛ ففى سن الخامسة بدأت تظهر عليه بوادر الذكاء الوقاد ، فأوصتْ له عمته بكل كتبها وصورها ؛ وفى الثامنة ترجم بعض أشعار لاتينية ، وفى الثانية عشرة ترك المدرسة وبدأ فى داره دراسة ينظمها لنفسه بنفسه ، انصرف بها نحو الأدب ، وكان أكثر قراءته منصبًّا على « سبنسر » و « دريدن » ، وفى سن الخامسة عشرة نظم ملحمة طويلة ألقى بها فى النار بعد نظمها ؛ وفى الثامنة عشرة كتب مجموعة « الأشعار الريفية »[1] ، وقبل أن يتمّ عامه الخامس بعد العشرين بدأ مجهوده الشاق الطويل فى ترجمة هومر ، وحَسْبك ذلك دليلا على نضجه الباكر . أما علّة جسده فقد قال هو عن حياته فى إحدى قصائده إنها

---

(١) Pastorals .

« علّةٌ واحدة طويلة » ؛ كان أصلع الرأس قزما لا يزيد طوله على أربع أقدام محدودب الظهر قميئاً يبدو عليه المرض ، فهو لم يستطع حتى بعد اكتمال نموه أن يلبس ثيابه أو ينضوها بنفسه ؛ ففى الصباح كانوا يلفّون له جسده بأربطة من القماش السميك لتُقيمه ، وكان يلبس تحت القميص صداراً من فراء ، ويلبس ثلاثة أزواج من الجوارب تزيد قليلا من سُمْك ساقيه ؛ فقد كان من ضآلة الجسم بحيث يتطلّب مقعداً عالياً كلما جلس إلى مائدة كما هى الحال مع صغار الأطفال ؛ لكن إلى جانب هذا كله كانت له عينان جميلتان وصوت رخيم حتى ليسمونه بالبلبل الصغير .

أول ما نشر من شعر « پوپ » « الأشعار الريفية » وهى أربع قصائد : واحدة عن الربيع . وثانية عن الصيف ، وثالثة عن الخريف ، ورابعة عن الشتاء ، وهو يحاكى بها « أشعار الحقول » لڤيرچيل ؛ ونستطيع أن نَعُدَّ هذه الأشعار بمثابة مرحلة التدريب ، على الرغم مما فيها من حلاوة أنغام ومرونة سياق وصقل .

ثم نشر له بعد عامين (١٧١١) « مقالة فى النقد »[١] أنشأها وهو فى التاسعة عشرة من عمره ، وقد قرّظها « أدِسُن » وكانت صلةَ التعارف بين الأديبين الكبيرين ؛ ويلخص الشاعر فى هذه القصيدة مبادىء النقد الأدبى التى وردت فى قصائد نقدية سلفت ، مثل قصيدة « الفن الشعرى » لهوراس الشاعر الرومانى ، و « الفن الشعرى » أيضاً لبوالو الناقد الفرنسىّ فى القرن السابع عشر ؛ ويقسم الشاعر قصيدته هذه ثلاثة أقسام يبين فى أولها ضرورة أن يَدْرس الأديب أصول الذوق السليم وقواعده ، وأن يكون عماده على الطبيعة وعلى دراسة الأقدمين ؛ ويبين فى ثانيها الأسباب التى تعطّل فينا ملكة النقد السليم والحكم الصائب ، ويحصرها فى عشرة أسباب : الغرور ، والعلم الناقص ، والحكم على القصيدة جزءاً جزءاً دون أن يُنْظَر إليها كلاًّ واحداً ؛ والتطرف إما إلى ناحية التعنت الذى لا يعجبه العجب وإما إلى ناحية التسرع فى المدح فيقرظ كل شىء ؛ والتحزب لقديمٍ أو جديدٍ ، والهوى ، والشذوذ ، والتذبذب ، والتعصب الحزبى ، والحسد ؛ وفى القسم الثالث من القصيدة يبين وظيفة الناقد وطريقة أدائها ، فالناقد لا بد أن يجمع إلى سلامة

---

(١) Essay on Criticism .

ذوقه وصدق حكمه وسعة علمه ، صراحة وتواضعا وأدبا ولباقة ؛ وهو يبين فى هذا القسم أيضاً خصائص الشاعر الردىء والناقد المعيب ، ويقابل بينها وبين صفات الناقد الكامل ، ويستعرض تاريخ النقد الأدبى بادئا من أرسطو حتى عصره ؛ والقصيدة مكتوبة بالقافية المزدوجة ، نقتبس منها ما يلى :

قلةُ العلم خَطْبٌ بالغُ الخطر حتما
فاشربْ من القاع أوْ لا تذقْ للشعر طعما

... ...

من يكسُ الطبيعةَ بالثوب القشيب فذاك الشاعر الفطن الأريب
قلْ ما قيل تكراراً ، فى صيغةٍ لم يَسْبقها فى الجمال ضريب

... ...

فمعظمهم حُكْمُهُ على القريض بما للشعر من أوزان
إن سَلُسَتْ ، كان الصوابُ ، أو خَشُنَتْ — فى رأيهم — شالت كفة الميزان ؛
إن ربة الشعر الساطعةَ فيها ألوفٌ من ضروب السِّحر تجتمع
لكن حَمْقَى الأنغام هؤلاء لا يعجبهم من مفاتنها إلا الصوتُ يُسْتَمَع
إن مَنْ يرتَدْ دولةَ الشعر — لا إلى تهذيب العقل يقصد —
بل لمتعة الآذان ، كمن إلى الكنيسة يذهب
لا من أجل العقيدة ، لكنّ العزفَ إليه مُحَبَّب

وأنشأ الشاعر بعد ذلك قصيدة « اغتصاب الخُصْلة »[1] ، وهى قصيدة تهكمية تعالج موضوعا تافها بالأسلوب الذى عالج به شعراء الملاحم العظمى موضوعاتهم الجادّة الهامة ؛ فقد حدث أنْ غافلَ أحدُ اللوردات سيدةً جميلة فجزَّ من شعرها خُصْلة ، فاختصمت من أجل ذلك الأسرتان ، فاتخذ الشاعر هذا الحادث موضوعا لقصيدته ، أو لملحمته التهكمية ؛ ولما كان لا بد لكل ملحمة من عُدَّة خارقة للطبيعة تسيِّر حوادثها — كالأرباب والآلهة فى الملاحم القديمة — فقد اتخذ پوپ من عرائس الجن والشياطين عُدَّة لملحمته ، وهو يبدأ

---

(١) The Rope of the Lock .

القصيدة — كما تبدأ الملاحم الكبرى — بتوجيه الخطاب إلى ربة الشعر أن تنشده :

أيّ عدوان مخيفٍ من أسباب الغرام ينشأ

وأيُّ عراكٍ عتيٍّ عن التوافه يطرأ

وما « العدوان المخيف » هنا إلا اغتصاب خُصلةٍ من شعر مَنْ أطلق عليها فى قصيدته « بِلِنْدا »[1] (وهى فى حقيقتها مِسْ فيرمَرْ)[2] ، ثم أخذ الشاعر يقص فى أبدع تهكم وأروع سخرية كيف تم ذلك الاغتصاب وماذا كانت نتائجه ، وهو يُجْرى القول فى نغمة الجد على نحو يستثير فيك العجب والإعجاب ، انظر كيف يصف أدوات الزينة التى وقفت عندها « بِلِنْدا » تزيِّن نفسها قبيل خروجها إلى ذلك الحادث المشئوم :

فهذا وعاءٌ عن لآلئ الهند الوضّاءة يُفْتَحُ

« وبلاد العرب » تنفَّسَتْ من ذلك الصندوق طيباً ينفح

السلحفاةُ هنا والفيلُ متحدان

تحوَّلا أَمْشَاطًا : منها البِيضُ ومنها أَرْقَطُ الألوان ؛

هٰهنا خطوطٌ من المشابك امتدت صفوفا صفوفا تتألق ،

أريجٌ ومسحوقٌ وزينةٌ ، وإنجيلٌ وخطابُ مغرمٍ يتحرقُ ؛

وبعدئذ همّ الشاعر بعمل جليل استغرق من سنيه ستًّا ملأها بالجهود المتصل ، فقد أخذ ينقل الإلياذة والأوذيسية شعرا انجليزيا ؛ وكان « سِوِفْت » عندئذ يروِّج له فى القصر وفى طبقات المجتمع الراقية ، فيذيع بينهم أن « أنبغ شاعر فى انجلترا » يترجم هومر ، ويستحثهم بقوله : « أريدكم جميعا أن تساهموا فى ترجمته لهومر ، لأنه لن يبدأ الطبع إلا إن جمعْتُ له ألف جنيه » ، وما أتمّ « پوپ » إخراج الملحمتين حتى كان له منهما تسعة آلافٍ ضمنت له العيش الرغيد بقية حياته .

لم يترجم « پوپ » عن اليونانية رأسا ، إنما نقل عن ترجمة فرنسية « لمدام داسييه »[3]

---

(١) Belinda .

(٢) Miss Fermor .

(٣) Madame Dacier (١٦٥٤ — ١٧٢٠) .

وكان يرجع أحيانا إلى ترجمة « تشاپمان » . وقد انشق النقاد فى الحكم على ترجمة « پوپ » ، فمنهم من رفعها حتى جعلها أروع ما يستطيعه مترجم — مثل بَيْرُن — ومنهم من اتهمها بالعجز والقصور ، فقد قال عنها « بنْتِلى »[1] الناقد العالم : « إنها — يا مستر پوپ — قصيدةٌ جميلة ، ولكن لا يجوز لك أن تسميها هومر » . وقال عنها « جِبُنْ » : إن فيها كلَّ ما يستحق المدح إلا أنها ترجمةٌ أمينة ؛ ولعل أجمل ما قيل فيها إنها تشبه تمثالا خزفيا مزخرفا نُقِلَ عن تمثال يونانى من المرمر القوى فى بساطة .

و بينما كان « پوپ » مشتغلا بترجمته للالياذة ، أخرج بضع قصائد صغيرة بلغ فيها غاية ما يستطيعه جودة و إتقانا ؛ منها قصيدة « رسالة إلويزا إلى أبلارْد »[2] وهى تدور حول قصة مشهورة لحبيبين حلَّتْ بهما الكوارث ، فلجأ كل منهما إلى دير يقضى فيه ما بقى له من حياته ؛ وكتب « أبلارد » خطابا إلى صديق فوقع فى يدى « إلوزا » وأيقظ فى قلبها سالف حبها ، فأنشدت هذه الرسالة ، وفى ختامها تخيلت الراهبةُ نفسها متكئة على قبر وأنها تسمع أصوات الموتى فى القبور :

فى كل نسيم يرفُّ حَسِبْتُ روحا يناديني
وجوار الجدار ظننتُ صوتا — لم يكن بالصَّدى — يناجيني ؛
وهٰهنا — وكنتُ فى المصابيح الخابية من حولى أحدِّجُ —
من ذلك الضريح هناك سمعتُ صوتا يتهدَّج :
« تعالىْ — أختاه — تعالىْ » (هكذا قال أو خيل لى)
« مكانك هٰهنا — أختاه الحزينةُ — تعالىْ لا تُمهلى ؛
فيوماً رجفْتُ كما ترجُفين ، وكان منى بكاء ودعاء
كنتُ آنئذ ضحيةَ الحبّ و بتُّ اليوم قديسةً عذراء ؛
فسكونٌ شاملٌ هٰهنا فى هذا النوم الدائم
نَسِيَ الأسى أنَّاتِهِ ولا بكاءَ من المحبِّ الهائم . . . »

فرغ « پوپ » من ترجمة هومر ، وتدفقت عليه الأرباح ، فاتخذ مسكنا هادئا على

---

(١) Bently . (٢) Epistle of Eloisa to Abelards .

ضفاف « التيمز » حيث كان يستضيف أعلام الأدباء فى عصره وعلى رأسهم « سوفت » ، وهٰهنا أنشأ « بوب » ملحمة تهكمية أطلق عليها « دَنْسِياد »[١] — أو قصة الأغبياء — وفيها هجاء مرّ للأدباء الذين ناصبوه العداء .

ثم أخرج « مقالة فى الإنسان »[٢] وهى تتألف من أربع رسائل موجّهة إلى « اللورد بولنجبروك »[٣] الذى أوحى إليه بفكرة القصيدة ، وهى محاولة — كالتى حاولها مِلْتُنْ — ؛ فهو يسلّط عقله الخالص على ما تحتويه الحياة البشرية من ألوان الشقاء وضروب التناقض ، ويبيّن أن الشر إنْ هو إلا نتيجة عجز الإنسان أن يرى الكوْن فى مجموعه ، فينظر إلى أجزائه جزءا جزءا ، فيخيل إليه أن هذا الجزء شر فى ذاته ، مع أنه مع غيره من الأجزاء يكوّن خيرا .

يزعم الشاعر فى الرسالة الأولى من الرسائل الأربع أن الإنسان مخلوق كامل ، غير أن سعادته فى الحاضر تعتمد على جهله بالمستقبل وعلى أمله فى أن يتاح له عالمٌ أكمل وظروفٌ أصلح من العالم القائم والظروف الراهنة ؛ والغرور هو أسّ شقاء الإنسان لأنه يعميه عن حدوده التى يجب أن يقف عندها لا يجاوزها ؛ ويشير الشاعر إلى حماقة الإنسان فى اعتبار نفسه علّة الخلق وفى شكاته من أن الله لم يخلقه كاملا ، ويبيّن تسلسل الكائنات من الأنواع الدنيا إلى الإنسان فالملائكة فالله ، قائلا إنه إذا تحطمت حلقة واحدة فى هذه السلسلة المتدرجة انهار بناء الكون كله ، ومن هنا كان من دلائل الفوضى والخروج على النظام أن يطمح نوع من الكائنات أن يكون أعلى مما خلق له ؛ وأن يتألم مما فرضه عليه الله من واجبات ؛ وهو يختم الرسالة الأولى بهذه الأبيات :

رويدك لا تقُلْ عن نظام الكون إنه نقصٌ ذميم
فنعيمُ الحياة الصحيحُ معتمدٌ على هذا الذى تلوم ؛
اعرف من الكون موضعك : هذا الضربُ وهذا النصيبُ

---

(١) Dunciad . (٢) Essay on Man .

(٣) Loved Bolingbroke .

من العمى والضعف ، إرادةُ الله إياك تُصيبُ ؛

... ...

ما « الطبيعةُ » إلا « فَنٌّ » جهلتَ مداه ؛

ما « الصدفةُ العمياء » إلا « قضاء » ولست تراه ؛

ما « النشاز » إلا « تناغم » لم يُفهم ؛

ما « الشر فى الجزء » إلا « الخير للكون » ولم يُعْلَم !

فرغم الغرور ورغم العقل المخطىء ،

حقٌّ واضحٌ « أن كل ما فى الكون صوابٌ » لم يخطىء

وفى الرسالة الثانية من « مقالة فى الإنسان » يوضّح « پوب » فلسفته ويبحث فى الإنسان باعتباره فردا ، وهنا ينصح الإنسان أن يعرف نفسه — كما أوصى بذلك سقراط منذ قرون — وألا يحاول توجيه بحثه نحو الله ، لأن الدراسة التى يجدر بالبشرية أن تنهض بها هى دراسة الإنسان نفسه ؛ وبعدئذ ينتقل فى الرسالة الثالثة إلى بحث الإنسان باعتباره عضواً فى المجتمع ، ثم يبين فى الرسالة الختامية عناصر السعادة ومقدماتها .

والقصيدة — كسائر شعره — قوية الديباجة رصينة الأسلوب مزدوجة القافية ؛ أما من حيث المعانى ، فقد قال عنها ناقد حديث إنها مضطربة متناقضة صبيانية فى كثير من مواضعها ؛ ومهما يكن من أمر فهى القصيدة التى طارت بشهرته فى أوربا ، إذ ترجمت إلى الألمانية والفرنسية بُعَيْدَ صدورها .

وكان ما أخرجه « پوب » بعد قصيدته « مقالة فى الانسان » مجموعتان من الشعر هما : « هجائيات »[1] و « رسائل »[2] و « مقدمة الهجائيات » قصيدةٌ مشهورة عنوانها « رسالة إلى الدكتور أَرْبَثْنُتْ »[3] ، وترجع أهمية هذه القصيدة التى تتألف من أربعمائة بيت ، إلى أنها نموذج صادق لكل ما يتصف به الشاعر من خصائص ، فضلا عن أنها تنبىء عن كثير من سيرته كأنما هى ترجمة لحياته ؛ وتُعَدُّ الهجائيات — من حيث الألفاظ وجودة النظم — آية الشاعر .

---

(١) Satires .

(٢) Epistles

(٣) Ebistle to Dr. Arbuthnot .

كان فى شخصية « پوپ » كثير من المتناقضات — ولعل تناقض الشخصية من سمات الإنسان — فهو نحيل هزيل عليل لكنه وهب عقلا دائم الحركة دائب النشاط ، لا يهن ولا يفتر ؛ وهو مبتدع مبتكر ، لكنه فى الوقت نفسه يحب أن يهتدى فى أدبه بمن هو أعلى منه موهبةً ونبوغا ؛ وهو عدو قاس عنيف ، ومع ذلك فقد كان له أصدقاء حميمون يحبونه حبا نادراً بين الأصدقاء .

وإن أردت أن تعرف لپوپ فضله على الأدب الإنجليزى فذاك هو ارتفاعُه « بالقافية المزدوجة الحماسية »[1] إلى ذروة الكمال ؛ وقد أضحى هذا الوزن الشعرىّ منذ « پوپ » و« دريدن » خير أداة يستخدمها الشاعر فى الشعر التهذيبى والشعر الهجائى ؛ فلئن كان « پوپ » تلميذاً لسلفه « دريدن » فقد تفوق التلميذ على أستاذه فى إتقان هذه « القافية المزدوجة » تفوقا جعله أستاذاً لها غير مدافع ؛ ومما عُرِفَ به پوپ عنايته الشديدة بصقل شعره ، فكان لا ينى يهذب البيت ويشذب أطرافه هنا وهناك ، حتى يجعل منه بيتاً سليما واضحاً محكما ؛ تراه جالسا فى بيته أو فى حديقته يمحو لفظا ويثبت لفظاً ليبلغ بقصيدته ما أراد لشعره كله من جودة الصقل ومتانة التركيب وإحكام المعنى ؛ ولم يَسْتَهِنْ فى سبيل ذلك شيئاً مهما كان تافهاً لأنه يوقن « أن التوافه تصنع الكمال » ولم يكن يأخذه الملل من تغيير ما كتب وتحويره وإصلاحه وتهذيبه ، حتى ليقال إن كل بيت من نتاجه الفخم كتب مرتين على الأقل ، فلئن كانت شاعريته موضع ريبة من بعض الناقدين ، فحسبه هذه الصناعة التى بلغ بها أوج الكمال .

جيمس تومسن James Thomson (١٧٠٠ — ١٧٤٨) :

لم تمض روحُ الاتّباع التى سادت فى العصر الأوغسطىّ والتى تزعّمها « پوپ » بغير مقاومة ومعارضة ورد فعل ؛ بل بدأ هذا الردّ وتلك المقاومة و« پوپ » لم يزل حياً يقرض الشعر ، إذ اتجه بعض الشعراء إلى الطبيعة يستوحونها ، ثم أخذت الحركة الجديدة تتسع وتزداد حتى بلغت أوجها فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر ؛ وقلّة ضئيلة من الشعراء هى التى تابعت « پوپ » فى اتّباعيته وصناعته ، ولعل ذلك راجع إلى اليأس من

---

(١) شرحنا هذه القافية بالتفصيل فى « دريدن » فراجعه .

مجاراته فى صنعة القريض على مذهبه ، إذ لم يدعْ پوب فى ذلك الفن زيادةً لمستزيد ؛ وكان « چيمس تومْسُنْ » بطلَ الشعر الطبيعى فى عهد الصنعة والاتّباع إبان العصر الأوغسطىّ .

بدت أول بوادر الشعر فى « تومْسُنْ » حين نظم النشيد التاسع عشر من المزامير ، فكان توفيقه فى نظمه أقوى ما أوحى إليه أن ينصرف إلى الأدب ، فقصد إلى لندن حيث التحق بإحدى الأُسَر النبيلة مربِّياً لأبنائها ، وهنالك وجد الفراغ الذى مكّنه أن ينشئ قصيدة « الشتاء » التى نشرها وعمره ستة وعشرون عاما ، والتى عقَّبَ عليها « بالصيف » « فالربيع » « فالخريف » ، وكان من مجموعة هذه القصائد الأربع ديوانه « الفصول » .

من هذا الاتجاه نحو الطبيعة يتبين لك الوجهة الجديدة التى خرج بها تومْسُنْ على پوب ومدرسته ، فقد عصى زعيم الشعر فى القاعدة التى استنَّها للناس وهى « أن ما يجب على الإنسان درسُه هو الإنسان » ؛ وأجال « تومْسُنْ » بصره فى أرجاء الطبيعة التى أحبَّها وهام بها ، فكان الشتاء أول ما ظفر منه بالشعر ؛ يصف لك عاصفة مطيرة عاتية ؛ فالسماء متجهمةٌ اختلط فى أديمها الضباب والمطر ، والسهل مغمور بسيل أدكن طامٍ ، وقمم الجبال وأشجار الغابات اضطربت أمام العين فلا تراها فى وضوح وجلاء ؛ والماشية تدلَّتْ أعناقها وهى تغوص فى السهل كساه الوحل ، والدجاج اجتمع زرافاتٍ فى أركان الحظائرِ فوقف ساكناً لا حراك به تتساقط من ريشه قطرات الماء ؛ لكن ذلك لم يكن كل شىء فى الشتاء ، فهنالك الحراث يمرح وهو يصطلى مدفأته الوهاجة فى بيته الصغير ، يتحدث ويضحك غير عابئٍ بهذه العاصفة التى تقعقع فوق سطح البيت ؛ ثم يخرج بك الشاعر مرة أخرى إلى الطبيعة ليطلعك على الأنهار وقد فاضت بمائها وعلى سيول الماء الدافقة وقد جرفَتْ أمامها كل شىء ، فجسور محطمة وطواحين مهشمة ، وهيهات أن يقف سيلَ الماء شىء ، فهو يصدع السدود ويجتاز جلاميد الصخر فى الطريق . . . ثم يغيِّر الشاعرُ المنظر كأنما تبدل بفعل السحر ، فإذا أنت فى سكون رائقٍ صافٍ أعقب العاصفة ؛ وها هو ذا العصفور الصغير ينقر الزجاج فى نافذة غرفتك ويضرب بصدره الأحمر كِسَفَ الثلج التى جمدت على الزجاج ، فيُسْمِعُكَ حفيفا لطيفاً ، ويراه الأطفال داخل الغرفة فيجتمعون له وراء الزجاج وينظر إليهم الطائر بعينيه الدقيقتين يلوى عنقه ذات اليمين وذات اليسار ؛

لكن هذا السكون لايطول ، فينقلك الشاعر من جديد إلى مراعى الأغنام فى السهل الطليق ، فإذا الشتاء يستجمع قواه فى الهواء الذى أخذ يزداد برداً وظلاما ، والثلج يتساقط ويكثفُ ، فيوجس الراعى خيفة ، لأن الثلج الكثيف قمين أن يخفى عنه معالم الطريق ، فتبدو الأماكن المألوفة غريبةً أمام عينيه ، فالوديان الجوفاء تظهر له مليئةً والمكانُ الجبلىُّ الوعر يتخذ صورة السهل البسيط ؛ وذلك ما حدث للراعى ، فقد غشيت الغاشية ووقف المسكين حائراً ضالا وبدا السهل كله كأنما يدور من حوله إذ أخذت هبَّاتُ الريح تعلو بطبقات من الثلج وتدور بها فى الهواء كأنها تدير ملاءة بيضاء ، وتمت المأساة ومات الراعى ، ويأخذك الشاعر إلى بيته فترى الأطفال تجمعوا عند النافذة أو الباب يرقبون أباهم ، ولكن أباهم لن يؤوب .

وليست كل أيام الشتاء بهذا السواد الحالك ، ففى الشتاء أيام بهيجة صافية لاينساها الشاعر . انظر إلى هذا القروىّ الساذج وهو يمشى فرحا فوق الثلج الجامد كأنه يخطو على أرض من البلور الشفاف !

هكذا تجرى الصور فى قصيدة « الشتاء » وتتعاقب ؛ وحَسْبُك هذا لتعلم كيف انحرف « تومْسُنْ » بالشعر إلى الطبيعة بعد أن كان يحصره « پوب » فى المدينة وآهليها .

وللشاعر غير « الفصول » قصيدة « حصن التراخى »[1] وهى قصيدة رمزية نظمها فى البحر السِّپنْسَرِىّ — ذات المقطوعات التُّسَاعية التى تجرى قوافيها ا — ب — ا — ب — ب — حـ — ب — حـ — حـ على أن يكون البيت فى الثمانية الأولى مركباً من عشرة مقاطع ، والبيت التاسع من البحر الإسكندرى ، أى مركباً من اثنى عشر مقطعا — وقصيدة « حصن التراخى » قسمان ، فى أولهما يصف الشاعر مباهج الحصن ، وفى ثانيهما يسوق ما أبدعه رجال الفن والصناعة .

توماس جراى Thomas Gray (١٧١٦ — ١٧٧١) :

بلغ الشعر فى منتصف القرن الثامن عشر قصاراه على يدى « جراى » الذى كانت له جودة الصقل التى أَلِفْناها فى « پوب » ثم أضاف إليها الاتجاه نحو الطبيعة الذى رأيناه عند

---

(١) The Castle of Indolence .

« تومْسُنْ » والذى سيمهد السبيل إلى الحركة الابتداعية العظمى ممثَّلة فى « وِرْدِزوِرْث » ولد فى لندن ونُشِئَ فى « إيتُنْ » وهى التى أهدى إليها قصيدته « نشيد الذكرى البعيدة لكلية إيتُنْ »[١] ، وبعدئذ ألقى عصاه فى كيمبردج حيث استقر طيلة حياته إلا فترات قصيرة ؛ وكان منذ الصبا الباكر قد أبدى قدرة على الشعر اللاتينى ، فترجم إلى الشعر الإنجليزى طائفة من شعراء اللاتين الصغار ؛ ولما بلغ الثالثة والعشرين قام برحلة فى أنحاء فرنسا وإيطاليا وقد تركت فيه جبال الألپاينْ الإيطالية أعمق الأثر ؛ ومات أبوه فعاد حيث استقر فى كيمبردج سنة ١٧٤٢ ، وهى من أخصب سنيه إنتاجا ، ففيها أخرج « نشيد إلى الربيع »[٢] وهى مقطوعة شعرية (أربع عشرية) قالها رثاء لصديق له ، وأخرج نشيداً وجهه إلى كلية أيتُنْ أسلفنا لك ذكره ، كما أنتج « ترنيمة المحنة »[٣] ثم بدأ فى ذلك العام نفسه ينشئ قصيدته المشهورة التى خلدته فى صفحات الأدب ، وهى « مرثيـة كتبت فى فناء كنيسة »[٤] وبعدئذ لم ينتج الشاعر إلا عدداً قليلا من الأناشيد والقصائد ، أهمها « تقدم الشعر » .

هذا مثال نادر فى تاريخ الأدب ، فانتاجه — كما ترى — ضئيل جداً ، فلم يكد « جراى » يزيد على ثلاثين بيتاً من الشعر فى كل عام ، ومع ذلك له مكانة عالية لا يدانيه فيها إلا أعظم الأدباء ؛ وأبرز ما يطبعه عنايته بالصقل عناية لا تجد لها مثيلا عند أديب آخر ، فهو يكتب القصيدة القصيرة فى عامين كاملين ! ولا يفتأ طوال العامين يراجع ما كتب ويعدل ويبدل ، ومن هنا كانت قصيدته الكبرى « مرثية كتبت فى فناء كنيسة ريفية » درة لامعة برئت من كل النقائص والعيوب ، ولعل هذا الكمال فى « الكيف » هو الذى عوض الشاعر عن النقص فى « الكَمِّ » فسلكه التاريخ بين الخالدين ، وسنقتبس من هذه القصيدة الرائعة المقطوعات التالية خجلين إذ ننقل هذا البناء المحكم والأسلوب الرصين :

ربما يرقد فى هذا المكان المغمور
قلبٌ كان يوما يعمره قبسٌ سماوى

---

(١) Ode on a Distant Prospect of Eton College .
(٢) Ode to Spring .
(٣) Hymn to Advevsity .
(٤) Elegy Written in a Centry Churchyard .

ويدان كانتا تحملان صولجان الملك
أو توقظان إلى نشوةٍ قيثارة شجية

لكن العرفان لم ينشر أمام أبصارهم صحائفه المترعة
المليئة بما خلَّفته الدهور من آثار
وألجم الفقرُ المدقعُ فيهم غضبةً شريفةً
وجَمَّدَ فى أنفسهم تيار النبوغ

كم من لؤلؤة وضَّاءة أنقى ما تكون شعاعا
تحملها كهوفُ البحر المدلهمَّةُ البعيدة الأغوار
وكم من زهرة نبتت ليحمرَّ وجهها خِفْيةً
فيذهب عنها الشذا فى ريح البوادى مبددا

ربما يرقد « هامْدِنْ »(١) ريفىٌّ ذو قلب جرئ
قاوم الطاغية الصغير فى مزارعه
أو ربما يرقد « ملتنْ » صامت فى غير مجد
أو « كُرُمْوِل » لم تدنس يديه دماء مواطنيه

وليم كوبر William Cowper (١٧٣١ — ١٨٠٠) :

هو سليل أسرة كريمة خلقه الله مرهف الحس حييًّا ، وقد عانى من حياته وحسه المرهف ماعانى أيام كان يطلب العلم فى مدرسة داخلية فيحرجه صغار الشياطين من زملاء الدراسة ويوغرون صدره حتى يضيق بحياته ذرعاً ؛ وبَدَتْ له قدرة بارعة وهو طالب فى نظم الشعر اللاتينى ؛ وخرج من معاهد العلم ولم يكد يخوض خضمَّ الحياة حتى مات أبوه ، وتعاورته بعد ذلك حالات نفسية غريبة ، مازالت تزداد خطراً حتى أصبحت مرضاً نفسيا

---

(١) Humpden صاحب ثورة مشهورة فى تاريخ انجلترا ؛ والمعنى أنه وبما رقد فى هذه القبور الريفية من لا يقل موهبة عن هؤلاء جميعا لكنهم لم يجدوا فرصة الظهور .

عضالا دفعه مرة أن يزهق روحه بيده ؛ ويظهر أن قد نشأت علته من العزلة والبطالة واليأس ؛ وعُهِدَ به إلى مصحة خاصة ردَّتْ إليه العافية بعد قليل ، لكنه فقد عملا كان يرتزق منه وبدَّد ما كان معه من مال مُدَّخر ، فامتدت إليه أيادى الإحسان من أصدقائه وذوى قرباه ، وانتظم له دَخْلٌ ضئيل ركن إليه وأوى إلى مكان هادىء فى الريف .

وكانت الحركة الإصلاحية فى الدين ، التى قام بها « وِزْلِى »[1] قد أثّرت فى كوپر تأثيراً أوشك أن يكون ثورة وانقلابا ، فحمله على شىء من التصوف الهادىء الذى يبعث الطمأنينة فى النفس القلقة الحيرى ؛ وسرعان ما وَحَّدَتْ وجهة النظر المشتركة بينه وبين رجل من رجال الدين فى عيشة واحدة ومسكن واحد ، هو « وليم أَنْوِنْ »[2] لكن « أنْوِنْ » فاجأته المنية ، فارتحلت أسرته واستصحبت كوپر ، وهنا عاود شاعرنا هوسه المرضىُّ وتجهمت نفسه من جديد وحاول الانتحار للمرة الثانية ؛ ثم تعهده الأطباء واسترد العافية ؛ وأشفقت عليه زوجة أنْوِنْ من الفراغ فاستحثته أن ينشىء سلسلة من القصائد هى التى تعرف الآن باسم « حديث المائدة »[3] وعندئذ توثقت صلة الود بينه وبين صديقة أخرى هى « ليدى أوسْتِنْ »[4] أرملة نبيل ، فكانت هذه السيدة مصدر وحى قوى لشعره ، من ذلك أنها قصَّتْ عليه ذات ليلة قصة « چون جِلْپِنْ »[5] فحولها كوپر فى الصباح التالى « حكايه منظومة » .

وأوحت إليه الصديقة الجديدة بموضوع لقصيدة جديدة هى أطول قصائده ، أطلق عليها أول الأمر « الأريكة » ثم بدَّل عنوانها فجعله « الواجب »[6] ليشير بذلك إلى أنه واجب أدّاه تبعاً لأمر صديقته ؛ وفى هذه القصيدة الجديدة عثر الشاعر على ميدانه الذى خلق له ، فان كان الله قد وهب « پوب » قدرة بارعة فى تصوير الحياة فى الحضر المتأنق فقد كُتِبَ لكوپر أن يصور الحياة فى الريف الساذج ؛ ولم تكد قصيدة « الواجب » تجد سبيلها إلى النشر حتى جاء فى إثره الصوت البعيد والشهرة الواسعة ؛ وبعد ذلك نشر « ترجمة لهومر » فى شعر مرسل ، لكن الترجمة لم تصادف قبولا حسناً على الرغم من أنها

---

(١) Wesley .
(٢) William Unwin .
(٣) Table Talk .
(٤) Lady Austesn .
(٥) John Gilpin .
(٦) The Task .

لا تخلو من الإجادة فى بعض المواضع ؛ ولم تمض أيام حتى نشأت خصومة بينه و بين صديقته « ليدى أوستن » فتركته ، وشهد نفسُ العام موت صديقته الأولى زوجة « أَنْوِنْ » وهى التى توجه إليها الشاعر أثناء مرضها بقصيدته المشهورة « إلى مارى » ؛ ولم ينتج الشاعر بعد ذاك قصائد طوالاً . وكل ما أنشأه فى أخريات أعوامه مجموعة من القصائد القصار مثل « فَقْد رويال جورج »[1] و « اسكندر سِلْكِيرْك »[2] ، وعلى هذه القصائد القصيرة الأخيرة ترتكز شهرته اليوم .

وقصيدة « الواجب » هى أروع آثار الشاعر ، وهى شعر مرسل ومقسمة ستة أجزاء : « الأريكة » و « الساعة » و « الحديقة » و « المساء فى الشتاء » و « مشية الصبح فى الشتاء » و « مَشْيَةُ الظهر فى الشتاء » ؛ وستعرض عليك موجزاً لأحد هذه الأقسام نموذجا لبقيتها ، وليكن ذلك « مَشْيَةُ الصبح فى الشتاء » .

يستهله الشاعر بهذه الأبيات :

إنه الصبح ؛ والشمس فى فلكها الوردىِّ
صاعدة ، فأشعلت الأفق بنارها ؛ والسحابُ
— الذى يفرُّ فى جموعٍ أمام الرياح الطاردة —
يزداد إسراعا كلما ازداد قرص الشمس صعوداً ،
فما أشدَّ ما يشبه مدينةً اندلع لهيبها
ننظر إليها خلال غابةٍ تعرَّت أوراقُها ؛ وشعاعُ الشمس
ينحدر فى غير أثر إلى جوف الوادى كَسَتْه الثلوج ،
ملوِّنا بصبغته الوردية كلَّ شىء
من العُشْبَةِ إلى النَّبْتَةِ اللولبية

ثم يمضى الشاعر فيصف ما يصادفه فى « مشية الصبح » — يصف الماشية كاسفةً فى أركان الحقول والحظائر ، والحطَّاب يُسْرِع الخُطَى ، والدجاج يختال إلى طعامه ، وآثار الثلج والجليد على المياه الساقطة ، وما ينتج عن ذلك من أشكال جميلة ورشاش يستوقف

---

(١) The Loss of the Royal George (رويال چورج اسم سفينة أغرقت) .

(٢) Alexander Selkirk هو الذى انقطع فى جزيرة موحشة فأوحى إلى « دفو » روبنسن كروزو

النظر ؛ فيدعوه هذا إلى حكاية قصر من الثلج شيدته أميرةٌ ، ثم يستدعى ذلك إلى ذهنه الحروبَ ونشأتها ونموَّ الملكية وما يترتب عليها من شر ؛ ثم يقارن بين ولاء الشعب لمليكه فى فرنسا وفى إنجلترا ، ويعرج على الكلام فى الحرية فيوجِّه إليها خطاباً غاية فى البلاغة ؛ ويذكر استبداد الحكم المطلق فى فرنسا فيستنكره ، ويتجه بخطابه إلى سجن الباستيل فيتمنى الأمانى التى لم تلبث أن حققتها الأيام ، ويمتدح الحرية السياسية والاجتماعية التى تتمتع بها إنجلترا وتكوِّن فخارها ومجدها ، ثم يذكر الحرية الروحية فى الدين فيثنى عليها ويعدها الخير الأسمى .

لم يكن « كوپر » من أعظم الشعراء الإنجليز ، لكنه يمثل بشعره خير تمثيل تطور العناصر الجديدة التى دخلت على الشعر ، وهى العناصر التى انتهت فى فرنسا بالثورة الفرنسية ، وفى إنجلترا بثورة أدبية نهض بها « وردزورث » ، ونعنى بها عناصر الحرية وتحطيم القيود .

أولفر جولدسمث :

قدمناه إليك ناثراً ، وها نحن أولاء نعرضه أمامك شاعراً ، وإنما حشر جولدسمث بين الشعراء لقصيدتين مشهورتين هما « الرحالة »[1] و « القرية المهجورة »[2] .

أما « الرحالة » فقصيدة تهذيبية يقصد بها الشاعر إلى تلقين مبادئه ، تلمس فيها الروح الجديدة التى دخلت الشعر منذ منتصف القرن الثامن عشر ، إذ تراه يصف المناظر الطبيعية وصفاً صادقا ، وهو فى هذه القصيدة وفى « القرية المهجورة » أيضا ينفر من عناصر المدنية الدخيلة على الإنسان ، ويتمنى أن تعود الحياة إلى أحضان الريف ورحاب الطبيعة .

إن الطبيعة لاتنى — وهى للناس جميعا أم رءوم —
تعطى خيراتها إن دعا داعٍ بجدِّ العمل .
تُطْعِم بالقوت الزارعَ . . . أينما كان ؛
ولئن تجهمت قممُ الجبال التى تتوِّجُها الصخور

---

(١) The Traveller . (٢) The Deserted Village.

فتلك الصخورُ — بحكم العادة — انقلبتْ فراشاً وثيرا ؛
وللصناعة أَنْعُمٌ — بالقياس إلى الطبيعة — كثيرة مختلفات ،
فثروةٌ ، وتجارةٌ ، وكرامةٌ ، وحريةٌ ، ورضىً ،
لكن هذه يقاتلُ بعضُها بعضا أحرّ قتال ،
فكأنما كلٌّ لكلٍّ فاتكٌ هدام ؛
فحيثما سادت الحرية والثراء ، ضاع الرضى ؛
وغاضت الكرامةُ إذا امتدّ بازدهار التجارة الأمدُ ؛

فهو لهذا يؤثر خيرات الطبيعة على أَنْعُمِ الحضارة الصناعية ؛ وفى « القرية المهجورة » كذلك يستدر إشفاق القارئ على قرية هجرها أهلوها وقصدوا إلى المدينة ليعملوا فى صناعتها ، وعجيب أن يؤثر الإنسان المدينة على الريف ، والريف من صنع الله والمدينة من صناعة الإنسان ! هو فى هذه القصيدة يصور لك القرية وهى عامرة بأهلها ثم يصورها وقد خَلَّفها أبناؤها ؛ وفى القصيدة كذلك شخصيات أبدعت ريشة الشاعر تصويرها ، منها واعظ القرية ومنها معلم القرية :

هنالك إلى جوار السياج المتعرج الذى يَحُدُّ الطريق
بأشجار من الرَّتَم الزاهر البهيج بلا ثمر ؛
هنالك — فى بيته اللجِبِ — على بَسْطِ النفوذ قد مَهَرْ ،
كان معلم القرية فى مدرسته الصغيرة يعلم صغاره ؛
إنه رجل عنيفٌ ، عبوسٌ فى مرأى النظر ،
عركْتُه فعرفتُه ، كما كلُّ طفلٍ شرودٍ قد عرف ؛
والراجفون من الصغار قد مرنوا أن يتنبأوا
من وجهه عند الصبح أىُّ خطر خلال اليوم يُنْتَظر ،
وفى مرح زائفٍ يتصنَّعون لقوله الضحكاتِ
إن قال نكاتٍ ، وما أكثر ما كان له من نكاتِ
وسرعان ما ترى كل جار لجاره قد همَسْ

لينشروا أنباء المصيبة بينهم إن عَبَسْ ؛
لـكنه كان — رغم هذا — ذا قلبٍ رحيم ، فإنْ قسا
كان حبُّه للعلم إلى قسوته حافزا ؛
لم يَخْفَ عن كل أهل القرية علمهُ الغزيرُ
فهو على الـكتابة — لا شك — قادر ، وعلى الحساب كذلك قدير ؛
يقيس الأراضى ، وينبىء بالفصول ومدِّ البحار وجزرها
بل أشاعَ عنه الناس علماً بالمكاييل ومعيارها ؛
وكان كذلك يُبْدى فى النِّقاش مهارته
تراه فى الجدال هزيماً ، لـكنه ماضٍ يواصل حُجَّتَه ؛
ينطق باللفظ الطويل العميق الأجزل الرنان
فيدهش الحضور السذج الرامقيه بنظرة الحيران ؛
وما ينفكّون فى دَهَشٍ ، تزداد حيرتُهم وتعظم
أن يحمل رأسٌ واحدٌ صغيرٌ كلَّ هذا الذى يعلَم

روبرت بيرنز Robert Burns (١٧٥٩ — ١٧٩٦) :

لن نجد خيرا من هذا الشاعر مثالا نسوقه لما طرأ على الشعر الانجليزى من تغير بين أول القرن — فى پوپ — وآخره — فى الحركة الابتداعية التى تتجه إلى الطبيعة بأنظارها ؛ وهو — بعدُ — شاعر اسكتلندىٌّ أعظمُ من أنجبتهم اسكتلندة فى تاريخها من العشراء ؛ ولد فى مكان قريب من « أَيَرْ »[1] حيث كان أبوه يعمل عند صاحب ضيعة صغيرة بستانيًّا ومشرفا على ضيعته ؛ ولما بلغ الوليد سابعته ، استأجر أبوه مزرعة وانتقل إليها بصحبة أسرته ، فكانت حياتهم عندئذ — كما وصفها بيرنز فيما بعد — « حياة راهب مكتئب ، لايعرف المرح ، يملؤها عمل شاق متصل ، كأنهم العبيد الأرقاء » ؛ وتعلّم الصبىُّ كما يتعلم سائر الصبيان فى القرى ؛ لـكن والديه كانا مشغوفين بالقراءة فجرى الابنُ على غرار الأبوين ، وواصل القراءة فى غير انقطاع ، لايدّخر لحظة واحدة من فراغه إلا أنفقها

(١) Ayr .

يطالع فى الكتب — ولم تكن لحظات الفراغ طويلة مواتية — فالتقى فى مطالعته بخيرة الأدباء الإنجليز من شعراء وناثرين ؛ ثم لم يَكْفِهِ هذا مع ما كان يبذله فى المزرعة من جهود مضنية تبدأ عند الشروق ، ولا تنتهى إلا مع المساء ، بل استطاع كذلك أن يتعلم الفرنسية وقليلا من اللاتينية وبعض الرياضة ؛ ومات أبوه فانتقل شاعرنا مع أخيه إلى مزرعة أخرى ، وكان إذ ذاك فى عامه السادس والعشرين ، فأنفق أربعة أعوام أخرى فى عمل متصل بمزرعته الجديدة ، لكن المزرعة لم تغلّ شيئاً يقيم الأود ؛ وفى هذه السنوات التى أَضْنَتْهُ بمجهودها أخذت تنضج شاعريته وتتفتح ، فقد كان أنشد قبل ذاك أغانىّ غرامية وأناشيد . أما اليوم فقد اسْتَنْبَطَتْ ظروف حياته نبوغه الدفين ، وأخرجت كل ما تنطوى عليه نفسه من قوة فى الهجاء لا يجاريه فى مضمارها قرين ؛ وازدهر أمام عينيه الأمل فى أن يكون شاعر العصر فى أمته جميعاً .

كانت روح الثورة تملأ الآفاق فى أرجاء أوربا جميعاً ، فتشرب الشاعر تلك الروح الثائرة ، وجاء شعره متأججاً بالثورة على الأوضاع العتيقة القائمة ؛ واشتد به العنفُ أحيانا حتى جاوز به حدود الرصانة العقلية وأدب السلوك مما دعا الكنيسة أن تضعه موضع اللوم والتأنيب ؛ وكانت اسكتلندة تضطرب إذ ذاك بانشقاق دينى قامت فيه الخصومة بين حزبين ، أطلق على أحدهما حزب «الأضواء الجديدة» وأطلق على الآخر حزب «الأضواء القديمة» ؛ فأما الحزب الأول فيأخذ بالأفكار الجديدة الحرة ، وبضرورة التخفيف من قواعد الكنيسة الكلفنية السائدة فى اسكتلندة ، ومع هذا الفريق المجدد وقف «بيرنز» وكتب سلسلة من القصائد الهجائية اللاذعة يهاجم بها مساوئ الكنيسة ونفاق القائمين عليها مهاجمة لم يعرف فيها هوادة ولا رحمة ، فكانت قصائده تلك بمثابة السِّياط أثقلت أطرافها بالرصاص ، وأخذ يهوى بها على جلودهم يمزقها شر ممزق ، وأشهر هجائياته «السوق المقدسة»[1] و «دعوات (ويلى) المتديّن»[2] و «خطابٌ لذى الخلق القويم الصارم»[3] ؛ وقد أراد بتلك القصائد الهجائية أن يطهر الكنيسة من أدرانها ؛ وأن ينزع عن رجال الدين مسوح النفاق التى لم يرتدوها إلا ليخفوا نفاقهم تحت سترها ، ولكنه فى الحق

---

(١) The Hoiy Fair . (٢) Holy Willie's Prayer .

(٣) Address to tne Rigidly Riligeoves .

لينشروا أنباء المصيبة بينهم إن عَبَسْ ؛
لـكنه كان — رغم هذا — ذا قلبٍ رحيم ، فإنْ قسا
كان حبُّه للعلم إلى قسوته حافزا ؛
لم يَخْفَ عن كل أهل القرية علمهُ الغزيرُ
فهو على الـكتابة — لا شك — قادر ، وعلى الحساب كذلك قدير ؛
يقيس الأراضى ، وينبىء بالفصول ومدِّ البحار وجزرها
بل أشاعَ عنه الناس علماً بالمكاييل ومعيارها ؛
وكان كذلك يُبْدى فى النِّقاش مهارته
تراه فى الجدال هزيماً ، لـكنه ماضٍ يواصل حُجَّتَه ؛
ينطق باللفظ الطويل العميق الأجزل الرنان
فيدهش الحضور السذج الرامقيه بنظرة الحيران ؛
وما ينفكّون فى دَهَشٍ ، تزداد حيرتُهم وتعظم
أن يحمل رأسٌ واحدٌ صغيرٌ كلَّ هذا الذى يعلَم

روبرت بيرنز Robert Burns (١٧٥٩ — ١٧٩٦) :

لن نجد خيرا من هذا الشاعر مثالا نسوقه لما طرأ على الشعر الانجليزى من تغير بين أول القرن — فى پوپ — وآخره — فى الحركة الابتداعية التى تتجه إلى الطبيعة بأنظارها ؛ وهو — بعدُ — شاعر اسكتلندىٌّ أعظمُ من أنجبتهم اسكتلندة فى تاريخها من العشراء ؛ ولد فى مكان قريب من « أَيَرْ »(١) حيث كان أبوه يعمل عند صاحب ضيعة صغيرة بستانيًّا ومشرفا على ضيعته ؛ ولما بلغ الوليد سابعته ، استأجر أبوه مزرعة وانتقل إليها بصحبة أسرته ، فـكانت حياتهم عندئذ — كما وصفها بيرنز فيما بعد — « حياة راهب مكتئب ، لايعرف المرح ، يملؤها عمل شاق متصل ، كأنهم العبيد الأرقاء » ؛ وتعلّم الصبىُّ كما يتعلم سائر الصبيان فى القرى ؛ لـكن والديه كانا مشغوفين بالقراءة فجرى الابنُ على غرار الأبوين ، وواصل القراءة فى غير انقطاع ، لايدّخر لحظة واحدة من فراغه إلا أنفقها

(١) Ayr .

يطالع فى الكتب — ولم تكن لحظات الفراغ طويلة مواتية — فالتقى فى مطالعته بخيرة الأدباء الإنجليز من شعراء وناثرين ؛ ثم لم يَكْفِهِ هذا مع ما كان يبذله فى المزرعة من جهود مضنية تبدأ عند الشروق ، ولا تنتهى إلا مع المساء ، بل استطاع كذلك أن يتعلم الفرنسية وقليلا من اللاتينية وبعض الرياضة ؛ ومات أبوه فانتقل شاعرنا مع أخيه إلى مزرعة أخرى ، وكان إذ ذاك فى عامه السادس والعشرين ، فأنفق أربعة أعوام أخرى فى عمل متصل بمزرعته الجديدة ، لكن المزرعة لم تغلّ شيئاً يقيم الأود ؛ وفى هذه السنوات التى أَضْنَتْهُ بمجهودها أخذت تنضج شاعريته وتتفتح ، فقد كان أنشد قبل ذاك أغانىّ غرامية وأناشيد . أما اليوم فقد اسْتَنْبَطَتْ ظروف حياته نبوغه الدفين ، وأخرجت كل ما تنطوى عليه نفسه من قوة فى الهجاء لا يجاريه فى مضمارها قرين ؛ وازدهر أمام عينيه الأمل فى أن يكون شاعر العصر فى أمته جميعاً .

كانت روح الثورة تملأ الآفاق فى أرجاء أوربا جميعاً ، فتشرب الشاعر تلك الروح الثائرة ، وجاء شعره متأججاً بالثورة على الأوضاع العتيقة القائمة ؛ واشتد به العنفُ أحيانا حتى جاوز به حدود الرصانة العقلية وأدب السلوك مما دعا الكنيسة أن تضعه موضع اللوم والتأنيب ؛ وكانت اسكتلندة تضطرب إذ ذاك بانشقاق دينى قامت فيه الخصومة بين حزبين ، أطلق على أحدهما حزب «الأضواء الجديدة» وأطلق على الآخر حزب «الأضواء القديمة» ؛ فأما الحزب الأول فيأخذ بالأفكار الجديدة الحرة ، وبضرورة التخفيف من قواعد الكنيسة الكلفنية السائدة فى اسكتلندة ، ومع هذا الفريق المجدد وقف «بيرنز» وكتب سلسلة من القصائد الهجائية اللاذعة يهاجم بها مساوئ الكنيسة ونفاق القائمين عليها مهاجمة لم يعرف فيها هوادة ولا رحمة ، فكانت قصائده تلك بمثابة السِّياط أثقلت أطرافها بالرصاص ، وأخذ يهوى بها على جلودهم يمزقها شر ممزق ، وأشهر هجائياته «السوق المقدسة»[1] و «دعوات (ويلى) المتدين»[2] و «خطابٌ لذى الخلق القويم الصارم»[3] ؛ وقد أراد بتلك القصائد الهجائية أن يطهر الكنيسة من أدرانها ؛ وأن ينزع عن رجال الدين مسوح النفاق التى لم يرتدوها إلا ليخفوا نفاقهم تحت سترها ، ولكنه فى الحق

---

(١) The Hoiy Fair .

(٢) Holy Willie's Prayer .

(٣) Address to tne Rigidly Riligeoves .

قد جاوز فى هجائه حدود اللياقة وحُسْنُ الخطاب ؛ وأنشد فى الوقت نفسه قصيدة عنوانها « مساء السبت عند ساكن البيت الصغير »[١] عرض فيها صورة جميلة للعقيدة الدينية السليمة فى بيت زارع متواضع فقير ، وكان الشاعر أخصب ما يكون إنتاجاً بين عامَيْه الخامس والعشرين والسابع والعشرين ، ففى هذه الفترة أنتج هذه القصائد وغيرها .

ونشر الشاعر قصائده ، لكن صعاب الحياة أحاطت به فلم يصبر على المقام فى أرض الوطن ، واعتزم الرحيل إلى « چامايكا » واحتجز مكانه فى السفينة ، لولا أن السفينة لم تقلع فى الموعد المضروب ، فاستطاع بعض رفاقه أن يحملوه على البقاء ، وشجعه على ذلك ما لقى ديوانه من نجاح ؛ فظل يطوف باسكتلندة و يقضى الشهور فى أدنبرة ، ثم عاد فاستأجر مزرعة وتزوج من فتاة أحبها ، ثم عين فى منصب متواضع فترك المزرعة ، وعندئذ أنشد بعض الأغانى ، ونظم إحدى قصائده الجياد وهى « تام أوشانْتَرْ »[٢] وأخذت قصائده الغنائية تترى حتى كون منها مجموعة هى أشجى ما يعرفه الأدب الانجليزى من قصائد الغناء .

عندئذ هم أديب اسكتلندىّ بنشر مجموعة من الأغانى الاسكتلندية أطلق عليها « المتحف الموسيقى » فساهم « بيرنز » فى هذه المجموعة بأربع وثمانين ومائة قصيدة معظمها جديد مبتكر ؛ واضطلع آخر بعد ذلك بقليل بنشر مختارات من الشعر الاسكتلندى كذلك ، فساهم شاعرنا فى تلك المختارات بستين أغنية ، وكانت مساهمته فى كلتا الحالتين بغير أجر ، وفى ذلك قال حين أرسل قصائده : « أما عن الأجر فلك أن تعد قصائدى فوق أن تؤجر أو دون أن تؤجر ، لأنها ستكون بغير شك إما هذه وإما تلك » فلا عجب أن عاش « بيرنز » فى فقر شديد ، فقد كانت قصائده غالية القدر عظيمة الثمن ، ولو أراد بها الربح لكفا نفسه مؤونة العناء المادى الذى لاحقه طيلة حياته .

كان هذا الأديب القوى النابغ ثائر النفس — كما أسلفنا — فلم يتوان فى إعلان عطفه على الثورة الفرنسية ، حتى لقد أرسل إلى « حكومة الإدارة » فى فرنسا بأربعة مدافع بحرية ومعها خطاب يفيض بالعطف والتأييد ، لكن المدافع لم يؤذن لها بالخروج من دوفر وورطه هذا الحماس الأحمق فى مشكلات مع أولى الأمر ، ومع ذلك فقد كان « بيرنز »

---

(١) The Cottar's Saturday Ligbt .

(٢) Tam O'shanter .

وطنيا يلتهب بالشعور القومى ، حرك الأمة كلها بقصائده الوطنية ومس بسحره صميم فؤادها، ولما هدد نابليون البلاد بالغزو ، نظم نشيدا يتغنى به المتطوعون — وكان واحدا منهم — فجرت به ألسنة القوم من أقصى البلاد إلى أقصاها .

لم يكن « بيرنز » مكثارا فى شعره ؛ ولكن قليله كثير غزير إذا قسته بهذه الظروف التى نشأ فيها ، وهذا الصراع العنيف المضنى الذى لم ينقطع طول حياته يوما فى سبيل القوت ، بحيث لم تمكنه الحياة من الانصراف إلى القريض فى أمن ودعة ؛ ومن هنا استحال عليه أن يكتب القصائد الطوال لأنه إذا ما أمسك القلم أسرعت ضرورات الحياة فاضطرته للعمل ، فجاء شعره نفحاتٍ خاطفة ولمعاتٍ سريعةً بارقة تستثيرها أعراض الحياة العابرة فى نفسه الشاعرة ؛ ولما كان زارعا يفلح الأرض بيديه كان أصدق من يعبر عن خواطر الزارعين من أهل بلاده ، يخفف من عنائهم بحلو فكاهته ، ويفيض عليهم عطفاً لأنه واحد منهم ؛ وما نظن أن حياة الفقير وجدت من يصوّرها فى وضوح وقوة كما صورها « بيرنز » فى قصيدة « مساء السبت عند ساكن البيت الصغير » وهو فيها إنما يصور حياة أبيه وأسرته :

فما إن فرغوا من عشاء بهيج ، حتى نهضوا بوجه واجم ؛
والتفّوا فى حلقة كبيرة حول دفء النار
وتناول ربُّ الأسرة فى وقار الوالد الحازم
إنجيلا ضخما كان عند أبيه موضع اعتزاز وافتخار ؛
ونحّى عن رأسه القبعة فى إجلال و إكبار ،
وبدا عارضاه الأشْيَبان فى نحول الذابل ؛
ومن أسطرٍ سَرَتْ يوماً على « صهيون » فى حلاوة الأوتار
انتقى جزءاً فى عناية البصير الأمثل
ثم صاح « هيا نعبد الله » فى لهجة الوقور الأكمل

وفى قصيدة « الكلْبَيْنِ »(١) — قيصر ولُواث ، فهكذا يسميهما — يقارن بين الغنى والفقير أيهما أسعد ، وهو موضوع طالما تناوله الأدباء ، لكن جدته لا تبلى لأنه

(١) The Two Dogs .

يمس النفس الأنسانية من قريب ؛ وهو يدير الحوار فيها بين الكلبين فى قوة و براعة واتزان ، وإن لم يكن إلى جانب الفقير أميل ، يقول « لُوَاثْ » :

هلاَّ أنبأتنى ، سيدى قيصر ،
إن كانت حياة الأغنياء سعادةً خالصة ؟
فلا ينال منهم بردٌ ولا جوعٌ ؟

فيجيب كلب الغنىّ :

لو أقَمْتَ ، سيدى ، ساعةً حيث أقيمْ
ما غَبَطْتَ السادة الأغنياء على نعيمْ
نعم هم لا يتضورون من جوع ولا يُجْهَدُون
إن قرَّ الشتاء ببرده أو اشتدَّ قيظ الصيف ،
وليس يبرى عظامهم عمل منهك شاق
ولا هم يعرفون فى الشيخوخة العلل والآلام
لكن بنى الإنسان أفْدَامٌ وحمقى . . . .
فإذا لم يكن ثمة ما يضيقون به من المتاعب والصعاب
عمدوا إلى خلق ما يعكِّر صفوهم من حمق ومن غباء

وأعظم ما ورَّثه « بيرنز » للأدب الإنجليزى من ثراء هو أغانيه ، فهو منشد القصائد الغنائية الذى لا يدنو منه شاعر آخر فى ذلك الأدب ، فكأنما كانت روحه معينا تنبثق منه الأنغام انبثاقا متداركا متلاحقا ؛ وهو عجيب فى سرعة تفجر ينبوع الشعر فى نفسه كلما عرض لقول الشعر عارض ، تراه فى مثل لمح البصر يلقف المعانى الشاردة ويسوقها فى عبارة يُحْسِنُ اختيار ألفاظها بحيث يستحيل أن تبدل بلفظه لفظا آخر خيراً منه ، فهو يختار الألفاظ التى تفتن الآذان بسحر أنغامها وهو وإن يكن قوميا فى أغانيه إلا أنه يمسّ بها العواطف الإنسانية العامة بين البشر ، فهو — مثلا — فى أغنيته « قبلةٌ حارةٌ » يعبر — كما قيل — « عن أبجدية الشعور ، وهو يضمنها جوهر هذا الوجود الذى تتجاور فيه اللذة والألم ، فيخرج ذلك الجوهر فى قطرة واحدة محترقة » وهذه الأسطر الأربعة ختام الأغنية :

لو لم نُحِبَّ بكل قلبيْنا
لو لم يُعْم الحبُّ عينيْنا
لو كنا أبداً لم نلتق — أو كنا أبداً لم نفترق
لما أحسسنا قط بهذا القلب المحترق

(ح) المسرح :

ذهب القرن السابع عشر فذهبت معه المأساةُ بموت « دريدن » ، والملهاةُ الفطنة الفكهة بعد « كونجريف » ، ولبثتا فى ركود حيناً طويلا من الدهر ، إذ لم تجدا فى القرن الثامن عشر إلا قليلا من النوابغ يسعفونهما

فالنظارة الذين أيدوا المسرحية فى عصر عودة الملكية (النصف الثانى من القرن السابع عشر) كانوا من رجال القصر وطبقة النبلاء وعلى رأس هؤلاء وأولئك الملك نفسه ؛ ولما جاء القرن الثامن عشر ذهب عن المسرح تأييد القصر ، فلم يكن وليم الثالث ولا الملكة آن من روّاده ؛ ثم اتسعت الهوة بين القصر والمسرح حين تولى مُلْك البلاد چورچ الأول الذى لم يكن يفهم الإنجليزية ، وتلاه چورج الثانى الذى كانت إنجليزيته مصبوغة بصبغة ألمانية — فلم يعد المسرح أملٌ فى تلك الطبقات الرفيعة ؛ وإن لم يوفق إلى اجتذاب الطبقتين الوسطى والدنيا إليه فلا رجاء له فى حياة أو بقاء ، لكن الطبقة الوسطى أخذت تعود إلى المسرح رويداً رويداً وذلك بفضل ما طرأ على المسرحية نفسها من تطور وتغير فى وجهة النظر ؛ ففى عصر عودة الملكية ، كان تفكُّه الملهاة كله يدور حول أخلاق تلك الطبقة الوسطى ليضحك النبلاء والسادةُ ، وكان من الطبيعى أن ينفر أبناء تلك الطبقة من المسرح فلا يختلفون إليه ، فلما تبدل أساس الملهاة فى القرن الثامن عشر ، وقام على أساس خلقى يرضى عنه الناس من تلك الطبقة ، أقبلوا على التمثيل يشاهدونه ويستمتعون به ، وتسمى هذه الملهاة الجديدة « بالملهاة العاطفية »[1] والأساس فيها عرض مشكلات الأسرة التى تنشأ كل يوم ، فليست ترمى إلى مجرد الهزل والإضحاك ، إنما تريد

---

(١) Sentimental Comedy .

التقويم الخلقى وإصلاح السلوك المعوجّ ، حتى لينفر النظارة من كل منظر أو حديث فيه خروج عن حدود العفة اللفظية والاحتشام فى السلوك ، والملهاة من هذا النوع قد تستدر الدمع أكثر مما تستدر الضحك[١] .

وأشهر من نذكره من كتاب الملهاة فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر «رتشرد كمبرلاند»[٢] (١٧٣٢ — ١٨١١) الذى كتب ما يربى على ثلاثين مسرحية — بعضها مآس — وأشهر ملاهيه «رجل من أهل الهند الغربية» وتتمثل فيها النزعة العاطفية التى أسلفنا عنها الحديث ، كما تظهر فيها الغاية الخلقية وملخصها أن رجلا من جزائر الهند الغربية يدعى «بِلْكُورْ» يشتغل بالتجارة وأَثْرى عن طريقها ، تبنى طفلا أطلق عليه اسم «بِلْكُورْ» أيضا ، وجعله وارثا له بعد موته ؛ وورث الفتى ثروة مُتَبَنِّيه ورحل إلى انجلترا ، فسرعان ما أحب فتاة للنظرة الأولى هى «لويزا دَدْلى» رآها بين حشد من الناس فى متجر ، وتعقبها فى الطريق لكنه فقدها فى الزحام ، وخيل إليه أنها دخلت منزلا معينا ، فطرقه وصادف فيه زوجيْن يميلان إلى الشر ، وتصادف أن والد فتاته لويزا يساكنهما فى نفس الدار ؛ ولمح هؤلاء فى الأجنبى الغريب سذاجة وكرما ، فعرفوا أنهم وقعوا فيه على مورد للكسب ؛ ووعدوه أن يقدموا إليه فتاته المنشودة ، بعد أن أفهموه أنها تخدم شابا يدعى «دَدْلى» تدّعى أنه أخوها (والحقيقة أنه أخوها) وفى ضوء هذا التضليل حاول «بلكور» أن يغازل الفتاة ، وأدى ذلك إلى مبارزة بين الأخ والحبيب ، وعلم «بلكور» أن «دَدْلى» هو أخٌ لفتاته فاعتذر عن خطئه وغُفِر له ؛ وسارت الأمور كلها فى طريق الخير ، فورث «دَدْلى» ضيعةً كان أُوصِىَ له بها وأَخْفَتْ خالتُه الوصية لتحول دون إتمام الإرث ، لكنها فشلت وانتهت الضيعة إليه ، وقبلت لويزا أن تتزوج من بلكور ، وأخيرا ظهر رجل كان يتابع بلكور عن كثب منذ وصوله إلى انجلترا ، وكشف عن نفسه وإذا به والد بلكور وتنتهى الرواية والأشياء كلها فى وضعها المستقيم .

ثم جاء «جولدسمث» — وقد أسلفنا عنه الحديث ناثرا وشاعرا — فرأى

---

(١) لاحظ الشبه بين الملهاة العاطفية والملهاة الباكية التى شاعت فى فرنسا فى نفس الوقت .

(٢) Richard Cumberland .

تكلفا فى الملهاة العاطفية وخرج عليها ، وكان أول خروجه فى ملهاة « الرجل الطيب بفطرته »[١] لكنها فشلت لأنها تعارض الذوق العام ، فهى مهزلة ورواد المسرح لا يحبون المهازل ، إنما يريدون ملهاة رصينة لا تنحرف عن تحليل العواطف الجادّة المحزنة أحيانا ؛ ثم ظهرت له ملهاته الثانية « تَمَسْكَنَتْ فتمكَّنتْ »[٢] وهى كذلك مهزلة من نوع سالفتها ، لكنه كان فيها رائعا بارعا فاجتذب إليه النظارة رغم أنفها .

وتابعه فى هذا اللون الجديد « شريدان »[٣] (١٧٥١ — ١٨١٦) وكانت أولى مهازله « المتنافسون »[٤] وفيها يبعد عن روح الجد التى سادت الملهاة العاطفيـة ، ويقصد إلى التسلية لا إلى التحليل ، وأعظم مهازله « مدرسة الفضائح »[٥] ، و « الناقد »[٦] ولا يجدى فى مثل هـذه المسرحيات تلخيص لأنها تعتمد على المواقف المضحكة والنكات البارعة ، فلا بد لمن شاء أن يستمتع بها من قراءتها أو مشاهدتها وهى مما يعود إليه رجال المسارح آنا بعد آن .

وأما المأساة فى القرن الثامن عشر فضعيفة لا تكاد تجد لها مكانا فى هذا الكتاب ، وحسبنا أن نشير من رجالها إلى « لِلُو » (١٦٩٣ — ١٧٣٩) بمأساته « التاجر اللندنى أو تاريخ جورج بَارْنُولْ » و « مُورْ » بمأساته « المقامر » وقد ذكرنا لك كلتا المأساتين ونحن نحدثك عن المسرحية فى فرنسا فى القرن الثامن عشر لما كان لهما من أثر فى توجيه المسرحية إلى مشكلات الطبقة الوسطى التى تنشأ فى الحياة اليومية .

---

(١) Good-Natered Man . (٢) She Stoops to Conquer . (٣) Sheridan .
(٤) The Rivals . (٥) The School for Scandal . (٦) The Critie .

الفصل الثالث عشر

الأدب الألمانى فى القرن الثامن عشر

لقد قيل إن فى الأدب الأوروبى فترتين خَفَقَتْ فيهما أوروبا بقلب واحد كأنهما أمة واحدة ؛ إحداهما عصر الحروب الصليبية والأخرى هى القرن الثامن عشر ، ففى الأولى اتجهت جهود الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين أوطانهم نحو غاية واحدة وشخصت أبصارهم جميعا إلى أمل واحد ، هو استرجاع بيت المقدس من أيدى المسلمين ؛ فكان إذاً عصرَ جهاد ونضال ، وكان المثل الأعلى هو الفحولة فى البطولة والمهارة فى القتال ، فجاء الأدب الأوروبى كله ناطقا بالفروسية فى شتى أوضاعها ؛ وأما القرن الثامن عشر فهو عصر التنوير والتحرير ، فأوربا كلها ساعية نحو حرية الفرد والجماعة . فأما نصيب انجلترا فى هذا السعى فهو الصناعة والاستعمار ، إذ من شأن الاستعمار والصناعة أن يخلقا طبقة عاملة كاسبة مستثمرة ، هى الطبقة الوسطى ، فإن أَثْرَتْ هذه الطبقة كان لا بد لها أن تتوسع فى حقوقها السياسية ، ومن ثم تقلُّ الفوارق بين الطبقات أو تزول ، وكانت النغمة السائدة فى الأدب الإنجليزى فى القرن الثامن عشر هى هذه الطبقة الوسطى : تُكْتب القصةُ من أجلها . وتمثل المسرحيةُ لتشبع حاجتها ، وينشد الشعراء ما ينشدون عن رجالها ؛ ومن هنا جاء الأدب الإنجليزى فى ذلك العهد عمليا واقعيا لا يشطح مع الخيال الشارد ؛ وأما نصيب الأدب الفرنسى فى هذا التحرير فهو وضع الأصول والقواعد ، فهو لا يزال فى المرحلة النظرية الخالصة ، ولم يكن يسعه غير هذا قبل انفجار الثورة الفرنسية الكبرى ؛ فبينما كان الإنجليزى قد أَلِفَ الحرية فى حياته ، كان الفرنسىُّ يتأمل نظرياتها ويفكر فى قواعدها ؛ فڤولتير وروسو وديدرو ومنتسكيو وغيرهم من رجال الأدب الفرنسى فى القرن الثامن عشر لم يريدوا بما كتبوا إلا مَحْوَ القديم وإنشاء الجديد على أساس الحرية العقلية والسياسية ؛ وهنا نتلفت إلى ألمانيا لنرى نصيبها فى بناء هذا الصرح الذى ساهمت فى بنائه أوروبا كلها ، فنراها أمة لا كالأمم ، بل مجموعة من دويلات قام على كل منها أمير

يطمح أن يضارع بملكه الصغير أبهة فرساى ! لم يكن الألمان فى القرن الثامن عشر شعبا سياسيا واحدا ، فبديهى ألا يكون الأدب سياسى الصبغة كالأدب الفرنسى فى ذلك العهد مثلا ؛ ولم يكن الأدباء الألمان قد ذاقوا طعم القومية ، فبديهى كذلك ألا يجىء أديبهم الكبير أو شاعرهم العظيم ناطقا بالعزة القومية والفخار الوطنى ، فانطوى الأدباء على أنفسهم يحررونها !

الأدب الألمانى فى القرن الثامن عشر يهتم بالفرد لا بالجماعة ، والغاية التى ينشدها هى تحرير النفس الإنسانية من قيودها حتى تحلق صاعدة فى أجواز السماء ، فهو لم يُرِدْ للفرد حرية سياسية واجتماعية كزميليه فى إنجلترا وفرنسا ، بل أراد له حرية روحية ؛ وليس يحطّ من قدره أنه لم يعالج الأغلال المادية ليطلق سراح الناس من أصفادها ، لأنه وهو يحاول تحرير الروح وفكّ إسارها ، علّم الناس كيف يحررون أنفسهم من طغيان العوامل الخارجية التى تعطّل النموّ وتحول دون التقدم ، علمهم أن يروضوا الإرادة على أن تساير المثل العليا فى تناغم واتساق ؛ وألا تستعبدها الشهوات والرغبات ؛ وإنما يكون ذلك التحرير الروحى بتربية النفس على تقدير الجمال ، وتلك هى مهمة الأدب ، بل مهمة الفنون على اختلاف ضروبها .

لقد كان نصيب الأدباء الفرنسيين الذين جاهدوا فى سبيل الحرية فى عصر التحرير — القرن الثامن عشر — أن زُجُّوا فى ظلمات الباستيل ، بينما كان زملاؤهم الألمان على صلة من الود والتفاهم مع أولى الأمر فى بلادهم ، لماذا ؛ لأن الأديب الفرنسىّ يحارب أوضاعا سياسية قائمة ، أما الأديب الألمانى فيعمل على تحرير نفسه ورياضتها ، بحيث تعلو على العوائق المادية القائمة فى وجهها ؛ فلئن كسبت فرنسا حريتها بدماء الثورة الفرنسية ، ولئن كسبت إنجلترا حريتها فى سكون وهدوء عن طريق التشريع لها فى مجلس النواب ، فقد كسبت المانيا حريتها فى معركة باطنية نشبت فى نفوس الأفراد ؛ وهاهنا قامت رسالة الأدب الألمانى فى القرن الثامن عشر ، فلن تجد روحَ الفرد مصورة فى غيره من الآداب — إبّان ذلك القرن — بمثل الدقة والأمانة التى صُوِّرت بها فى الأدب الألمانى ؛ ولم يواجه أدبٌ غير الأدب الألمانى مشكلات الفرد وحياته النفسية بمثل ما واجهها ذلك الأدب فى جِدٍّ وعزم وبصيرة نافذة ، فمن ضلّت نفسه فى متاهة الحياة ، وأراد لها سواء السبيل ، ومن

تحطمت سفينته على موج نفسه المضطربة ، فلن يجد العون والعزاء فى أدب غير هذا الأدب ، ومن هنا كانت « فاوست » — آية جيته الخالدة — أعمق وأعظم ما شهدت الآداب الحديثة فى حياة الفرد ، فهى العزاء الذى لاتبلى جدّتُه ولا تبرد حرارته « لكل من أكل خبزه تحيط به الهموم ، وأنفق طوال الليالى يسفح الدموع » — وقُلْ فى الأدب الألمانى كله فى القرن الثامن عشر ما تقوله فى « فاوست » .

وسنختار لك من ذلك الأدب فحوله الثلاثة : جيته ، وشِلَر[1] ، ولِسِنْج[2] .

جوهان ولفجانج جيته Johann Wolfhgang Goethé (١٧٤٩ — ١٨٣٢) :

ذلك رجل كان أخصّ ما يميزه صحةُ العقل وصحة البدن ، فأما صحة بدنه فموهبة من الله الذى بسط له فى قوة الجسم وسلامته ، وأما صحة عقله فكذلك ونتيجة لمجهود طويل ما فتىء خلاله يتخفف من الأثقال التى تقعد بالروح فلا تسمو : فطرْدٌ للمخاوف وتنزُّهٌ عن الهوى واطّراح لتركةٍ نفسية مثقلةٍ بالأوضار خلّفتها خرافة العصور الوسطى والتمست سبيلها إلى نفسه أيام الصبا ؛ أحاطت به الكروب فهمّ أن ينتحر ، لكنه سارع إلى كتابة « ڤرتر » لينجو بنفسه من هذه الظلمة الغاشية فجعل بطله يزهق روحه ليجد فى انتحاره متنفّسا لكروبه ، وبذلك ألقى عن نفسه وسواساً كان يشوب صحة عقله التى امتاز بها ؛ وشاءت الأقدار لقصة « آلام ڤرتر » أن تُنشر ، فكان من نتائجها العجيبة أن أخذ الشباب فى أوروبا الذين كانوا يعانون مثل ما عاناه « ڤرتر » ينتحرون كما انتحر ! وهكذا قد تبلغ قوة الإيحاء فى الأثر الفنى ؛ أراد به الأديب لنفسه تطهيراً من أدرانها فإذا بهذه الأدران تصيب القارئين !

وتستطيع أن تقول فى كل ما أنتجه « جيته » من آثار أدبية ما قلناه فى « ڤرتر » ، فهى وسائل أريد بها تطهير الروح من شوائبها لتصفو ، فإذا لم تستطع أن تقرأ جيته لتنفض بأدبه عن نفسك ما نفضه الكاتب به عن نفسه ، فخير لك ألا تقرأه .

ولد « جيته » فى فرانكفورت على نهر مان فى الثامن والعشرين من أغسطس لأب يشتغل بالقانون كان سليل أسلافٍ مهنتهم الحدادة أو الحياكة ، وأم هبطت من أسرة

---

(١) Schiller . (٢) Lessing .

نبيلة ؛ وكان أبوه متعصبا متعالما ضيق الأفق ، وقد صمم أن يهيء لابنه من التعليم ما يواجه به خضم الحياة العنيف ، وأخذه أخذا شديدا — وهو ما يزال طفلا — بدراسة تستغرق ساعات طوالا فى اللاتينية واليونانيـة والعبرية والفرنسية والإنجليزية وفى العلوم الطبيعية وفن العروض ! بل استحث ولده أن يكتب عما يرى ويسمع وألا يحاول قرض الشعر ، فكان لهذا التدريب الصارم أثره فى عقل الناشىء من غير شك ، لـكنه نفّر الابن من أبيه ولم يعد يضمر له من الحب ما يضمر الأبناء للآباء ، ولعلنا إذ نقرأ فى « فاوست » كيف اعتزم فاوست هجر كتبه ليغامر فى الحياة مغامرة تستثير فيه العاطفـة الحية نلمس صدى لثورة تأججت فى نفس جيته الطفل نفورا من الدراسة المسرفة البغيضة .

أرسل جيته إلى جامعة ليبزج ليـدرس القانون ، فـكان فـكاكه من أسْر أبيه أول فرصة سنحت يمسّ فيها الحياة عن كثب مسًّا مباشراً ، فلم ينصرف إلى كتب القانون كما أريد له ؛ بل راح يشاطر الطلاب فى نشاطهم ، وأحبّ فتاة يشـتغل أبوها بتجارة الخمر ، وأنفق وقتاً غير قصير فى قرض الشعر والتصوير وقراءة الأدب ، فـكان أن قرأ كتاب « لِسِنْج » « لاوْكُونْ »[1] ، فـكان له بمثابة الوحى الملهم ؛ ولعله أسرف فى حريته وأطلق العنان لشهواته أكثر مما ينبغى ، فأصابته العلة فى رئتيه وعاد إلى فرانكفورت ولم يظفر بدرجة علمية .

وذهب جيته بعد عامين — وقد استرد العافية — إلى ستراسبورج يدرس القانون فى جامعتها ، فظفر فيه بالأستاذية ، وأنشأ إلى جانب دراسته مجموعة من القصائد الغنائية ، وكتب « جيتْس ذو اليد الحديدية »[2] متأثراً فيها بشيكسپير ، واختمرت فى ذهنه فـكرة « فاوست » ؛ وكذلك حدث له وهو فى ستراسبورج أن تأثر بالناقد الشاعر الفيلسوف « هيرْدَرْ »[3] الذى كان إمام الفـكر فى ألمانيا فى القرن الثامن عشر ، كما حدث أن أحبّ فتـاة هى « فردريكا برايُون »[4] ، فأوحى له حبُّه إياها عدداً من أجمل قصائده الغنائية .

---

(١) Laokoön .

(٢) Götz von Berlichingen .

(٣) Johann Gottfried Herder .

(٤) Frederike Brion .

عاد جيته بعد ذلك إلى فرانكفورت ليشتغل بالصحافة ، وليبدأ سيرته الأدبية ، وذاعت شهرته فى الشعر بحيث لم يُكمل عامه السادس والعشرين حتى أصبح فى طليعة الشعراء ، ثم ازدادت شهرته اتساعا حين أخرج « ڤرتر » ونشر « جِيتْس » التى صادفت عند أعلام النقد الأدبى كل إعجاب ؛ وهنا فى فرانكفورت كانت له مغامراتان جديرتان فى الحب ، منهما غرامه « بشارلوت بَفْ »[1] (وهى شارلوت التى تراها مذكورة فى ڤرتر) وأما الأخرى فهى « ليلى »[2] التى كان حبه إياها مضطرما يشتعل بالغيرة ، وقد كانت « ليلى » هذه امرأة لعوبا قُلَّبا ، وخطبها لكن الخِطْبة لم تدم طويلا وافترق الخطيبان وجاءته بعد ذلك دعوةٌ من « كارل أوجست »[3] دوق ڤيمار ، وكان الدوق الشاب قد أنشأ مركزاً أدبيا فى قصره ، وأراد أن يضيف إليه هذا الأديب النابغ ، فأغراه بمرتب كبير ومنصب عظيم فى دوقيته ؛ فلبى الدعوة جيته ، وابتاع له داراً فى ڤيمار حيث أقام طيلة حياته إلا فتراتٍ قصاراً .

جَدّ الأديبُ فى منصبه فارتقى وزاد راتبه وأُنعم عليه بألقاب النبلاء ، وما أكثر ما وجّه النقّاد إلى الأديب اللوم على الإذعان للألقاب والمناصب ، لكن فلسفة جيته لم تكن إلا هذا : قبولا للحياة كما هى ، واضطلاعا بما تفرضه واجبات العيش من أعباء ، ولم يكن ذلك ليمنع سيل إنتاجه الدافق حتى أسلم الروح فى الثانى والعشرين من اكتوبر سنة ١٨٣٢ .

ذهب جيته إلى ڤيمار شابا طويل القامة جميل الطلعة رشيقا تجرى فيه حرارة العاطفة حتى شبّهوه بأدونيس الذى أغرمت به ڤينوس فى أساطير اليونان ، وعاش عيش المتعة من شراب وغرام ، وكانت « فراو فون شتاين »[4] ممن ملَكْنَ عليه فؤاده ، وهى متزوجة وتكبره بسبعة أعوام ؛ وقد قيل ما قيل فى علاقته بهذه المرأة ، والأرجح أن الحب دام بينهما عذريا بضعة أعوام ، وما إن دنسته الشهوة حتى طار الخيال ودب الخلاف ، وازدادت الهوة بين القلبين حين اتصلت الروابط بين الأديب و بين امرأة أخرى ،

---

(١) Charlofte Buff . (٢) Lili .

(٣) Karl Argust . (٤) Frau von Ste n .

فاستشاطت « فراو » غيرة وكادت له ، حتى لم يسعه إلا السفر إلى إيطاليا حيث أنفق عاما وبعض عام .

أما تلك الحبيبة الجديدة فهى « كرستيانه »[٢] ، وكانت فتاة ريفية ساذجة لكنها بارعة الجمال ؛ جاءت إلى ڤيمار حيث عملت صانعةً فى معمل ؛ وحدث أن تقدمت إلى جيته — وهى فى الثالثة والعشرين وهو فى الأربعين — بطلب تلتمس أن يُعينَ أخاها فى عمل ؛ ففتن بها أديبنا . واتصل بها فى طىّ الخفاء حينا ، وذاعت بين الناس الأقاويل ، وافتضح الأمر ؛ ولم يكن ذلك بذى خطر عند عامة الشعب الذين لم تَخْفَ عليهم خافيةٌ من شئونه الغرامية ، لكن الأمر خطير فى دائرة القصر ورجال البلاط ، فما كان لنبيل — فقد خُلِعت على جيته ألقاب النبلاء — أن يتصل بفتاة من غمار الناس ، فما هو إلا أن زاد الأديبُ الطين بلة وأعلن زواجه من « كرستيانه » وكان قد أسكنها منزله قبل ذاك زاعماً روابط القربى بينه وبينها .

وأبَتْ سيدات ڤيمار أن تكون هذه الريفية ندًّا لهن فى المجتمع ، فإذا ما انعقد حفل فى بيت جيته عاملها الزوج والأضياف جميعا معاملة الخادمة ، فلم تجلس إلى مائدة بين الحضور ، ولبث الأمر قائما على هذا النحو حتى بدَّلته « مدام چوهانا شوبنهور » — أم الفيلسوف المعروف ، وهى أديبة لها فى الأدب قسط موفور — وذلك أن وجهت إليها الدعوة كما توَجَّه إلى سيدات الطبقة الراقية ، لكن هيهات أن تَنْحطم الفوارق الاجتماعية بمثل هذا اليسر ، فقد لبثت « كرستيانه » طريدة المجتمع الرفيع فى ڤيمار حتى ماتت ، مع أنها أنجبت ولداً شبَّ وتزوج من نبيلة ، ونَجَلَ لها ولجيته من تلك النبيلة ثلاثة أحفاد .

ونعود إلى آيته الأدبية الخالدة بشىء من التفصيل : اسطورة فاوست قديمةٌ قِدَمَ العصور الوسطى ، وقد أتينا لك على طرف من أخبارها إذ حدثناك عن الأدب الألمانى فى عصر النهضة ؛ لكن جيته تناولها على أساس جديد ؛ ولُبّ الأسطورة أن الدكتور فاوست رجل عاش فى وتنبرج بألمانيا فى أوائل القرن السادس عشر ، وكان يشتغل بالسحر والتنجيم ويزعم لنفسه القدرة على استحضار الأرواح واستعادة ما بَدَّدَتْه الأيام من صحائف القدماء ،

---

(١) Christine Vulpius .

وكان ماكرا مخادعا يستخدم ذكاءه فى ابتزاز أموال السذّج الغافلين ؛ وشاع عنه أنه باع روحه للشيطان ، وتفصيل الأمر أنه ورث من عمه ثروة عريضة بددها فى عربدته ومجونه ، فلما أفلس عزّ عليه أن يكسب القوت بالعمل الشريف ، فاتفق مع الشيطان أن يمد له فى حياة المتعة أربعة وعشرين عاما ، للشيطان الحق بعدها أن يتصرف فى جسده وروحه كيفما شاء .

تلك هى الأسطورة التى بنى عليها جيته قصيدته الكبرى ؛ وهى من جزءين الأول مأساة غنائية ، والثانى حوار فلسفى شاق ينثنى بك ها هنا وينعرج هناك ليدلك على كل ما يدور فى نفس الأديب من خواطر وآراء ؛ فأما الجزء الأول ففيه المتعة الخالصة لكل من يطالعه ، وأما الثانى فلا يستمرئه إلا من له جَلَدٌ وصبر على متابعة الرأى العميق الجاف الملتوى وإنما أراد جيته أن يبين فى فاوست اصطراع العواطف فى قلب الإنسان : أُنقْدِمُ على الحياة فننغمس فيها أم نحجم عنها فلا نأخذ منها بنصيب ؟ وليس المقصود بالأحجام عن الحياة ونبذها أن نلجأ إلى دير نعيش فيه عيشة الرهبان ، ولكن للاحجام عن الحياة صورا وألوانا ؛ فمن يحدد نفسه بقيود الأخلاق وتقاليد المجتمع فقد نبذ جانبا من حياته ، ومن يغلّق من دونه الأبواب ليشطح فى تأملاته الفلسفية فقد نبذ الحياة ؛ ومن يعش فى أوهامه وأحلامه ولا يأبه بالواقع من حوله فقد نبذ الحياة كما هى فى حقيقتها ؛ ورسالة « فاوست » أن يهيب الأديبُ بالناس أن واجهوا الحياة وغامروا فى معمعانها والتقوا بصعابها ؛ وأن أبْرِزُوا من أنفسكم وجوهها وجوانبها ولا تقنعوا بجانب واحد ووجه بعينه ، فهكذا أراد لنا جيته أن نعيش حياة مليئة لا حياة خاوية جوفاء ، وليس من الخير أن نقتطف من الكتاب مثالا يوضحه ، فقد نقل إلى العربية والخير كل الخير أن يُقرأ (١) .

وأعظم قصصه « ولهلم ميِيسْتَرْ » (٢) وهى فى أهميتها بالنسبة إلى أدبه كله تتلو « فاوست » وفيها معظم فلسفته فى الحياة ، ولعلها أن تكون أول قصة فى الآداب قصد بها كاتبها إلى غرض خلقى وتهذيب ثقافى ، وموضوعها ضرورة أن يُحْسِنَ كلُّ شخص اختيار مهنته ليختار ما هيأته له مواهبه ؛ وهى تصور الحياة الألمانية أدق تصوير .

---

(١) ترجمها إلى العربية الدكتور محمد عوض ونشرتها لجنة التأليف .

(٢) Wilhelm Meister .

أما إن أردت ما لجيته من حكمة خالصة لا تجرى فى مأساة كفاوست ولا فى قصة كولهلم ميستر فعليك بمجموعة له تسمى « حِكَمٌ وتأملات » وهى أربعة أقسام : فقسمٌ يدور حول الحياة والأخلاق — وقسم حول الآداب والفنون ، وثالث حول العلم ورابع حول الطبيعة ؛ وليست حِكَمُه مصقولة محبوكة قصيرة كعهدنا بهذا اللون من فنون القول لكنها خواطر تتميز بعمق المعنى وصدق الرأى ، خذ منها هذه الأمثلة القليلة :

« كيف يستطيع الإنسان أن يعرف نفسه ؟ إنه لن يعرفها بالتفكير ولكن بالعمل ؛ فحاول أن تؤدى واجبك وستعلم من فورك قدر نفسك » .

« إن أقل الناس شأنا يمكنه أن يكْمُلَ إذا عمل فى حدود قدرته وقواه الموهوبة والمكسوبة على السواء ؛ وخير الملكات قد تَرِينُ عليها غشاوةٌ ويصيبها الجمود والفساد إذا أعوزتها صفة لا مناص من وجودها ، هى صفة التوازن ؛ وذلك شر سيعاود الناس كثيرا فى العصر الحديث ، إذ من ذا يستطيع أن يسدَّ حاجات عصر بلغ هذا المبلغ من الامتلاء والعمق ثم هو فوق ذلك عصر مسرعٌ فى خطاه ؟ »

« خطأٌ فاحش من المرء أن يعلو بنفسه عن قدرها ، أو أن ينزل بها عما هى جديرة به » .

« ليست التقوى غاية فى ذاتها ، لكنها وسيلة ؛ هى وسيلة يبلغ بها المرء ذروة الثقافة إذ يهيئ لنفسه أخلص ما يستطيع لها من سكون » .

ولجيته عدا ما ذكرناه انتاج غزير ، فله مسرحيات منها : «افجينيا»(١) و«إجْمُنْتِ»(٢) و « هِرمَنْ ودروتيه »(٣) و « توركواتو تاسو »(٤) ، وله غير ذلك كثير من ضروب الأدب الأخرى .

ذلك هو جيته الذى يعادل فى عظمته شيكسپير ، أو قل إنه من ذلك القبيل السامق الجبار ؛ فإذا قصُرَ باعاً عن زميله الإنجليزى فلنذكر له أنه أسَّسَ الأدب الألمانى مما يشبه العدم على حين كان شيكسپيرُ لجهود السابقين زهرة وتاجاً ؛ فمن ورائه « تشوسر » و « سپنسر » وإلى جانبه « مارلُو » و « بِنْ چونسُنْ » وسائر هذا الرعيل الذى عاصره فى

---

(١) Iphigenie . (٢) Egmont .

(٣) Hermann und Dorothea ترجمت إلى العربية بقلم الدكتور محمد عوض أيضاً .

(٤) Torquato Tasso وهو شاعر رومانى فى عصر النهضة صاحب قصيدة «انقاذ بيت المقدس»

عهد اليصابات ، أما جيته فمن ورائه خواء وإلى جانبه ما يشبه الخلاء .

***

هنا جدير بنا أن نلقى بعض الضوء على موضوع قد يثير فيك الحيرة والتساؤل ؛ فقد عرضنا لك الأدب الأوربى فى القرن السابع عشر ولم نذكر الأدب الألمانى إذ ذاك بكلمة واحدة ، وذلك لسبب بسيط هو أن القرن السابع عشر لم يشهد للألمان أدبا ؛ ثم ها نحن أولاء نعرض عليك أدبهم فى القرن الثامن عشر ، فنجتاز النصف الأول من هذا القرن لنلتقى بجيته فى نصفه الثانى ، ثم نزعم لك أنه يطاول شيكسپير ! فكيف يمكن أن تخلو أمة من ثمار الأدب قرنا ونصف قرن ، ثم تقفز بغتة إلى الأوج بقفزةٍ واحدة وفى رَجُلٍ واحد لم يجد من يعبِّدُ له الطريق ويمهد أمامه السبيل ؟

نشبت فى النصف الأول من القرن السابع عشر حربٌ طويلة فتَّاكة تعرف باسم حرب الثلاثين سنة (١٦١٨ — ١٦٤٨) كانت ألمانية أول الأمر ثم أخذت تتسع حتى أوشكت أن تشترك فيها الدول الأوروبية جميعا ، فلما وضعت تلك الحرب الضروس أوزارها كانت ألمانيا قد بلغت من الضعف حدا بعيدا يُعْجزها عن التفكير والعمل ؛ ثم حدث سنة ١٦٨٥ أن ألغى لويس الرابع عشر فى فرنسا مرسوم نانْت ، فصودرت بمقتضى هـذا الإلغاء العقيـدةُ البروتستنتيةُ فى فرنسا وفقد الهيجونوتُ حريةَ العبادة والمساواة أمام القانون ، فهاجر سرًّا عددٌ كبير منهم ، إذ بلغت الأُسَرُ الراحلة خمسين ألفا ، ولجأوا إلى هولندة وانجلترا وبروسيا وأمريكا ، فكانت خسارة فرنسا عظيمة بفقد هذه الطائفة الفنية النشيطة التى كان لها أوفر قسط فى الحركة الثقافية ؛ فكان أن لجأ كثيرون من هؤلاء فى مهاجرهم إلى أقلامهم ، وأسسوا المطابع وأصدروا الصحف ، وأخذوا فى كل بلد هاجروا إليه يترجمون ويكتبون وينشرون ؛ وكانوا يستخدمون فى ذلك كله لغتهم الفرنسية التى كان لها فى أوربا إذ ذاك السَّيْرورة والمقامُ الأول ، وبذلك جعلوا الفكر الفرنسى والأدب الفرنسى سائدا شائعا ، واصبحت الموازين الأدبية الفرنسية هى المسيطرة فى مراكز الثقافة الأوروبية جميعا ، فكأنما كان إلغاء مرسوم نانت حادثا ساقتْه الطبيعة لتتعاون أوروبا على حركة التنوير التى تُعَدُّ طابعا يميز الأدب الأوروبى فى القرن الثامن عشر ، كما أسلفنا لك القول فى أول هذا الفصل .

فلما دنا القرن السابع عشر من ختامه لم يكن فى ألمانيا من الأدب إلا صورٌ منقولةٌ عن الأدب الفرنسى ، والصورةُ لا بد أن تكون ضعيفة هزيلة إذا قيست بأصلها ومثالها الذى استمدت منه الوحى واحتذته احتذاء التلميذ للمعلم ، والأدب الفرنسىّ فى القرن السابع عشر — كما تعلم — اتّباعى صارم يلتزم قيود المذهب الاتّباعى فلا يحيد عنه فلم تكد تترجم من الأدب الإنجليزى فى القرن الثامن عشر بعضُ روائعه مثل مقالات « أَدِسُنْ » و « روبنسن كروزو » لدانيال دفو ؛ وأخيراً قصص « ردتشردسن » وقصائد « تومْسُنْ » حتى هبّتْ نسائم الحرية على الأدباء الألمان ، وأزاحوا عن كواهلهم نير المذهب الاتباعى الفرنسى ، ومهما يكن من أمر فقد أخذت ألمانيا تستقى الأدب الفرنسىّ حينا والأدب الإنجليزىّ حيناً آخر ، وهى جامدةٌ لا تنتج شيئا ؛ ولكنها فى فترة النقل كانت تهضم ما تنقله حتى اختمر فى نفوس أدبائها ، وخرج رحيقا مستساغا دفعة واحدة فى « جيته » و « شِلَرْ » و « لِسِنْج » .

جوتهولد افرايم لسنج Gotthold Ephraim Lessing (١٧٢٩ — ١٧٨١) :

ولد « لِسِنْج » فى الثانى والعشرين من يناير سنة ١٧٢٩ فى بلد قريب من « درزْدِنْ » بمقاطعة سكسونيا بألمانيا ، فتهيأت له بهذا المولد فرصةٌ كانت تتاح لأبناء سكسونيا دون سواهم من شباب ألمانيا ، وهى فرصة التعلّم فى مدرسة تشبه المدارس الخاصة فى إنجلترا ، هى مدرسة « سنت أفرَا » بمدينة « مِيسِنْ »[1] ؛ ومن ثَمَّ انتقل إلى جامعة ليبزج ليعد نفسه لوظائف الدين كأبيه ، لكنه وهو فى الجامعة انعرج به الطريق ، وذلك أن « جوتْشِدْ »[2] الذى كان فى دولة الأدب فى ألمانيا حاكما يأمر وينهى ، كان قد أغرى شباب الجامعة الذين بدرت فيهم بوادر النبوغ الأدبى بالآمال العريضة والمستقبل العظيم ، إذا هم أعدّوا عدّتهم لاستخدام أقلامهم ، فما لبث « لسنج » أن أطاع « جوتْشِد » إذ وجدت دعوتُه صدًى فى نفسه التى خلقها الله للأدب ، فانصرف عن الدراسة الدينية التى أريدت له أول الأمر ، وعن دراسة الطب التى كان قد تحول إليها بعدئذ ؛ وأقبل على المسرح يكتب له ، فذلك عنده خير من قاعة المحاضرة يستمع فيها إلى مالا يميل إليه

(١) St. Afra ; Meissen .

(٢) Gottsched .

بفطرته ؛ وطمع ساعةً فاض عليه فيها الوحيُ أن يكون لألمانيا ما كان موليرُ لفرنسا ؛ لكنه كان بطبعه إلى النقد الأدبي أميل منه إلى كتابة الملاهي ، فسرعان ما نراه في برلين ، حيث يتربع فردريك الأكبر على عرش المُلْك ، يجاهد — لا في سبيل أن يكون «موليير» — بل أن يسمو إلى نجمٍ أعلى وأسطع في ذلك الزمان ، هو «ڤولتير» ؛ ولم يكن الجهاد الأدبيّ هيناً يسيراً في بلد يؤمن فيه الملك أن ينبوع الأدب لن يتفجّر في أحد من أفراد شعبه بمثل ما تفجر في نابغة عصره «ڤولتير» ؛ وها هو ذا ڤولتير في قصر فردريك له الحظوة الكبرى ، فأين الرجاء أن يلتمس أديبٌ ألمانيٌّ طريقه إلى رعاية فردريك ؟ لكن ذلك لم يَفُتّ في عضد الأديب الشاب ، وأخذ «لِسنْج» يكتب كتابة المأجور ، فيعرض الكتب عرضا نقديا في الصحف ، ويترجم ويكتب كل ما يجد السبيل إلى كتابته ، لا يفرّق بين شيء وشيء ، ومع ذلك فلم يجرْ قلمه بسطرٍ واحد يحتاج إلى محو أو تعديل .

في هذه الحياة الأدبية الشاقة التي عصفت به إبّانها الأعاصيرُ العواتي ، صَلُبَ عودُه ، وأخذت موهبته في النقد تزداد وضوحا يوما بعد يوم ، حتى بات ناقداً يؤتَمُّ برأيه ويُخْشى بأسُه في الهجوم ، وصادقه قومٌ وخاصمته أقوام ؛ وأصدر صحيفة أدبية مع بعض أصدقائه ، حمل فيها على القواعد الاتّباعية الجامدة وأخذ يبسط رأيه في كيف يكون الاتّباع في الأدب بحيث يحتفظ الأدب بنضارته ورونقه ، فالمذهب الاتّباعي كما أخذت به أوروبا في القرن الثامن عشر زائف يشبه الاتّباع وليس منه ؛ وهنا أتيح للأديب العظيم أن يَرِدَ حياضَ اليونان ويتملّى من جمالها وسحرها ، فارتسمتْ في ذهنه صورةٌ جديدة للاتّباع الأدبي ، وأنشأ في النقد كتابه الجليل «لاوْكُون» فمهد هذا الكتابُ بما فيه من توضيح جليّ للفوارق بين ألوان الفنون ، مَهَّدَ الفريق لأدبٍ جديد وفن جديد .

نُشر «لاوْكون» سنة ١٧٦٦ وكان أعظم كتاب في النقد الأدبي مما أنتجته قرائح الأدباء في القرن الثامن عشر ؛ فهو بحث مبتكر مطبوعٌ باصالة الرأي حول مبادئ النقد ، وليس من الإسراف في شيء أن نزعم أن هذا الكتاب الخالد هو الذي مكّن لجيته وشِلَرْ من التكوّن والظهور ؛ ومجمل ما في هذا الكتاب تفرقةٌ واضحة بين مهمة الشعر ومهمة النحت والتصوير ؛ وقد أطلق على كتابه هذا اسم «لاوْكُون» لأنه وهو يعرض للتمييز

بين النحت والشعر ، اختار نموذجا للنحت تمثالَ « لاوكون » الذى يمثل لاوكون وابنتيه وقد التفّت بهم الأفاعى التى أرسلها جوف عندما حذّر لاوْكُونُ أهلَ طروادة من قبول الحصان الخشبى ؛ والتمثال يمثّل جزع الوالد وولديه وهم فريسة الأفاعى ، واختار « ڤرچيل » نموذجا لتصوير الجزع فى ألفاظ الشعر ، ليبين الفرق بين اللونين من التعبير ؛ وعلى أساس فكرته بأن النحت والتصوير لا يمكنهما أن يقوما بما يؤديه الشعر بحث لِسِنْج كلَّ ما يريد بحثه من مبادئ النقد .

كانت الحياة عندئذ لم تُيَسَّرْ لأديبنا بعد ، فهو حيناً فى رغدٍ من العيش ، وأحيانا فى شظف وعسر ؛ حتى لقد بلغ عامه السابع والثلاثين ولم يوفَّق بعدُ لكسْب قوته بقلمه ، ثم صادفه ما أزاح عن كاهله عبء العيش وهمومه حينا ، وذلك أنه عُيِّن كاتما لسرِّ الحاكم فى مدينة « برسلاو » ؛ فاستطاع أن يخرج خير ملهاة عرفها الأدب الألمانى وهى « مِنَا ڤون بارنْهِلْم »[1] .

لكن ملهاته هذه لم تفتح أمامه طريق المجد عن طريق الأدب : « وقفتُ فى ساحة السوق لا أدرى ماذا أصنع ، فما استأجرنى أحدٌ ، لأن أحداً بغير شك لم يعرف كيف ينتفع بى » وأخيراً مَدَّ إليه المسرح يده من جديد ، فاستخدمه « المسرح القومى الألمانى » فى هامبرج ، ليعلّق له عن مسرحياته فى صحيفة تُنْشر مرتين أو ثلاث مرات كل أسبوع ، فيكون له بتعليقه ذاك أداة دعايةٍ بين الناس ، فلم يؤدِّ لِسِنْج واجبه كما طُلب إليه ، إذ أبى أن يمتدح ما كان يعرض من مسرحيات ، لأن المعروض ضعيفٌ لم يعجبه ، وكانت هذه فرصة أخرج فيها كتابا عن المسرح فى القرن الثامن عشر ، له أعظم الشأن فى موضوعه وهو « الفن المسرحى فى هامبورج »[2] .

فلما انتهى مسرح هامبرج إلى الفشل والإفلاس ، تعطَّل لسنج من جديد ، حتى عُيِّنَ آخر الأمر أميناً لمكتبة فى بلد صغير ، وفى هذا المنصب المتواضع لبث حتى وافته منيته فى الخامس عشر من فبراير سنة ١٧٨١ .

فى ذلك البلد الصغير لم يجد الحياة الهادئة ، فسرعان ماثارت خصومةٌ عنيفة بينه و بين

---

(١) Minna von Barnhelm . (٢) Hamburgische Dramaturgie .

قسيس جبار ، وخرج أديبنا من الخصومة هزيما خاسراً ، لكنه من هذه المحنة المظلمة أمدّنا بقبسٍ من الضوء ، فمن حَرِّ القتال المستعر أخرج لنا « ناتان الحكيم »[1] ، وهى صرخة داوية فى سبيل التسامح وحرية الفكر أضافت نغمةً إلى ما كانت تَصِرُّ به الأقلام فى مختلف الأمم إذ ذاك سعياً وراء الحرية .

واجلولكتْ أيام « لِسنْج » وعاش من شقائه فى ليل داج ؛ فهو فى معركة متصلة تعود عليه بالآلام ، ثم ازداد ليله البهيم سواداً حين تزوج من أرملة صديق له فى هامبورج ، فما لبثت الزوجة « إيڤا كِينِجْ »[2] أن ماتت بعد عام من زواجها وهى تضع للأديب وليدا ، ومات معها وليدها بعد أن لمح فيه « لسنج » دليلا ملموساً للخلود ، وبهذا انسدل الستار إلى الأبد على كل أملٍ فى أن يعيش الرجُل سعيداً بأسرته كما يعيش سائر الناس .

من هذا الذى عرضناه عليك من حياة « لِسِنْج » تستطيع أن تلمس فى الرجل ثلاث نواحٍ بارزة : الأولى أنه أمدَّ المسرح فى بلاده بالدعائم التى جعلت بناءه منذ ذلك الحين ثابت الأركان ، والثانية أنه ناقد وضع القواعد والأصول فى الشعر والفن ، والثالثة أنه مجاهد كافح رجال الدين ليظفر للناس بحرية الرأى والتسامح .

كان « لسنج » فى مسرحياته يستمد الوحى من الآداب الإنجليزية والفرنسية والإيطالية ، ولكنه كان يطبعها بطابعه ، وهو فى الحوار المسرحى بارع لا يدنو منه مسرحىٌّ آخر فى القرن الثامن عشر ؛ ومن أشهر مآسيه « مِسْ سَارا سامْسُنْ »[3] التى نقل بها عن الأدب الإنجليزى فن المأساة التى تعالج الحياة المألوفة فى أوساط الناس ، وهو ضرب من المأساة لم ينشأ إلا منتصف القرن الثامن عشر ، وظلت ألمانيا منذ عرفت ذلك الفن بفضل « لِسِنْج » لا تنفك مخلصة له فى أدبها المسرحى ، فإن كانت قد ساهمت فى ذخيرة الأدب المسرحى فى العالم ، فإنما كان قسطها هو البلوغ بهذا الضرب من المأساة حد الكمال ؛ كان « لِسِنْج » فى مأساة « مْس سارا سامْسنْ » ناقلا عن الأدب الإنجليزى متأثراً إلى أبعد الحدود بكتّاب المسرحية من الإنجليز المعاصرين له ، فالرواية مناظرها انجليزية وأشخاصها إنجليز ، استعارهم من القصة الإنجليزية ومن « رتشردسن » بصفة خاصة ، فى

---

(١) Nathan der Weise .

(٢) Eva Konig .

(٣) Miss Sara Sampson .

« سارا » تلمح شبهاً قويا بينها وبين « كلارسّا » ، بل إنه استعار أسماء أشخاصه من المسرحى الإنجليزى « كونجريف » ؛ فلما تلفّت « لِسِنْج » إلى إنجلترا ليستمد من أدبها المسرحىّ لم ينظر إلا إلى إنجلترا المعاصرة ، وما علم أن هنالك فى إنجلترا التى سلفت كاتباً مسرحيا هو بالقياس إلى من أخذ عنهم عملاق جبار ، لـكن شيكسپير لم يكن عند لسنج إلا ما صوّره به ڤولتير : شاعراً ضعيفا ليس بذى شأن يذكر .

وفى سنة ١٧٦٧ — بعد « مِسْ سارا سامْسُنْ » باثنى عشر عاما — ظهرت مسرحيته الثانية وهى ملهاة « مِنَا ڤون بارنهِلْم » التى تدب الحياة الصحيحة فى أشخاصها ؛ وهى كذلك مدينة للأدب الإنجليزى بدينٍ ، فهاهنا للمرة الأولى والأخيرة يتأثر الكاتب بشيكسپير ، إذ لا يسعك وأنت تصوِّر لنفسك « مِنَا » إلا أن تذكر شخصية « بورشيا » عند شيكسپير فى رواية تاجر البندقية ، بل إن « لسنج » سار على نهج شيكسپير فى حل العقدة كما جاءت فى رواية تاجر البندقية ، لـكنه لم يَنْس أن يستعير بعض العناصر — أو قل معظم العناصر — من مسرحىٍّ إنجليزى معاصر هو « فاكَرْ »[1] ، فأنت إذا أردت أن تضيف ملهاة « مِنَا » إلى أشباهها وضعتها إلى جانب الملاهى الإنجليزية التى شهدها القرن الثامن عشر : « خُطَّةُ الشاب الأنيق » لفاكَرْ ، « تَمَسْكَنَتْ فتَمَكَّنت » لجولدسمث ، و « مدرسة الفضائح » لشِرِيدان وأمثالها ، فهى إلى هذه أقرب جدا منها إلى ملاهى ذلك العصر فى فرنسا .

وله كذلك مسرحيتان عظيمتان غير ما ذكرنا : هما « إميليا جالوتى »[2] و « ناتان الحـكيم » ؛ أما الأولى فهى خطوة فسيحة نحو تثبيت فن المأساة الذى يعالج الحياة المألوفة ، والذى أشرنا إليه فى حديثنا عن رواية « مِسْ سارا سامْسُنْ » ، وهى تُعَدُّ من أحجار الأساس فى بناء المسرحية الألمانية الحديثة ؛ وأما الثانية فقد أخرجها — كما أنبأناك — لتكون سهما يُسَدَّدُ إلى رجال الرجعية والجمود ، ولينشد بها الحرية والتسامح ، وهى من حيث فنها تبشِّر بعهد جديد فى كتابة المسرحية ، لأنها عنيت بالتحليل النفسىّ لأشخاصها أكثر من عنايتها بأى جانب آخر ؟ ومع ذلك فهى نادرة الظهور على المسارح ، لأنها تعالج موضوعا كان يسيغه أهل القرن الثامن عشر ولـكننا نمجّه اليوم ، ونعنى به الحب ينشأ

---

(١) Farquhar . (٢) Emilia Galotti .

بين أخ وأخته ؟ ومما يعيبها أيضاً أنها ضحّتْ بما يقتضيه البناء الفنى للمسرحية فى سبيل نشر الآراء التى يريد الكاتب أن يذيعها عن التسامح الدينى : ومما هو جدير بالذكر فى صدد هذه الرواية كذلك ، أن الكاتب عاد فانحرف عن شيكسپير ، وجثا على ركبتيه خضوعا أمام عدوه الأدبى اللدود : ڤولتير ، إذ جاءت هذه المسرحية شبيهة أشد الشبه بمسرحيات ڤولتير الذى كانت حياته — كحياة لِسِنْج — معركةً طويلة متصلة فى سبيل تحرير الإنسانية المستعبدة .

وأما لسنج الناقد فحسبك أن تعلم ما قاله عنه ماكولى من أنه «أعظم ناقد فى أوربا» . وقد ذكرنا لك كتابيه فى النقد « لاوكون » و « الفن المسرحى فى هامبرج » ؛ أما أولهما فيحدد مرحلة من مراحل التطور الفكرى فى القرن الثامن عشر ، فهو أول من فرق بين الفنون المختلفة على أساس اختلاف غاياتها ؛ وقد فقد الكتاب شيئاً من أهميته التى كانت له عند صدوره ، لأنه جاء عندئذ احتجاجا قويا على الشعراء الذين يطغون بفنهم على ما ينبغى أن يترك للنحت والتصوير . أما نحن اليوم فلا نشاطر الناقد وجهة نظره ، ونحاول أن نوحّد بين الفنون ونزيل ما بينها من فواصل وفوارق ، لا أن نباعد بينها بالحدود الفاصلة كما أراد لسنج . وأما كتابه الثانى عن الفن المسرحى فهو — كما رأينا — نقد صحفى لروايات يومه وممثليها ، ولم تكن الروايات والممثلون مما يستحق التقدير والتقريظ ، فكان فى هذا الركود المسرحىّ نفسه فرصة سانحة للسنج أن يملأ صحيفته النقدية بالقواعد العامة فى المسرحية ما دام المسرح القائم وممثلوه لا يمدونه بالمادة الكافية . والمحور الرئيسى الذى يدور حوله الناقد فى بحوثه هو ڤولتير — لا كتاب الشعر لأرسطو كما يذهب بعض الناقدين — إذ كتاب « الفن المسرحى » فى صميمه نقد لڤولتير وللأسس التى بنى عليها أشباه الاتّباعيين فى فرنسا فنهم ، هو نقد شديد يهاجم به القيود الخانقة التى فرضتها «المأساة الاتّباعية» على نفسها فضيقت بها على نفسها الخناق . نعم إن لسنج يعرض لكتاب أرسطو فيعلى من شأنه ويرفع من قدر مبادئه النقدية ، لكنه إنما فعل ذلك ابتغاء غاية يرجوها ، هى أن يحطّم المأساة الاتّباعية التى كانت تسود فرنسا ، بأن يبين أنها تنحرف عن تلك المبادئ إذا فسرت بمعناها الصحيح ، وحقيق بنا أن نذكر فى هذا الصدد أنه يرى شيكسپير أقرب إلى القواعد الأرسطيّة فى المأساة من هؤلاء الذين يفاخرون

ويتشدقون بحرصهم على اتباع تلك القواعد فى فنهم ، ولم يقل لسنج ما قاله عن شيكسپير إكباراً له ، فقد ذكرنا لك فيما سلف أنه لا يقف موقف الإجلال من شيكسپير ، إنما قاله استثارة لغيظ عدوه الأكبر ڤولتير . وعلى كل حال فلست ترى شيكسپير مذكوراً فى هذا الكتاب إلا لماماً ، لأن المسرح فى هامبرج لم يكن يمثل من رواياته شيئاً يذكر ، فلم يجد لسنج الفرصة للتعليق الكثير والقول المستفيض حول شيكسپير . ولئن امتدحنا فى لسنج صدق النظر فى إدراكه أن شيكسپير أكثر انطباقا على قواعد أرسطو من كورنى — مثلا — مخالفاً بذلك ما يبدو للوهلة الأولى ؛ فإننا لا شك نعد هذا القول وضعاً مقلوبا ، فكان أولى بالناقد البارع أن يعلى من شأن أرسطو فى نقده الأدبى ، لأنه جاء من المرونة واتساع الأفق بحيث اتسع لفن شيكسپير ؛ لكننا لا نتوقع مثل هذا القول من رجل يؤمن بالاتباعية فى الأدب ، غير أنه لا يرضى عن الاتباعية كما أخذ بها الفرنسيون ، ويريدها كما يراها فى فن اليونان الأقدمين ، فهو إن رأى فى شيكسپير شيئاً يستحق المدح فذلك أنه يطبّق قواعد أرسطو وأنه أخ « لسوفوكليز » ! كان لسنج ناقداً اتباعيا لا تجرى فى عروقه قطرة واحدة من النظرة الابتداعية التى وجدت طريقها أول ما وجدت فى قلب شيكسپير ؛ غير أنه — كما قلنا — يمتاز من سائر الاتّباعيين إذ ذاك فى أنه لا يأخذ المذهب كما فسره الإيطاليون والفرنسيون ، بل يعود فى الطريق بنفسه حتى يواجه فن اليونان عن كثب فينقل منه رأساً بغير وسيط . . . . وسواء أخذنا بوجهة نظره فى نقد المأساة أو لم نأخذ بها ، فقد كان كتابه فى « الفن المسرحى » أعظم كتاب أنتجه القرن الثامن عشر فى ذلك الفن .

شلر Schiller (١٧٥٩ — ١٨٠٥) :

ولد شِلَرْ فى « مارباخ »[1] عام ١٧٥٩ ، فهو يصغر جيته بعشر سنوات ؛ وقد عاش حياةً يُشقيها الفقر والمرض ، لكنه احتمل صعابها بصدر رحب وجأش رابط : يشتغل جرّاحا مرة ، ومحررا فى الصحف مرة ، ومديرا لمسرح تارة وأستاذا للتاريخ فى جامعة

---

(١) Mavbach .

يينا طورا ؛ وقد حدث أن طارده الدوق كارل يوجين ليقذف به فى ظلمات السجن ، لكنه اختفى وفرّ ، وكان إذ ذاك فى عامه الخامس والثلاثين ، فكان فراره ذاك فرصة التقائه بجيته .

فى ظل هذه الصداقة الأدبية أنجز شِلَرْ رواية يَعُدّها « كارليل » أعظم آية فى الأدب المسرحى حقيقةٍ أن يفاخر بها القرنُ الثامن عشر « على الرغم من علّته الشديدة التى كانت تقتضيه ساعات من الألم كلما جلس إلى مكتبه ساعةً واحدة ، وتلك هى رواية « والنشتين »[٢] وهى ثلاثية ، أى أنها تتألف من ثلاث روايات يكمل بعضها بعضا .

بدأ شلر أدبه المسرحى بروايات نثرية مثل « اللصوص » و « أَكَلَةِ البشر والحبُّ » وهى كلها مسرحيات تعالج شئون الحياة المألوفة فى حياة الطبقة الوسطى ، وهو النوع الجديد الذى ظهر فى أدب القرن الثامن عشر نتيجة لارتفاع تلك الطبقة الوسطى وشعورها بوجود نفسها ؛ ويمتاز شِلَرْ فى رواياته بقوة « الحبكة » وبراعة التصوير للشخصيات ، ولك فوق ذلك أن تعده واضع الأساس لفن الحوار النثرى فى مآسى العصر الحديث ؛ وإن كانت تلك المسرحيات الأولى معيبةً فى شىء فذاك إسرافها فى العنف والتهويل ، وهو أمر طبيعى من شاب يضطرم صدره بالعواطف الجياشة ، فلما أن نضج واكتمل وتعمق فى التاريخ والفلسفة ، أخذ يكتب المسرحية التاريخية الرصينة والمأساة القوية شعرا ، فأنتج وهو فى « يينا » و « ڤيمار » مجموعة من المسرحيات تعد بين الروائع ، منها « دون كارلوس » و « عذراء أورليان » و « مارى ستيورت » و « وليم تِلْ »[٣] والمسرحية الثلاثية « والنشتين » والأخيرتان هما أجمل ما كتب .

كانت « وليم تِل » آخر ما جادت به قريحته ؛ فقد حدث أن همّ جيته بكتابة ملحمة تدور حول هذا البطل السويسرى الذى تتألف سيرته من التاريخ الصحيح وأوهام الأساطير فى مزيج واحد ؛ ومن أخباره أن « جِسْلَرْ »[٤] الطاغية أمره أن يضرب بسهمه تفاحةً توضع على رأس ابنه ، فإن أخطأ الهدف كان جزاؤه القتل ؛ لكن جيته لم يَنْتَه فى مشروع ملحمته إلى شىء ، فصمم شلر أن يُخْرِج الموضوع فى مأساة مسرحية ، إذ كان

---

(١) Wallenstein . (٢) William Tell . (٣) Gessler .

الأديبان الصديقان قد تحدثا فى الأمر مليًّا فملأ الموضوع نفس شلر واعتزم أن يخرجه ؛ وجاءت المأساة رائعة بارعة ، تقبَّلها الناسُ أحسن القبول ، لأنها رمز حىٌّ قوىٌّ لما ينشدونه من حرية لأنفسهم ، وقد عمل جيته على تمثيلها فى « ڤيمار » . ومن مواقف الرواية التى تملك على النظارة الأفئدة والقلوب ساعة ينتصر « تِلْ » فى تصويب سهمه إلى التفاحة ، فيخلص بهذا من المحنة القاسية التى تعرض لها بأمرٍ من المستبد الطاغية ، وهنا لحظ المستبد « جِسْلَرْ » سهما آخر فى منطقة « تِلْ » فاستوضحه الأمر .

تِلْ : (مضطربا) إنها عادة اعتادها رماةُ السهام يا مولاى

جِسْلَرْ: كلا يا « تِلْ » لا أستطيع أن أغضى عن هذا الجواب

إنى لموقنٌ أن قد دَفَعَكَ إلى ذلك دافعٌ آخر

خبرنى الحق فى صراحة وصدق

وأَعِدُكَ بالنجاة كائنا ما كان الأمر ،

فيم هذا السهمُ الثانى ؟

تِلْ : إذن فاسمع يا مولاى

فما دمت قد وعدت ألا توردنى موارد الهلاك

فسأعلن الحق فى غير خفاء

(يجذب السهم من منطقته ، وينظر إلى الحاكم نظرة مخيفة)

لو كنتُ أصبتُ ولدى العزيز بيدى

لوجّهت هذا السهم الثانى إلى قلبك

وثق أنى ما كنتَ عندئذ لأخطئ الهدف

ومات شلَرْ سنة ١٨٠٥ فانتهت بموته الفترة الاتباعية فى الأدب الألماني ، فلئن بقى جيته بعد ذلك حيا حتى سنة ١٨٣٢ فقد كان المذهب الابتداعى الجديد الذى استهل به القرن التاسع عشر قد ذاع وانتشر .

الفصل الرابع عشر

فى الأدب العربى

من سقوط بغداد إلى نهاية القرن الثامن عشر

بلغ الأدب العربى ذروته قبل سقوط بغداد ، أى فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى ، أو النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى ، وقد تغلب الفرس أولا والترك ثانيا ولكنهم حافظوا على السيادة العربية ولو ظاهرا بالبقاء على الخلافة ، وانتقالهم إلى اللغة العربية يتأدبون بها ، ويُظهرون بها نتاج أفكارهم وعقولهم ، وعلى كل حال فلم تكن سلطة الفرس والأتراك سلطة تدمير وتخريب ، وظلت الحركة العلمية والأدبية فى عهدهما نامية زاهرة ، ولم يترك المتكلمون باللغة العربية ناحية من نواحى العلم والأدب إلا عالجوها وبحثوا عنها وألفوا فيها ، فكانت ثروتهم إذا قيست بثروة الأمم الأخرى فى عصرهم من أغنى الثروات ، وعقليتهم وتفكيرهم وأدبهم من خير ما فى العالم إن لم يكن خيره .

حتى جاء هجوم التتر فأفسد كل شىء ، إذ كان اعتداء مخربا مدمراً ، من قوم متبربرين لا ثقافة عندهم ولا مبادئ ولا عدل ولا دعوة ولا غرض إلا التسلط والإبادة والإخضاع .

فقد تحرك المغول من التتار الذين يسكنون جنوبى سيبريا ، وهم قوم شداد غلاظ كانوا يعيشون على الغارة والصيد ، وكان بأسهم بينهم شديداً ، حتى رأسهم جنكيزخان فوحد كلمتهم . وبعد أن أتم فتوحه فى الشرق الأقصى اتجه نحو الغرب فهجم على المملكة الإسلامية فيما وراء النهر ، واستولى على مملكة شاه خوارزم ، ثم اكتسح بجيوشه خراسان وفارس يذبح أهلها ، ويخرب حضارتها .

ثم جاء هولاكو حفيد جنكيزخان فصمم على الاستيلاء على الدولة العباسية سنة ٦٥٤ هـ = ١٢٥٦ وعرّج على قلعة أَلَمُوت ففتحها وأخذها من الإسماعيلية وقتل من فيها واستولى على الرى ، ثم قصد بغداد سنة ٦٥٥ = ١٢٥٧ وكان أهلها فى خلاف بين سنيين وشيعيين ، وقد خُدع الخليفة المستعصم وفقهاء المدينة وأعيانها حتى حضروا إلى هولاكو

فى معسكره فأمر بذبحهم ، ثم هجم على دار الخلافة فاستولى على ما بها وأباح بغداد أربعين يوما وقتل من أهلها — كما يقول بعض المؤرخين — أكثر من مليون وثمانمائة ألف ، وخرب عمرانها ورمى كتبها فى دجلة ؛ وبذلك قضى على حضارة ونتاج عقول ظلت تعمل قروناً . وأصبحت بغداد — التى كانت ملجأ العلماء والأدباء ومضرب المثل فى المدنية والحضارة — تنعى من بناها .

وقد أثرت هـذه الغزوات فى العالم العربى أسوأ الأثر ، فهذه المنطقة التى اكتسحها التتار كانت أنضر وأنضج بقعة فى الحياة العقلية والأدبية ، يقلدها ويحذو حذوها سائر الممالك العربية ، فلما فقدت فقد المتعلمون أساتذتهم . وقد استمر هـذا الإفساد والتخريب مدة طويلة اجتثت فيها الأشجار من جذورها ، فقد ظل هؤلاء المغول من ٦٥٤ — ٧٥٠ أى نحو قرن وهم يحكمون المسلمين بقسوتهم وجهالتهم ووثنيتهم إلى أن بدأوا يتحضرون ويقوّمون العلم ويسلمون .

قال الديار بكرى فى تاريخه « الخميس » :

« وفى سنة أربع وخمسين وستمائة خرج الطاغية العنيد مبيدُ الأمم هولاكو ، فأخذ قلعة ألموت من الإسماعيلية وقتلهم ، وأخرب نواحىَ الرىّ ، وبذلت السيوف على عوائدهم فتوجه الكامل محمد — صاحب مَيَّافارقين — إلى خدمة هولاكو ، فأعطاه الفرمان ، ثم نزل هولاكو بأذربيجان وأخذها .

وفى سنة خمسٍ وخمسين وستمائة ثارت فتنة مهولة ببغداد بين السُّنِّيَّة والرافضة أدَّت إلى نهبٍ عظيم وخراب ، وقتل عدّة من الرافضة ، فغضب لها وتنمَّر ابن العلقمى الوزير ، وجسَّر التتارَ على العِراق ليشتفىَ من السنِّيّة .

وفى أول سنة ست وخمسين وستمائةٍ وصل الطاغيةُ هولاكو — ابن تولى بن جنكيزخان المغلى — بغدادَ بجيوشه وبالكَرَج وبعسكر الموصل ، فخرج الدُويدار بالعسكر ، فالتقى بطلائع هولاكو وعليهم ياجنوس ، فانكسر المسلمون لقلتهم . ثم أقبل ياجنوس فنزل على بغداد من غربيِّها ونزل هولاكو من شرقيها . فقال الوزير ابن العلقمى للخليفة المستعصم بالله : إنى أخرج إلى القاءان الأعظم فى تقرير الصلح . فخرج الكتاب وتوثق لنفسه ورجع . فقال : إن القاءان قد رغب فى أن يزوّج بنته بابنك ، وأن تكون الطاعة له

كالملوك السلجوقية ويرحل عنك . فخرج المستعصم فى أعيان دولته وأكابر الوقت ليحضروا العَقْد ، فضُربت رقاب الجميع ، وقَتلوا الخليفة : رفسوه حتى مات . ودخلت التتار بغداد واقتسموها ، وأخذ كلٌّ ناحيةً ، وبقى السيف يعمل أربعة وثلاثين يوماً ، وقَلَّ من سلمَ ، فبلغت القتلى ألف ألف وثمانمائة ألفٍ وزيادة . فعند ذلك نادَوا بالأمان ، ثم أمر هولاكو بضرب عنق ياجنوسَ ، لكونه كاتبَ الخليفة ، وأرسل إلى صاحب الشام يهدده إن لم يخرب أسوار بلاده .

كذا فى « دول الإسلام » .

وفى تاريخ الجمالى يوسف : سبب قتل المستعصم بالله أنه لما وَلِىَ الخلافة لم يتوثق أمره لأنه كان قليل المعرفة بتدبير الملك ، نازلَ الهمة ، مهمِلاً للأمور المهمة ، محباً لجمع المال . أهمل أمر هولاكو وانقاد إلى وزيره ابن العلقمى ، حتى كان فى ذلك هلاكُه وهلاك الرعيـة ، فإن وزيره ابن العلقمى الرافضى كان كتب كتابا إلى هولاكو ملك التتار فى الدشت : أنك تحضر إلى بغداد وأنا أسلمها لك . وكان قد داخل قلب اللَّعين الكفر . فكتب هولاكو : إن عساكر بغداد كثيرة ، فإن كنت صادقاً فيما قلته وداخلا فى طاعتنا فَرِّقْ عساكر بغداد ونحن نحضرُ ، فلما وصل كتابه إلى الوزير ، دخل إلى المستعصم وقال : إن جندك كثيرة ، وعليك كلفة كبيرة ، والعدوّ قد رجع من بلاد العجم ، والصواب أنك تعطى دستوراً لخمسة عشر ألفاً من عسكرك ، وتوفر معلومهم . فأجابه المستعصم لذلك . فخرج الوزير لوقته ، ومحا اسم من ذكر من الديوان ، ثم نفاهم من بغداد ومنعهم من الإقامة بها ، ثم بعد شهر فعل مثـل فعلته الأولى ، ومحا اسم عشرين ألفاً من الديوان ثم كتب إلى هولاكو بما فعل . وكان قصد الوزير بمجىء التتار أشياء ، منها : أنه كان رافضيا خبيثا ، وأراد أن ينقل الخلافة من بنى العباس إلى العلويين ، فلم يتم له ذلك ، من عظم شوكة بنى العباس وعساكرهم ، فَأَفْكَرَ أن هولاكو إذا قدم يقتل المستعصم وأتباعه ، ثم يعود إلى حال سبيله ، وقد زالت شوكة بنى العباس ، وقد بقى هو على ما كان عليـه من العظمة والعساكر وتدبير المملـكة ، فيقوم عند ذلك بدعوة العلويين الرافضة من غير ممانعٍ لضعف العساكر ولقوته ، ثم يضع السيف فى أهل السُنَّة .

فهذا كان قصده ، لعنه الله .

ولما بلغ هولاكو ما فعل الوزير ببغداد ، ركب وقصدها إلى أن نزل عليها ، وصار المستعصم يستدعى العساكر ويتجهز لحرب هولاكو وقد اجتمع أهل بغداد وتحالفوا على قتال هولاكو ، وخرجوا إلى ظاهر بغداد ، ومشى عليهم هولاكو بعساكره ؛ فقاتلوا قتالا شديداً ، وصبر كل من الطائفتين صبراً عظيما ؛ وكثرت الجرحى والقتلى فى الفريقين ، إلى أن نصر الله تعالى عساكر بغداد وانكسر هولاكو أقبح كسرة ؛ وساق المسلمون خلفهم ، وأَسَرُوا منهم جماعة ؛ وعادوا بالأسرى ورءوس القتلى إلى ظاهر بغداد ، ونزلوا بخيامهم مطمئنين بهروب العدوّ . فأرسل الوزير ابن العلقمى فى تلك الليلة جماعة من أصحابه فقطعوا شطر الدجلة ؛ فخرج ماؤها على عساكر بغداد وهم نائمون ؛ فغرِقت مواشيهم وخيامهم وأموالهم ، وصار السعيد منهم من لقِىَ فرساً يركبها . وكان الوزير قد أرسل إلى هولاكو يعرّفه بما فعل ؛ ويأمره بالرجوع إلى بغداد ، فرجعت عساكر هولاكو إلى ظاهر بغداد فلم يجدوا هناك من يردّهم ؛ فلما أصبحوا استولَوا على بغداد ؛ وبذلوا فيها السيف ، ووقعت منهم أمور يطول شرحها .

والمقصود أن هولاكو استولى على بغداد وأخذ المستعصِمَ أسيراً ، ثم بذل السيف فى المسلمين ، فلم يرحم شيخاً كبيراً لكِبَرِه ، ولا صغيراً لِصِغره .

ولما أُخذ الخليفة أسيراً هو وولده أُحضر بين يديه ، وأمر به هولاكو ، فأُخرج من بغداد ، وأنزله بمخيم صغير بظاهر بغداد هو وولده . ثم فى عصر ذلك اليوم وُضع الخليفة وولده فى عِدْلَيْن وأمر التتار برفسهما إلى أن ماتا فى المحرم سنة ست وخمسين وستمائة ، ثم نُهبت دار الخلافة ومدينة بغداد ، حتى لم يبق فيها لا ما قل ولا ما جل . ثم أُحرقت بغداد بعد أن قُتل أكثر أهلها ، حتى قيل إن عدّة من قُتل فى نوبة هولاكو يزيد على ألفِ ألفٍ وثلاثين ألف إنسان . وانقرضت الخلافة من بغداد بقتل المستعصم هذا ، وبقيت الدنيا بلا خلافةٍ سنين ، إلى أن أقام الملك الظاهر بيبرس البندقدارى بعض بنى العباس فى الخلافة ، حسبما يأتى ذكره على سبيل الاختصار .

وكانت خلافة المستعصم خمسَ عشرَة سنة وثمانية أشهر وأياماً ، وتقدير عمره سبع وأربعون سنة . وزالت الخلافة من بغداد .

قال الشاعر :

خلت المنابر والأسِرَّة منهم فعليهم حتى الممات سلام

أما الوزير ابن العلقمى فلم يتم له ما أراد من أن التتار يبذلون السيف فى أهل السنة ، فجاءوا بخلاف ما أراد ، وبذلوا السيف فى أهل السنة والرافضة كلهم ، وهو فى منصِبه مع الذل والهوان ، وهو يظهر قوة النفس والفرح ، وأنه بلغ مراده ، فلم يلبث أن أمسكه هولاكو بعد قتل المستعصم بأيام ، ووبّخه بألفاظ شنيعة معناها : أنه لم يكن له خير فى مخدومه ولا فى دينه ، فكيف يكون له خير فى هولاكو ؟

ثم إنه قتله شر قِتلة ، فى أوائل سنة سبع وخمسين وستمائة .

إلى سقر ، لا دنيا ولا آخرة ! » . اهـ

***

وما كادت الأمة تفيق من غشيتها حتى جاء تيمورلنك فأعاد سيرة أجداده جنكيزخان وهولاكو ، واجتاح أسيا الصغرى ، وأكثر فى الأرض الفساد والتخريب والقتل .

والشام التى استعصت على هولاكو لم تستعص على تيمورلنك ، فخربها فيما خرب ، وقتل علماءها فيمن قتل ، ومات سنة ٨٠٧ بعد أن عصف بالبلاد عصفة ثانية .

فلا عجب بعد هذا كله أن تذبل الحياة العلمية والأدبية فى العالم العربى ، وأن يكون طابع النتاج العقلى والفنى طابع تقليد للسابقين ، أو جمع لما قال الأولون ، وألا ترى ابتكاراً إلا فى القليل النادر .

لقد أُغلق الشرق على نفسه من القرن الثالث عشر الميلادى إلى نهاية القرن الثامن عشر تقريباً ، فلم يتصل بالغرب إلا اتصالا عدائيا حربيا فى الحروب الصليبية ، أو اتصالا تجاريا ضعيفاً ، أما اتصالا ثقافيا علميا أدبيا فلا . ولهذا لما بدأ الغرب فى القرن الخامس عشر والسادس عشر يضع أساس نهضته فى العلوم والفنون والسياسة والاجتماع والاقتصاد وغير ذلك مما غير وجه حياته تغييراً تاما لم يصل إلى الشرق شىء منها ، ولم يشعر بها ، واستمر فى دائرته المغلقة يقلد حياة الشرق الأولى من غير روح ، ولم يتنبه للحياة الجديدة فى الغرب إلا عند غزو نابليون مصر .

العراق وماحوله أفسده وخربه التتار ، وعرب الأندلس انسحبوا أمام غزوات الأسبان ، وبلاد الغرب أصبحت فريسة للبربر ، ومصر والشام خضعتا لاستبداد المماليك ثم الأتراك العثمانيين . فكيف نرجى من هذا كله نهضة علمية أو أدبية ، ولا حرية لأهل البلاد ، ولا عدل حكام ، ولا استقاء من منابع جديدة تحرك الركود ؟ لذلك كان أكثر ما نعرضه من الحياة العلمية والأدبية حياة تقليدية لما كان قبل سقوط بغداد غالبا .

وفى هذه الحقبة من التاريخ كانت أصلح بقعة فى العالم العربى للعلم والأدب هى مصر والشام ، لأنهما أمنا من تخريب هولاكو — أولا — وأمنت مصر من تخريب تيمورلنك ثانياً ، ولأنهما كانتا تحت حكم المماليك ، وهم كانوا أرحم من التتار ، وكانوا يجلبون من بلاد مختلفة ليس لهم فيها تاريخ ولا لغة ولا أدب يتعصبون له ، ثم رأوا أن البلاد التى يحكمونها تتعصب للغتها ودينها وتاريخها ، ورأوا أن الحاكم لا بد لسهولة حكمه أن يجاريهم فى شعورهم الدينى واللغوى ؛ فتحببوا إلى الناس بمظاهر الدين ، ومظاهر اللغة والأدب ، وأكثروا من بناء المساجد والمدارس ، وقربوا العلماء والشعراء ، فحيى العلم والأدب فى حمايتهم مالم يحى مثله فى سائر البلاد العربية ، فازدحمت القاهرة والاسكندرية وأسيوط وقوص — فى مصر ، ودمشق وحلب — فى الشام ، بالعلماء والمدارس والمكاتب ، ونشطت الحياة العلمية والأدبية ولكن فى الحدود التى رسمناها من قبل .

(ا) الشعر :

كان الشعر العربى فى العصر العباسى وقبله شعراً أرستقراطيا فى الأعم الأغلب ، يزهر فى بلاط الخلفاء ، وتصور الأمراء ، ولهذا كان أكثره مديحاً ، وقلّ أن نجد شاعراً يشعر فى نقد المجتمع أو تحليل مشاعره ، كما فعل أبو العلاء المعرى . وبجانب هؤلاء شعراء غنوا لأنفسهم فى حبهم وغزلهم أو ولوعهم بالخمر كأبى نواس ، ولكنهم بجانب شعرهم هذا هم شعراء مداحون أيضاً ، متصلون بالبلاط والأمراء ، يعتمدون عليهم فى معيشتهم ، وقلّ أن نجد مثل العباس بن الأحنف الذى يشعر لحبه فقط .

ولهذا كان عماد الشعر هم الخلفاء والأمراء فى مجالسهم وذوقهم ، وكان هؤلاء الخلفاء والأمراء يتذوقون الشعر ، ويعرفون جيده ورديئه ، وكثير منهم يشارك فى قوله ، ويثيب

عليه بمقدار جودته وخدمة أغراضه . فلما سقطت بغداد ، وأصبح البلاط بلاط أعاجم ، والأمراء ومن بيدهم مقاليد الأمور أعاجم ، لا يحسنون العربية ، ولا يتذوقون المديح وإن أثابوا الشعراء فعن تقليد لا عن ذوق ، ضعف هذا النوع وهو أكثر الشعر ، وصار تقليداً ضعيف الروح ، فاتر الحرارة مهلهل النسج .

ثم لم يكن الجو جو حرية تنمو فيه مشاعر الفنان فيغنى لنفسه ، ويشعر لعواطفه ، بل كان الجو خانقاً ، وعيشة الشعب ضنكا ، ومن لم يكن من طبقة الحكام وأتباعهم جاهد فى الحياة جهاداً مرا لتحصيل القوت ، ومحال أن تنمو مشاعر الفنان الذى يريد أن يغذى مشاعره ومشاعر من حوله بفنه فى هذا الجو الخانق البائس ؛ ثم أصيب الفن بفكرة قاتلة ، وهى ظن أهله أن قيمته فى كثرة حليته ، كالفلاحة الساذجة ترى أن جمالها فى ملء يديها بالأساور الكثيرة ، وصدرها بالعقود الضخمة ، وأذنها بالقرط الثقيل الوزن ، ورجلها بالخلخال الضخم ، وثيابها بما يبرق ويلمع ، فإن لم تفعل ذلك لم يكن جمالا ، وهيهات أن تفهم أن هناك جمالا للبساطة يفوق جمال التركيب والتعقيد ، وأن جمال السوار ليس فى ضخامته ، ولا القرط فى ثقل وزنه ، ولا الثوب ببريقه ولمعانه ؛ فقد يكون سوار بسيط فيه من الجمال ما يفوق أضعافه وزناً ، وأن من الألوان الباهتة ما يفوق الألوان الصارخة . ولكن هذا الجمال الذى أدركه أمثال البهاء زهير لم يدركه كثير من شعراء هذا العصر وكتابه ، وأفسدهم أمثال الصاحب بن عباد ، وابن العميد ، والقاضى الفاضل ، والعماد ، وشعراء البديع ، فظنوا أن الفن هو الحلية . وما زال كل جيل يأتى يتفنن فى زيادة هذه الحلية حتى ثقلت عليه وأعجزته عن الحركة وأفقدته روحه .

وما أكثر من نجد فى هذه العصور من أسماء الشعراء ، ولكن ما أقل من نجدهم من الشعراء حقا .

لقد كان الشعر تقليداً . يقرأ الشاعر من المتأخرين ما تصل إليه يده من دواوين السابقين ، ويستل معانيهم ، ويصوغها صياغة من عنده هى فى الأغلب أقل قيمة من صياغة من سبقه وإن زاد فى حليتها . كما قال مجير الدين بن تميم الأسعردى الذى توفى بحماة سنة ٦٨٤ :

أطالع كل ديوان أراه ولم أزجر عن التضمين طيرى

أضمن كل بيت فيه معنى فشعرى نصفه من شعر غيرى

والشاعر يقلد ولو لم يذق ، يكون رجل دين فيتغزل فى الخمر ، وعفيفاً فيتغزل فى المذكر ، وفى وسط المدينة فيبكى الأطلال والدمن ، وهكذا من أنواع التقليد السمج .

ولما فقدوا المعانى والعواطف عمدوا إلى الزينة يفرطون فيها لتكون عوضاً عما فقدوا ، وهيهات أن تعوّض الروح بمادة ، فأسرفوا فى التورية ، كقول نصير الدين الحمّامى وكتب به إلى السراج الوراق ، وكان يسكن « الروضة » .

كم قد ترددت للباب الكريم لكى أبل شوقى وأحيى ميت أشعارى
وأنثنى خائباً مما أؤمله وأنت فى « روضة » والقلب فى نار

والتضمين كقول أبى الحسين الجزار :

قفا نبك من ذكرى قميص وسروال ودراعة لى قد عفا رسمها البالى
وما أنا من يبكى لأسماء إن نأت ولكننى أبكى على فقد أسمالى

والاقتباس كقول ابن العفيف التلمسانى :

يا عاشقين حاذروا مبتسما من ثغره
فطرفه الساحر مذ شككتمُ فى أمره
يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره

وهكذا تفننوا فى أنواع البديع ، وتسابقوا فى استكشافها وتسميتها والإكثار من القول فيها ، حتى أوصلها ابن حجة الحموى إلى ١٤٢ نوعا ، زادها من أتى بعده أيضاً وجاءوا فى شعرهم بأمثلة كثيرة منها :

ومما كثر فى هذه العصور وذاع وشاع المدائح النبوية ، فكأنهم لما حرموا عطاء الملوك والأمراء على مدائحهم ، وغلب على الناس الالتجاء إلى الدين لفساد الدنيا ، وشاع التصوف سواء ما كان منه صحيحا أو مزيفاً ، كثر اتجاه الشعراء إلى المدائح النبوية ، وكان كل شاعر يتفوق فى الشعر يرى واجباً عليه أن يقول فى هذا الباب . وكان من أسبقهم فى هذا البوصيرى المصرى (١٢١١ — ١٢٩٤) وقد قلد قصيدة « بانت سعاد » لكعب بن زهير . وكان البوصيرى من تلاميذ أبى العباس المرسى فى التصوف ، وكان

فقيراً كثير الشكوى من كثرة الأولاد ، وكان كاتباً صغيراً من كتاب الحساب ، وقد مدح الأمير التركى أيدمر واستجداه فى قصيدة بلغت ٣١٠ من الأبيات .

وأهميته الكبرى فى مدائحه النبوية ، فقد أنشأ البردة التى مطلعها :

أمن تذكر جيران بذى سلَم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

وهى فى ١٥٩ بيتاً .

والهمزية التى مطلعها :

كيف ترقى رقيَّك الأنبياء يا سماء ما طاولتها سماء

وهى طويلة ذكر فيها حياة الرسول ومعجزاته وغزواته .

وذخر المعاد على وزن « بانت سعاد » ، وهى ٢٠٦ .

وقد راجت قصائده هذه رواجا كبيراً بين الشعب ، وخاصة البردة والهمزية ، لأن شعره فيهما من أحسن الشعر فى نظر أهل العصر ، ولأنهما تتفقان ومشاعر الجمهور وميله إلى الابتهال وتجاوبان مطالب نفسه .

ومن عظم شأن البردة أن كانت مَثَل كثير من الشعراء يقلدونها إلى زمن البارودى ، فقال على وزنها وقافيتها قصيدته :

يا رائد البرق يمم دارة العلم واحد الغمام إلى حى بذى سلم

وشوقى فى قصيدته « نهج البردة » ومطلعها :

رِيم على القاع بين البان والعلم أحلَّ سفك دمى فى الأشهر الحرم

وأكثرَ الناس من تشطيرها وتخميسها .

وتفنن المقلدون للبردة كل تفنن ، فمن ذلك أنهم وضعوا قصائد فى المديح النبوى ضمنوها كل أنواع البديع ، فكل بيت فيه نوع من البديع وفيه تمثيل له ، وسميت كل قصيد « بديعية » ، وبدأ ذلك صفى الدين الحلى (٧٥٠ هـ) فعمل بديعيته التى أولها :

إن جئت سلعا فسل عن جيرة العلم واقر السلام على عُرب بذى سلم

وجاء بعده ابن نباتة (٧٦٨) فعمل بديعيته :

صحا القلب لولا نسمة تتخطر ولمعة برق بالفضا تتسعر

وجاء عز الدين الموصلى (٧٨٩) فزاد على ذلك أن جعل البيت من القصيدة يحمل اسم النوع البديعى وأولها :

براعة تستهل الدمع فى العلم عبارة عن نداء المفرد العلم

وتبعه ابن حجة الحموى (٨٣٧) فعمل بديعيته المشهورة على هذا المنوال ومطلعها :

لى فى ابتدا مدحكم ياعرب ذى سلم براعة تستهل الدمع فى العلم

الخ الخ . . .

وهكذا سال سيل هذا النوع من الشعر فى ذلك العصر فما وجد الشعراء بابا يفتح للتقليد حتى ازدحموا عليه ، وأوسعوه قولا ، وما أسهل التقليد وأصعب الابتكار .

وقد ترجمت البردة إلى الفرنسية والإنجليزية والألمانية .

***

وأكثروا من المقطعات فى وصف الأشياء المألوفة كوصف سجادة ووصف مسبحة، وفى الحوادث التى تعرض كوصف سقوط مئذنة وقتل زنديق ، كما أكثروا من الأبيات فى الألغاز وأمثال ذلك من موضوعات خفيفة

وفى العصر العثمانى أكثروا من مقطوعات التاريخ وعدوه نوعا من البديع ، وهو أن يأتى الشاعر بكلمات إذا حسبت حروفها بحساب الجُمَّل بلغت عدد السنة التى يريدها الشاعر ، فأرخوا لقدوم وال وعرس غنى وموت عالم .

وأفرطوا فى أقوال الهجر بألفاظ عارية صريحة لا تورية فيها ولا إيماء ، مع ضعف فى الأسلوب وضعة فى المشاعر وإغارة على معانى السابقين .

وعلى الجملة فقد سقط الشعر أسلوبا ومعنى وعاطفة وخيالا إلا فى القليل النادر .

شهد هذا العصر فى أوله « صفى الدين الحلى » وقد عده بعضهم أكبر شعراء عصره (١٢٧٨ — ١٣٥١م) وقد ولد فى الحلة (مدينة كبيرة فى العراق على شاطئ الفرات) وزار القاهرة فى عهد الملك الناصر ، ثم عاد إلى ماردين واتصل ببلاط الأسرة الأرتقية فى ماردين وكان شاعرها .

وهو يمثل أكبر تمثيل شعر عصره من التصنع واللعب بأنواع البديع . فمثلا أنشأ القصائد

الأرتقيات وهى تشتمل على ٢٩ قصيدة كل قصيدة ٢٩ بيتا ، وكل قصيدة لحرف من حروف الهجاء ، يبتدئ كل بيت به وينتهى به ، فقصيدة أول كل بيت فيها همزة وآخره همزة وهكذا . ومحال أن تجتمع الروح الشعرية العالية مع هذا التصنع البالغ . وكلها فى مدح الملك المنصور الأرتقى الذى حكم ماردين من سنة ١٢٧٤ — سنة ١٣١٢ ، وقد قال شعرا فى مصر فى مدح ملكها ، وقد ترجم شعره المصرى إلى اللاتينية والألمانية ، وطبع ديوانه فى دمشق و بيروت ، ومن أحسن شعره قوله :

إن غبت عن عِيانى ... يا غاية الأمانى
فالفكر فى ضميرى ... والذكر فى لسانى
ما حالَ عنك عهدى ... ولا انثنى عِنانى
شوقى إليك باقٍ ... والصبر عنك فانى

وقوله :

قد نشر الزنبقُ أعلامه ... وقال : كلُّ الزهر فى خدمتى
لو لم أكن فى الحسن سلطانَه ... ما رُفِعَتْ من دونه رايتى
فقهقه الورد به ساخراً ... وقال ما تحذر من سطوتى ؟
وقال للسَّوْسَنِ ماذا الذى ... يقوله الأشيبُ فى حضرتى ؟
فامتعض الزنبق من قوله ... وقال للأزهار يا رفقتى
يكون هذا الجيش بى محدقاً ... ويضحك الورد على شيبتى

ومن مُلَحه الطريفة الدالة على نزعَة تجديدية قوله :

إنّما الحَيْزَبُون والدَّرْدَبِيسُ ... والطَّخَا والنقاخُ والعَلْطَبِيسُ
لُغةٌ تَنْفِر المسامع منها ... حين تُرْوَى وتَشْمَئِزُّ النفوسُ
وقبيحٌ أن يُذكرَ النافرُ الوَحْـ ... ـشِيُّ منها ويُترَكَ المأنُوسُ
أينَ قولِى : هذا كَثِيبٌ قديمٌ ... ومَقالى : عَقَنْقَلٌ قَدْمُوسُ
خَلِّ للأَصْمَعِىِّ جَوْبَ الفيافى ... فى نِشَافٍ(١) تَخِفُّ فيه الرءوس

(١) النشاف : الحجارة السود .

إنما هـــذه القلوبُ حديدٌ ولَذيذُ الألفاظ مِغْناطِيسُ

***

وتنوَّعتْ بُسُط الرِّياض ؛ فزَهْرُها متبـــاينُ الأشكال والألوان :
من أبيضٍ يقَقٍ ، وأصفرَ فاقع ، أو أزرقٍ صاف ، وأحمـــرَ قانى
والظلُّ يَسْرِقُ فى الخمائلِ خَطْوَه والغُصْن يَخطِرُ خِطْرَةَ النَّشْـــوان
وكأنما الأغصانُ سوقُ رَوَافص قد قُيِّدَتْ بسَـــلاسِلِ الرَّيْحان
والشمسُ تَنْظُرُ من خلال فروعها نحوَ الحـــدائق نَظْرَةَ الغيْرَان
والطَّلْعُ فى خَلَلِ الكِمام كأنه حُلَلٌ تَفَتَّقُ عن نُحور غَوَانى
والأرض تعجَب كيف تضحَك والحيَا يَبْكى بدمعٍ دائمِ الهَمَـــلان
فاصرِفْ همومَك بالربيعِ وفضْـــلِه إن الربيعَ هو الشبابُ الثانى

كما اشتهر ابن نباتة (١٢٨٧ — ١٣٦٦) وقد ولد فى ميافارقين ونشأ فى مصر ، ورحل إلى دمشق واتصل بالملك المؤيد أمير حماة وكان كاتبا له ، ودعاه السلطان حسن ليكون كاتبه فى مصر فلبى الدعوة ولكن السلطان مات فى السنة التالية ، وقد خلف لنا ديوان شعر ، وهو كثير الشكوى فيه من فقره و بؤسه وشيبه وزمانه وكثرة أولاده ، ومن أمثلة شعره قوله :

مَنَعَتْنى الدنيـــا جَنَى فتزَهَّدْ تُ ولكن تزَهُّدَ المغلوب
ووَهَتْ قوَّتى فأعرضتُ كرْهًا عن لقاءِ المكروه والمحبوبِ

لا عارَ فى أدبى إن لم ينلْ رُتَباً وإنما العارُ فى دَهْرى وفى بلدى
هذا كلامى وذا حظى فيا عَجَبًا منى لثروة لفظ وافتقارِ يَدِ

لقـد أصبحتُ ذا عمرٍ عجيبٍ أُقَضِّى فيـه بالأنْكادِ وَقتِى
من الأولاد خمسٌ حـــول أُمٍّ فوَاحَرباه من خمس وستّ !

تركتُ المالَ والجـــاهَ لأهل القَدرِ والقُـــدْره
فحَسْـبى من حِمًى كِسْرٌ وحَسْبى من غِنًى كِسْرَه

لقـد أصبحت فى حالٍ يرقُّ لمثلها الحـــجرُ

مشيبٌ وافتقـــــارُ يدٍ فـــلا عينٌ ولا أثرُ

وقالوا فلانٌ رَمَّ بالشـعر عيشَه فياليتَ أنى ميتٌ لستُ أشعر
تَصَرَّمَ أقصى العمر أدعوكَ للمُنَى وأرقبُ آفاقَ الرجاء وأنظـر
وأصـــبِر والأيامُ تقتلنى أسًى فها أنا فى الدنيا قتيلٌ مُصَبَّرُ
أرى دون حظِّى مَسْلـكاً متوعِّرًا إذا ما جرتْ فيه المُنَى تتعثَّرُ
ويحمرُّ دمعى حين تصفرُّ وَجنتى فألبَسُ ثوبَ الهمِّ وهو مُشهَّرُ
ولا ذنب لى عند الزمان كما ترَى سوى كَلِمٍ كالروضِ تَبْهَى وتبهَر

ومما شُغِفَ به ابن نباتة مراعاة النظير ، كقوله :

وكنتُ أخا سُعْدَى فأصبحتُ عمَّها فهيهات لى جَدٌّ بتقبيل خالها

وقد تنازع صفى الدين الحـلى ، وابن نباتة المصرى زعامة الشعر فى عصرهما ، هذا فى مصر وذاك فى العراق ، وقالا الشعر فى كل الأغراض التى قال فيها الشعر من سبقهما ، من غزل ، وخمريات ، ومديح ، وشكوى ، ويغلب على ابن نباتة الشكوى ، ويغلب على صفى الدين الفخر والمديح ، وقد كانت نفسية ابن نباتة أضعف ، فقد عاش أكثر حياته فى ظل الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وقد كان مستبدا جباراً ، وعهـده مملوء بالفتن والقلاقل ، وقد دعاه حذره إلى كثرة سفكه للدماء ومصادرته للأموال والإفراط فى التجسس ، فأمات بذلك النفوس ؛ هذا إلى أن ابن نباتة كان مرزَّأً من فقر ، وكثرة عيال ، وموت أطفال ، ومن أجل ذلك لا ترى فى شعره هجاء قويا ولا نقداً لعمل من الأعمال ، ولا التفاتاً إلى الشعب ، وظلم الراعى له ، وإذا عاتب عاتب عتابا رقيقاً كقوله :

لئن ضاع مثلى عند مثلك إننى لعمر المعالى عند غيرك أضـيع
متى تنجع الشكوى إذا أنا لم أجد لديك اعتناء غير أنك تسـمع

وإذا عادى أحداً فوض أمره إلى يوم الحساب :

لى خصوم ولست الآن شاكيهم لـكنهم فى غد يدرون أين شكوا

ولـكن صفى الدين الحلى كان أقوى وأكثر اعتداداً بنفسه ، يقول الـكثير فى الفخر من مثل قوله :

وفتيـة إن نقل أصغوا مسامعهم لقولنـا أو دعوناهم أجابونا
قوم إذا استُخصموا كانوا فراعنة يوما وإن حُـكّموا كانوا موازينا

وعلى الجملة فـكان شعر صفى الدين أجزل وأقوى ، وأقرب إلى الديباجة العربية العباسية ، وأقل احتفالا بالبديع ، وكان ابن نباتة أسهل وأرق وأملأ بالفـكاهة ، وأكثر زينة بأنواع البديع .

وكان بين الشاعرين صلة ود ، تبادلا الشعر ، وتقارضا المديح ، وكان كل منهما مثالا يحتذى لشعراء عصره .

ثم البوصيرى وقد تقدم ذكره .

ثم الشاب الظريف ، وهو محمد بن سليمان ، ولد بمصر سنة ٦٦١ هـ ومات شابا ، وقد كان أبوه عفيف الدين التلمسانى شاعرا كذلك محسنا .

والشاب الظريف شاعر غزل خفيف الروح ، أولع بالبديع كأهل زمانه ولـكنه استعمله فى رقة وعذوبة ، كقوله :

عَفَا الله عن قوم عفا الصبرُ منهمُ فلو رُمْتُ ذِكرَى غيرهم خاننى الفمُ
تَجَنّوْا كأن لا ودّ بينى وبينهم قديماً وحتى ما كأنهـــمُ همُ
وبالجِزع أحبابٌ إذا ما ذكرتُهم شَرِقْتُ بدمع فى أواخـــره دمُ
ألَمّ وما فى الرَّكْبِ منا مُتَيَّمٌ وعاد وما فى الركب إلا مُتَيَّمُ
وليس الهوَى إلا التفاتَةَ طامِحٍ يروقُ لعينيـــه الجمالُ المُنعَّمُ
خليلىّ ما للقلب هاجتْ شجونه وعاوَدَه داءٌ من الشوق مؤلمُ
أظنُّ ديار الحىِّ منـــا قريبةً وإلا فمنهـــا نَفْحَةٌ تُتَنَسَّمُ

وقال فيما يجد العاشق وما يصنع :

لا تُخْفِ ما فعلتْ بكَ الأشواقُ واُشرحْ هواكَ فـكلُّنا عُشّاقُ
فعَسى يُعينُكَ من شكوتَ له الهوَى فى حَمْلِهِ ، فالعاشـــقون رِفاقُ
لا تَجْزَعَنَّ فلستَ أولَ مُغْرمٍ فتكتْ به الوَجَنَاتُ والأحْدَاقُ

وَاُصبِرْ عَلَى هَجْرِ الحبيب فربَّما عاد الوصالُ . وللهوَى أخْلاقُ
كم ليلةٍ أسهرتُ أحداقى بهـا وَجْدًا وللأفكارِ بى إحْداقُ
يارِبِّ قد بَعُدَ الذينَ أُحِبُّهُمْ عنِّى وقد أَلِفَ الفِراقَ فِراقُ
وَاُسودَّ حظى عنـدهم لمّا سَرَى فيهِ بنارِ صَـبابتى إحْراقُ
عُرْبٌ رأيتُ أصحَّ مِيثاق لهم أَلّا يَصِحَّ لَدَيْهِمُ مِيثاقُ

ثم سراج الدين الورّاق (١٢١٨ — ١٢٩٦) وهو شاعر مكثر ، ملأ شعره كثيراً من الكتب التى تعرض للنماذج الشعرية . عمل فى الديوان المصرى . وقد قالوا إن شعره يبلغ ثلاثين جزءا ولم يبق منه الآن إلا مقتطفات جمعها الصفدى .

ومن أمثلته :

قال فى شكر الله على نعمائه :

إلٰهى لقـد جاوَزْتُ سبعين حِجَّةً فشُكْرًا لنُعْماك التى ليس تُكْفَرُ !
وعُمِّرْتُ فى الإسلام فازْدَدْتُ بَهْجَةً ونُورًا ، لذا قالوا : السراجُ المعمَّر
وعمَّمَ نُورُ الشيبِ رأسى فسَرَّنى وما ساءنى أن السِّراجَ مُنوَّر

وقال فى لوم النفس على المعصية :

يا خَجْلَتِى وصحائفِى سود غَدَتْ وصحائفُ الأبرارِ فى إشراقِ
ومُوَبِّخ لى فى القيامةِ قال لى : أكذا تكونُ صحائفُ الوَرّاق ؟

وقال فى الترفع :

أَصُونُ أديمَ وجْهى عن أُناسٍ لقاءُ الموت عندهمُ الأديبُ
ورَبُّ الشِّعْرِ عنـدهمُ بَغيضٌ ولوْ وَافَى به لهمُ حَبيب

وقال فى الحنين إلى الأحباب :

وَقَفْتُ بأطْلالِ الأَحِبَّـةِ سائلاً وَدَمْعِى يَسْقِى ثَمَّ عَهْدًا وَمَعْهَدَا
وَمِنْ عَجَبٍ أَنِّى أُرَوِّى دِيارَهُمْ وَحَظِّى منها حِينَ أَسْأَلُها الصَّدَى

ثم ابن الوردى المولود فى معرة النعمان ١٢٩٠ والمتوفى فى حلب ١٣٤٩ وقد كتب فى النحو والفقه والتصوف ؛ وقد اشتهر فى الشعر بقصيدته فى الحكم والمواعظ منها قوله :

اعتزلْ ذِكْرَ الأغانِى والغَزَلْ وقل الفصلَ وجانبْ من هَزَلْ

ودع الذكرَ لأيام الصِّبا فلأيام الصِّبا نجمٌ أفَلْ
إن أهنا عيشةٍ قضيتها ذهبتْ لذاتُها والإثمُ حَلْ
واهجر الخمرةَ إن كنت فتًى كيف يَسْعَى فى جنون من عَقَلْ
صدِّقِ الشرعَ ولا تركَنْ إلى رَجُلٍ يرصُدُ بالليل زُحَلْ
حارتْ الأفكارُ فى قدرة مَن قد هدانا سبْلَنا عز وجل
كُتب الموت على الخلق فكم فَلَّ من جمع وأفنى من دول

ثم ابن حجة الحموى (١٣٦٦ — ١٤٣٤) ولد فى حماة وزار الموصل ودمشق ومصر، ورأى دمشق وهى تحترق أثناء حصار السلطان برقوق لها ووصف ذلك فى رسالة بعث بها إلى «ابن مكانس». وقد اشتهر فى شعره بالمدائح النبوية وبما أنشأ فى ذلك من بديعية، وقد جمع شعره الذى ألفه فى الشام ومصر، وألف كتابا فى مختارات من النثر والنظم سماه «ثمرات الأوراق».

***

ويصح أن نقف وقفة عند شاعر مشهور فى ذلك العصر وهو عبد الغنى النابلسى (١٦٤١ — ١٧٣١) وهو شاعر صوفى على الطريقة النقشبندية والقادرية، وقد ولد فى دمشق من أسرة من أصل نابلسى وقد تعلم علوم الدين، ثم غلبت عليه النزعة الصوفية، وقد سافر إلى القسطنطينية سنة ١٦٦٤، وعاد منها إلى البقاع ولبنان، وفى سنة ١٦٩٣ رحل إلى مصر ثم إلى الحجاز، ثم عاد إلى الصالحية بدمشق، وقد شرح ديوان ابن الفارض، وله شعر صوفى كثير سار بين الناس، وقد أعاد لنا فى شعره نغمة من نغمات ابن الفارض وابن العربى تُشعر بوحدة الوجود.

وقد اشتهر فى العصر العثمانى من المصريين، عائشة الباعونية، اشتهرت بمدائح الرسول أيضا، وعبد الله الشبراوى وهو من أكابر شيوخ الأزهر، أغرم بالشعر وقال قصائد فى المدائح النبوية والغزل، ومن أمثلة شعره قوله فى مدح آل البيت:

آلَ طه ومَن يقل آلَ طه مستجيراً بجاهكم لا يردُّ
حبُّكم مذهبى وعَقْدُ يقينى ليس لى مذهب سواه وعَقد
منكمُ أستمدُّ بل كلُّ مَن فى الـ ـكَوْنِ من فيض فضلكم يستمدُّ

بيتكمُ مَهْبطُ الرسالة والوحْـ ـيِ ومنكم نورُ النبوةِ يبدو
ولكم فى العُلاَ مقامٌ رفيعٌ ما لكم فيه آلَ ياسينَ نِدُّ
يا ابنَ بنتِ الرسولِ من ذا يُضاهيـ ـكَ افتخاراً وأنت للفخر عِقْدُ
يا حُسيناً هل مثلُ أُمِّكَ أُمٌّ لشريفٍ أو مثلُ جدِّكَ جَدُّ

ويقول فى بعض أسفاره متشوقا إلى مصر :

أَعِدْ ذِكْرَ مصر ؛ إنَّ قَلْبِيَ مُولَعٌ بمصر، ومَنْ لِي أَنْ تَرَى مُقْلَتِي مِصْرا ؟
وكرِّرْ عَلَى سَمْعِي أحاديثَ نِيلِها ؛ فقد ردَّتِ الأمواجُ سائلَهُ نَهرَا
بلادٌ بها مدَّ السَّماحُ جَناحَه وأَظهرَ فيها المجدُ آيتَه الكبْرَى
رُوَيْدًا إذا حدَّثْتَنى عن رُبُوعِها ؛ فتطويلُ أخبارِ الهوَى لذَّةٌ أُخرى
إذا ضاحَ شُحْرُورٌ على غُصْنِ بانَةٍ تذكرتُ فيها اللَّحظَ والصَّعْدَةَ السَّمْرَا
عَسَى نحوها يَلْوِى الزمانُ مَطِيَّتِي وأشهدُ بعد الكَسْرِ من نِيلها جَبْرا
لقد كان لى فيها مَعَاهِدُ لذَّةٍ تَقَضَّتْ وأبقَتْ بَعْدَهَا أَنْفُسًا حَسْرَى

ومن الشاميين شمس الدين الهلالى ، وحسين بن الجزرى ، ومنجك باشا ، وأحمد بن الياس الكردى الخ .

وفى العراق ابن معتوق الموسوى (١٦١٤ — ١٦٧٦) ، وله ديوان مشهور امتلأ بمديح حكام من الفرس فى عهد الصفويين .

***

وهكذا تقرأ فى دواوين الشعراء فى ذلك العصر ، فتراها كرقعة الشطرنج تتحد حجارتها ، وتختلف أوضاعها ، وللحجارة أسماء من ذوات الروح كالفرس والفيل والجندى والوزير والشاه ، ولكن ينقصها الروح — وأقوال مرددة هى صدى لما قبلها ، ولذلك كثر فى هذا العصر التأليف فى السرقات الشعرية يقول البحترى :

فسقى الغضا والساكنيه وإن همو شبُّوه بين جوانحى وضلوعى

فيردده آخر بقوله :

إن الغضا لست أنسى أهله فهمو شبوه بين ضلوعى يوم بينهمو

وقد ذكروا أن صلاح الدين الصفدى بالشام أغار على معانى جمال الدين بن نباتة فى مصر ، فلم يترك له معنى إلا أخذه ، حتى اضطر ابن نباتة أن يؤلف كتابا يجمع فيه هذه السرقات سماه « خبز الشعير » ، واستهله بقوله : « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ولِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا » :

ومما ورد فى هذا الكتاب من أمثلة السرقة قول ابن نباتة :

بروحى طيب الأنفاس ألمى ملىّ الحسن حالى الوجنتين
له خالان فى دينار خد تباع له القلوب بحبتين

فقال الصلاح :

بروحى خده المحمر أضحت عليه شامة ، شرط المحبه
كأن الحسن يعشقه قديماً فنقّطه بدينار وحبه

فقال ابن نباتة : « لا إله إلا الله سرق الصلاح — كما يقال — من الحبتين حبة »

وتلتفت إلى الغرب وتستعرض قصة الشعر فيه فترى الشعر كان قبل « النهضة » كشعرنا أو أقل ، ثم عملت فيه عوامل الرقى كما عملت فى كل مرافق الحياة ، فبدأت الحياة تدب فيه وأخذ النزاع يثور بين الأدباء حول الكلاسيكية والرومانتية ، وأخذ التحول من الأرستقراطية إلى الديمقراطية ، ونبغ شيكسبير فى انجلترا ، وأمثاله فى أسبانيا وإيطاليا وفرنسا كما أسلفنا ، وأخذ هؤلاء الشعراء يفتحون فى الشعر أبوابا جديدة وآفاقا جديدة فى الموضوع وفى الأسلوب وفى الأوزان ، وأخذ الشعر يرقى شيئاً فشيئا ، كما أخذ الشعر العربى فى مثل ذلك العصر ينحط شيئاً فشيئا . وذلك تبعاً للبيئة الاجتماعية والسياسية . فالنهوض هناك شمل كل مرافق الحياة ومعها الفن ومنه الشعر . والحريات السياسية والاجتماعية أخذت تثمر ثمارها إذ كانت فى الشرق تختنق شيئاً فشيئا من ظلم الحكام ورفاهيتهم وفقر الشعوب وبؤسها ، ودعا الدعاة هناك إلى تقويم الدنيا كما تقوّم الآخرة وأن يستمتع بالحياة ما أمكن . وفى الشرق رأوا الاستمتاع بالحياة غير ممكن فى ظل ظلم الحكام فغرقوا فى التفكير فى الآخرة إلى حد التخريف ، ونسوا قول الله : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ التِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ والطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ » . ومما زاد الطين بلة أن عدوى الشرق مما يحدث فى الغرب لم تكن ، لأن الأبواب موصدة والحواجز

بين الاقليمين فى الأمور الثقافية متينة ، واستمر الحال على هـذا المنوال إلى دخول الفرنسيين مصر .

***

وقد اعتاد مؤرخو الأدب العربى أن يترفعوا عن تأريخ الأدب الشعبى وعرضه فى مختارهم ، مع أنه يمثل خير تمثيل ذوق الشعب ومشاعره . وقد كان فى هذا العصر نوع من الشعر الشعبى يقال ويتغنى به وتوصف به الأحداث وتحكى به المشاعر من موشحات وأزجال ودوبيت ومواويل وكان وكان .

وقد كثرت هذه الأنواع من الشـعر فى هذه العصر ، وتحرروا فيها من التقيد باللفظ الفصيح ، والنحو الصحيح واستراحوا فيه من قيود القوافى والأوزان ، وكان فى الواقع أكثر قبولا عند العامة ، بل وبعض الخاصة ، وأنبض بالحياة — وكان أقرب إلى نفس الملوك والأمراء أيضا لأنهم أقرب إلى العامة فى ذوقهم اللغوى .

وراج الزجل فى أيام بنى قلاوون وأيام برقوق وشغل به الناس .

واشتهر من الزجالين فى هـذا العصر « خلف الغبارى » وبدر الدين الفرضى وأحمد الدرويش وغيرهم .

ومن أمثلة ما قاله الغبارى فى مدح الملك الأشرف شعبان :

حبّ قلبى «شعبانْ» موفقْ رشيدْ ... وجمـــالو أشرفْ ومالو حدود
وأبوه الحسن وعمـــه الحسين ... وارث الملك من جدود الجدود
سلّ لَحْظكْ صارم لقتل العدى ... وأنت منصور طول المدى والسنين
زعق السعد بين يديك «جاويش» ... فرح القلب بعد ما كان حزين
ونصب لك كرسى على المملـكة ... ظهر لك نصره بفتحه المبين

وترى للشعر العامى أمثلة كثيرة فى قصة « الزير سالم » و « الزناتى خليفة » وفى بدائع الزهور لابن إياس .

وقد استعمله فى الفكاهة المرة الشـيخ الشربينى فى كتابه « هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف » الذى ألفه سنة ١٦٨٧ فكتبه باللغة العامية المصرية ، وجعل بطل القصيدة

« أبا شادوف » نموذجا للفلاح المصرى يصف فيها شقاءه و بؤسه وجهله وقلة ذوقه ، و يشير فى لباقة إلى أن ذلك نتيجة ظلم الحكام وقسوتهم فى استخراج الأموال وسوء معاملتهم للفلاح . فكان موضوع الكتاب على هذا الوضع منحى جديدا فى الأدب واتجاها به إلى الديمقراطية ، ووصفا للفلاح وكوخه الحقير ، حيث كان الأدب إنما يتجه إلى قصور الأمراء والملوك .

(ب) النثر :

كان النثر الفنى ينقسم إلى قسمين : كتابة ديوانية أو « رسمية » تستعمل فيما يصدر عن الحكومات أو السلاطين ، وقد أنشىء له ديوان خاص اسمه « ديوان الإنشاء » يشرف عليه أشهر من عرف بالأدب ، وكان رئيس هذا الديوان يجمع بين السياسة والقلم ، فإليه تنتهى أسرار الدولة ، ويتصرف فيها عن السلطان ، ومنه تصدر المكاتبات الهامة ، و إليه ترد ، وهو يشارك السلطان الرأى والمشورة ، ويتولى الكتابة فى أدق الأمور كالعلاقات الخارجية ، والأزمات السياسية ، والثورات الداخلية ، وتقليد المناصب ، ومكاتبات العمال والأمراء ، والإنباء بالوقائع الحربية ، ونحو ذلك ، ولذلك لا يكفى فى اختياره القدرة الكتابية ، بل القدرة السياسية أيضاً ، والثقافة الواسعة . وقد تولى هذا المنصب للمماليك فى مصر فخر الدين بن لقمان ، ثم محيى الدين بن عبد الظاهر ، ثم ابنه فتح الدين ، وعلاء الدين بن الأثير ، وشهاب الدين الحلى ، وابن فضل الله العمرى الخ . وقد صدر عن هذا الديوان كتب كثيرة كانت نماذج للأدب ، كما ألفت كتب كبيرة ليتربى عليها من يُعَدُّون لهذا المنصب .

وقد قوى هذا الديوان فى عصر المماليك ثم ضعف فى عصر الأتراك العثمانيين لما تحولت الكتابة الرسمية من العربية إلى التركية .

ويتميز هذا النوع من الكتابة بالمحافظة على الألقاب الرسمية ، فلا يوضع لأحد لقب أعلى ولا أقل من لقبه الرسمى ، وقد تواضعوا على مصطلحات فى ذلك كما نتواضع نحن الآن على التفرقة بين صاحب السعادة وصاحب العزة ، فقد اصطلحوا — مثلا — على أن يكون الأشرف أرفع من الشريف ، والشريف أرفع من الكريم ، والكريم أرفع من العالى

والعالى أرفع من السامى ، وركن الإسلام والمسلمين أرفع من عز الإسلام والمسلمين ، كما جعلوا اللقب الملحق به ياء النسبة أرفع من الخالى منها ، فالقاضوى أرفع من القاضى وهكذا

وقد وضعوا للكتابة فى الموضوعات المختلفة مناهج مختلفة ، ففى التهنئة بالنصر يتبسط الكاتب فى شكر الله ، وتعظيم النصر ، وذكر ما يتصف به الممدوح من عزم وإقدام وصبر ، ووصف جيش عدوه والتهويل فيه ، وبذل الجهد فى التغلب عليه ، والتنكيل به الخ ، وهكذا فى كل لون من ألوان الكتابة .

وقد عرض القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى نماذج كثيرة لهذا النوع من الكتابة فى العصور المختلفة .

وهذا النوع يحتاج — أول ما يحتاج — إلى دقة تامة فى التعبير ، فرب كلمة فى غير موضعها ، أو عبارة غير دقيقة أضاعت على الدولة فوائد كثيرة أو أوقعتها فى مضار كبيرة ، كما يحتاج إلى الوضوح التام حتى يفهم المعنى المقصود على حقيقته ، فإن احتيج إلى نوع من المحسنات فإظهار القوة فى موضع القوة ، واللين فى موضع اللين ، ومعرفة موضع نوع الكلام المكتوب فى نفسية المكتوب إليه ، حتى يؤدى الغرض المطلوب منه .

ومع هذا فقد انصرف كثير من كتاب هذا النوع عن هذه الأوصاف ومالوا إلى السجع ، والبديع ، والتورية ، والتضمين ، والاقتباس ، وما إلى ذلك كما فعلوا فى الشعر ، ولو أضاعوا فى ذلك جوهر الموضوع . وكان الذى يحمل كبر ذلك قديما ابن العميد ، والصاحب بن عباد فى الرى ، ثم القاضى الفاضل ، والعماد الإصفهانى فى مصر ، وهؤلاء وإن كان فى كتابتهم شىء من الروح ، فقد ضعفت أو فقدت على تقدم الزمان ، ونحن إن قسنا هذا النتاج الرسمى بمقياس زمننا استخرج منا التبسم .

وقد وصف القلقشندى حالة الكتابة فى عصره بقوله : « وإنما تقاصرت الهمم عن التوغل فى صناعة الكتابة ، والأخذ منها بالحظ الأوفى لاستيلاء الأعاجم على الأمر وتوسيده لمن لا يفرق بين البليغ والأنوك ، لعدم إلمامه بالعربية ، والمعرفة بمقاصدها ، حتى صار الفصيح لديهم أعجم ، والبليغ فى مخاطبتهم أبكم ، ولم يَسَع الآخذ من هذه الصناعة بحظ إلا أن ينشد :

وصناعتى عربيـــة وكأننى ألقى بأكثر ما أقول الروما
فلمن أقول وما أقول وأين لى فأســير بل أين لى فأقيما ؟

***

والنوع الثانى من النثر الفنى ما يسمى بالرسائل الأدبية ، أو الإخوانيات ، وهى — عادة — تكون مكاتبة بين أصدقاء من الكتّاب فى عتاب ، أو استهداء ، أو إهداء ، أو مناظرات أدبية ، أو وصف مشاهدات ، أو فكاهات ، أو مقامات أو نحو ذلك ، وقد يضاف إلى ذلك كتب فى موضوعات تاريخيـة ، أو أدبية ؛ عنى فيها بالصياغة الفنية ، « كفا كهة الخلفاء » لابن عربشاه فى حكمَ على ألسنة الحيوانات ، و « عجائب المقدور فى أخبار تيمور » و « ريحانة الألباء » لشهاب الدين الخفاجى .

وكل الكتّاب من هذا النوع ، ساروا على نفس المنهج ، الذى سار عليه كتاب الدواوين ، من التزام السجع ، والإغراق فى البديع ، ورعايتهم للشكل اللفظى أكثر من المعنى والموضوع ، وتفاخرهم بما يأتون به من حلية البديع ، فإذا تم له تركيب حلاه بحلى شتى من التورية والتضمين والاقتباس والجناس فخر كل الفخر ، ولو كان المعنى سخيفاً ، بل قد يدير المعنى ليتفق والبديع — ولم يستطيعوا أن يدركوا أن المعنى الجميل أو الشعور الجميل فى اللفظ السهل ، الجارى مع الطبع ، أجمل بكثير من معنى تافه ، محلّى بكل أنواع البديع أو مشاعر متصنعة جُمِّلت بكل أنواع الزينة ، وقد أدرك هذا المعنى فى دقة تدعو إلى الإعجاب كاتب انغمس فى هذا الوسط ولكنه تحرر منه ، وهو ابن خلدون إذ قال :

« وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه فى المنثور ، من كثرة الأسجاع ، والتزام التقفية ، وتقديم النسيب بين يدى الأغراض ، وصار هذا المنثور إذا تأملته من باب الشعر وفنه ، ولم يفترقا إلا فى الوزن . واستمر المتأخرون من الكتّاب على هذه الطريقة ، واستعملوها فى المخاطبات السلطانية ، وقصَروا الاستعمال فى المنثور كله على هذا الفن الذى ارتضوه ، وخلطوا الأساليب فيه ، وهجروا المرسل ، وخصوصاً أهل المشرق ، . . . وما حملَ عليه أهل العصر إلا استيلاء العجمة على ألسنتهم ، وقصورهم لذلك

عن إعطاء الكلام حقه من مطابقته لمقتضى الحال ، فعجزوا عن الكلام المرسل لبعد أمده فى البلاغة ، وانفساح خطوه ، وولعوا بهذا السجع يلفقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ، ومطابقة الحال فيه ، ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالأسجاع والألقاب البديعية ، ويغفلون عما سوى ذلك . وأكثر من أخذ بهذا الفن وبالغ فيه فى سائر أنحاء القول كُتاب المشرق ، وشعراؤه لهذا العهد ، حتى إنهم ليخلون بالإعراب فى الكلمات والتصريف إذا دخلت لهم فى تجنيس أو مطابقة لا يجتمعان معها ، فيرجحون ذلك الصنف من التجنيس ، ويَدَعون الإعراب ، ويفسدون بنية الكلمة عساها تصادف ذلك التجنيس » .

فعند ابن خلدون أن الكلام المرسل المطابق لمقتضى الحال خير من المسجوع ، وأن السجع والبديع دليل فقر المعنى ، وأن الإفراط فى التحلى بهما دليل الانحطاط ، ومصداق ذلك ابن خلدون نفسه فلما غزرت معانيه تحرر قلمه ولما رق أسلوبه تحلى ببساطة الجمال .

***

فمن أشهر البارزين من أوائل الكتاب فى هذا العصر القلقشندى المصرى ، عمل بديوان الإنشاء بمصر ، وله إلى كتاباته الرسمية كتابات من النوع الثانى فى التهانى ، أو وصف انتصار أو مقامة أو نحو ذلك .

وكتابته من أمثل ما عرف لأهل زمانه فى أداء الغرض وقلة التكلف وعدم الإلحاح فى البديع .

وهو من أصل عربى ينتسب إلى قوم من بنى فزارة نزلوا مصر فى مديرية القليوبية ومنها بلدة قلقشندة التى ينسب إليها ، ولعل لأصله العربى هذا دخلا فى صحة أسلوبه إلى حد ما .

ومن إنشائه المشهور رسالة سماها « حلية الفضل وزينة الكرم ، فى المفاخرة بين السيف والقلم » مثالها :

قال القلم للسيف « فررتَ من الشريعة وعدلها ، وعولت على الطبيعة وجهلها ، فافتخرت بحيفك وعدوانك ، واعتمدت فى الفضل على تعديك وطغيانك ، فملت إلى الظلم الذى هو إليك أقرب ، وغلب عليك طبعك فى الجور والطبع أغلب ، فلا فتنة إلا وأنت أساسها

ولا غارة إلا وأنت رأسها ، ولا شر إلا وأنت فاتح بابه ، ولا حرب إلا وأنت واصل أسبابه ، تؤكد مواقع الجفاء ، وتكدر أوقات الصفاء . وتؤثر القساوة ، وتوتر العداوة ، أما أنا فالحق مذهبي والصدق مركبي ، والعدل شيمتي ، وحلية الفضل زينتي ، إن حكمت أقسطت ، وإن استحفظت حفظت وما فرطت ، لا أفشي سراً يريد صاحبه كتمه ، ولا أكتم علما يبتغي متعلمه علمه ... أدير في القرطاس كاسات خمري فأزري بالمزامير وأهزأ بالمزاهر ، وأنفث فيه سحر بياني فألعب بالألباب وأستجلب الخواطر ، وأنفذ جيوش سطوري على بعد فأهزم العساكر :

فلكم يفل الجيش وهو عرمرم والبيض ما سلت من الأغماد

فقال السيف : أطلت الغيبة ، وجلت بالخيبة ، وسكت ألفا ونطقت خلفا .

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

إن نجادي لحلية للعواتق ، ومصاحبتي آمنة من البواتق ، ما تقلدني عاتق إلا بات عزيزا ، ولا توسدني ساعد إلا كنت له حرزا حريزا ، أمري المطاع ، وقولي المستمع ، ورأيي المصوب وحكمي المتبع ، لم أزل للنصر مفتاحا ، وللظلام مصباحا ، وللعز قائدا ، وللعداة ذائدا ، فأني لك بمساجلتي ومقاومتي في الفخر ومنافرتي ، مع عري جسمك ، ونحافة بدنك وإسراع تلفك ، وقصر زمنك ، وبخس أثمانك على بعد وطنك ، وما أنت عليه من جري دمعك ، وضيق ذرعك ، وتفرق جمعك ، وقصر باعك ، وقلة اتباعك .

ويستمر الجدل بينهما في نحو عشر صفحات ، وأخيرا يميل القلم إلى الصلح فيحتكمان إلى الأمير أبي يزيد الدوادار للسلطان برقوق فيعقد الصلح بينهما[1] .

***

وفي الشام — مثلا — كان بدر الدين الحلبي وقد ألف كتابه « نسيم الصبا » الذي كان يعد في زمنه قطعة فنية رائعة ، وهو فصول نحو الثلاثين ، في وصف الطبيعة ، والأخلاق والأدب ونحو ذلك ، ملأ كل فصل منه بكل ما استطاع من أنواع الزينة . يقول — مثلا — في وصف الكُتّاب : « الكتّاب عماد الملك وأركانه ، وعيونه المبصرة وأعوانه ،

(١) الرسالة بأكملها في صبح الأعشى جزء ١٤ .

وبهاء الدولة ونظامها ، ورءوس الرياسة وقوامها ، ملابسهم فاخرة ، ومحاسنهم باهرة ، وشمائلهم لطيفة ، ونفوسهم شريفة ، مدار الحل والعقد عليهم ، ومرجع التصرف والتدبير إليهم ، بهم تحلى العواطل ، وتبتسم ثغور المعاقل ، مجالسهم بالفضائل معمورة ، وبتدانهم أندية القصاد مغمورة ، يهدون إلى الأسماع أنواع البديع ، وينزهون الأحداق فى حدائق التوشيح والتوشيع ، هم أهل البراعة واللسن ، وشيمتهم لف القبيح ونشر الحسن ، يميلون إلى القول بموجب المدح ، ولا يميلون من مراجعة الراغبين فى المنح ، دأبهم استخدام الناس بالمعروف ، وعدم التورية عن العانى والملهوف ، يجلون الكبير ، ويبجلون الصغير ، ولا يخلون بمراعاة النظير ، لهم إلى الخير رجوع والتفات ، وبالجملة فقد حازوا جميع جميل الصفات .

بأيديهم أقلام ، تختلس بلطفها الأحلام ، صافية الجواهر ، زاهية الأزاهر ، لينة الأعطاف ، ناعمة الأطراف ، تبكى وهى مبتسمة ؛ وتسكت وهى بما يطرب السمع متكلمة ، قد اعتدلت قدودها ، وأشرقت فى سماء البراعة سعودها ، . . . . نشأت على شطوط الأنهار ، وتعلمت اللحن من اعراب الأطيار ، . . . الشجاعة كامنة فى مهجتها ، والفصاحة جارية على لهجتها ، تبهر بالنضارة نواظر البهار ، وتطرز بالليل أردية النهار ، إن قالت لم تترك مقالا لقائل ، وإن صالت رجعت السيوف مستترة بأذيال الخمائل . إلى أن يقول :

فاجتهد أعزك الله فى طلابها ، واحرص على الدخول فى زمرة أربابها ، وتمسك بأذيال بنيها ، تجد جوادا أو نبيلا أو نبيها ، حسبهم شرفا أن الله تعالى نوه بذكرهم فى العالمين ، ووصف الكتبة بالحفظ والكرم فقال : « وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين » .

وفى هذا الفصل صورة دقيقة لوصف الكاتب فى هذا العصر فى مظاهره وأغراضه ونفسيته وفنه .

***

ويقول فى وصف سفينة :

يا لها سفينة ، على الأموال أمينة ، ذات دُسُر وألواح ، تجرى مع الرياح ، وتطير بغير جناح ، وتعتاض عن الحادى بالملاّح ، تخوض وتلعب ، وترِدُ ولا تشرَب . لها قِلاع كالقِلاع ، وشِراع يحجُب الشُّعاع ، وسكينة وسُكّان ، ومكانة وإمكان ، وجُؤْجُؤ

وفقار ، وأضلاع محكمة بالقار ، وجسمٌ عار عن الفؤاد ، وهو فى عين الماء بمنزلة السواد . بعيد ما بين السَّحْر والنحر ، من أحسن الجوارى المنشَئات فى البحر ، معقودٌ بنواصيها الخير كالخيل ، لا تَمَلُّ من سير النهار ولا من سُرَى الليل .

ما رأى الناس من قصورٍ على الما ء سواها تَسير سيْرَ القِداح

كأنها وَعِلٌ يقحط من شاهق ، أو عِرْباض سابق يحثُّه سائق ، أو عقربٌ شائلة ، أو عُقاب صائلة ، أو غراب أَعْصَم ، أو تمساح أو أرقم ، أو ظَليم نفر فى الظلام ، أو جواد فرَّ مستنكفاً من صحبة الأنام . حاكمها عادل فى حكمه ، عارف بنقض أمرها وبَرْمه ، يهتدى بالنجوم ، ويبتدئ باسم الحىّ القيّوم ، يبرُز من نَواتِيِّها فى جنود ، ويشمل إحسانُهم أهلَها أيقاظا وهم رقود . يتأنقون فيما يعملون ، ويفعلون ما يؤمرون .

يُكثرون الصِّياح حتى كأنّ السـ ـفنَ تجرى من خوْفِ ذاك الصِّياح »

***

وفى آخر أيام العرب بالأندلس ظهر خاتمة الكتاب « لسان الدين بن الخطيب » الذى ترجم له المقرى فى كتابه نفح الطيب فى نحو جزءين . وقد نشأ من بيت وزارة ، وكان هو نفسه وزيراً لبنى الأحمر فى غرناطة ، وانغمس فى الأحداث السياسية ، وسفر إلى الملوك ، واكتوى بنار الفتن المشتعلة فى أيامه ، وقد وصف فى بعض كتبه ما يعانى رجال السياسة والوزارة فى عصره من عناء من « توقع المكروه صباحا ومساء ، وارتقاب الحوالة التى تديل من النعيم البأساء ، ولزوم المنافسة التى تعادى الأشراف والرؤساء ، وترتب العتب ، على التقصير فى الكتْب ، وضغينة جار الجنب ، وولوع الصديق بإحصاء الذنب ، ونسبة وقائع الدولة إليك وأنت برىّ ، وتطويقك الموبقات وأنت منها عرىّ — وقطع الزمان بين سلطان يُعْبَدُ ، وسهام للغيوب تكبد ، وعجاجة شر تلبد ، وأقبوحة تخلد وتؤبد ، ووزير يصانع ويدارَى ؛ وذى حجة صحيحة يجادَل فى مرضاة السلطان ويمارَى . . . . وسوق للانصاف والشفقة كاسد ، وحال فاسد ، ووفود تتزاحم بسدّتك ، مكلفة لك غير ما فى طوقك ، فإن لم يقع الإسعاف قلبت عليك السماء من فوقك ، وجلساء ببابك ، لا يقطعون زمان رجوعك وإيابك ، إلا بقبيح اغتيابك .

وما الفائدة فى فُرُش تحتها جمر الغضا ، ومال من ورائه سوء القضا ، وجاه يحلق عليه سيف منتضى . . . »

إلى أن يقول فى أعباء الوزير ومتاعبه : « أما ليله ففكر أو نوم ، وعتب بجرائر الضرائر ولوم ، وأما يومه فتدبير ، وقبيل ودبير ، وأمور يعيا بها ثبير ، وبلاء مبير ، ولغط لا يدخل فيه حكم كبير ، وأنا بمثل ذلك خبير »

ثم تحقق ما وصف ، فدست له الدسائس ، فترك الوزارة وذهب إلى فاس سنة ١٣٧١ فاستقبل فيها استقبالا حسنا .

ثم لما عاد السلطان الذى يولى ابن الخطيب عطفه أعاد ابن الخطيب إلى غرناطة ، وما زالت تحاك حوله المؤامرات ، حتى اتهموه أخيراً بالتهمة التى تثير العامة ، ويتخلصون بها — دائما — ممن يضايقهم وهى الزندقة ، فقد كان ابن الخطيب ألف كتابا اسمه « روضة التعريف بالحب الشريف » وهو كتاب فى التصوف ، نحا فيه منحى القول بوحدة الوجود ، فنسبوا إليه القول بالحلول ، وأحضر إلى مجلس الشورى ، ووبخ وسجن ، وأفتى المفتون بقتله ، ودسوا إليه من قتلوه خنقاً سنة ١٣٧٤ .

وقد كان واسع الثقافة ، ملما بعلوم أهل زمانه ، فقد أخذ الطب والمنطق والفلسفة عن ابن زهر ، والعلوم اللسانية عن ابن مرزوق ، كما كان واسع الاطلاع على التاريخ ، وخاصة تاريخ الأندلس ورجالها ، وألف فيه كتاب « الإحاطة فى تاريخ غرناطة » .

وأسلوبه الأدبى من أرقى ما وصل إليه أسلوب زمانه ، يلتزم طريقتهم فى السجع والبديع ، ولكن يخفف ثقله غزارة معانيه التى تأتيه من سعة اطلاعه ، إلى نبله وخفة روحه . وقد عرف فى أسلوبه بالإطناب ، وطول النفَس ، وإن لم يبلغ حد الإملال . وقد كان له آثار أدبية فى نواحى الأدب المختلفة من مخاطبات الملوك ، ومقامات وإخوانيات وغير ذلك ، ومن أمثلة أسلوبه قوله لمعلم كتَّاب عاد إلى حرفة التعليم بعد أن هجرها .

« تعرفت ما كان من مراجعة سيدى لحرفة التكتيب والتعليم ، والحنين إلى العهد القديم ، فسررت باستقامة حاله ، وفضل ماله ، ... حبذا والله عيش التأديب ، فلا بالضنك ولا بالجديب ، معاهدة الإحسان ، ومشاهدة الصور الحسان ؛ يميناً إن المعلمين ، لسادة المسلمين ، وإنى لأنظر منهم — كلما خطرت على المكاتب — أمراء فوق المراتب ، من كل مسيطر الدِّرَّة ، متقطب الأسرة ، متنمر للوارد تنمر الهرة ، يغدو إلى مكتبه ، كالأمير فى موكبه ، حتى إذا استقل فى فرشه ، واستوى على عرشه ؛ أظهر للخلق احتقاراً ، وأزرى

بالجبال وقاراً ، ورفعت إليه الخصوم ، ووقف بين يديه الظالم والمظلوم ، فتقول كسرى فى إيوانه ، والرشيد فى أوانه ، أو الحجاج بين أعوانه ، فأى عيش كهذا العيش ، وكيف حال أمير هذا الجيش ، طاعة معروفة ، ووجوه إليه مصروفة ، فإن أشار بالانصات ، لتحقق القصات ، فكأنما طمس على الأفواه ، ولأم بين الشفاه ، وإن أمر بالإنصاح ، وتلاوة الألواح ، علا الضجيج والعجيج ، وحف به كما حف بالبيت الحجيج ، وكم بين ذلك من رشوة تدس ، وغمزة لا تحس ، ووعد يستنجز ، وحاجة تستعجل وتحفز ؟ هنأ الله سيدى ما خوله ، وأنساه بطيب أخراه أوله » .

هذا نموذج من خير من أخرجه هذا العصر من الكتّاب .

وفى العصر العثمانى ربما كان أمثل الكتّاب شهاب الدين الخفاجى ؛ وهو مصرى ولد بسرياقوس من مديرية القليوبية ، ودرس بالأزهر ؛ وقد جمع بين الفقه والأدب واللغة وأفادته حياته فاطلع على كثير من شؤون الدنيا وتجارب الحياة ، فقد رحل إلى مكة مع أبيه ، ثم سافر إلى القسطنطينية وشغف هناك بتعلم الرياضة ؛ ثم عين وهو فى الآستانة قاضياً للروملى ثم سالونيكا ؛ ثم أرسل إلى مصر « قاضى عسكر » ، ثم عاد إلى القسطنطينية ثم عاد إلى مصر قاضياً ، وهنا وجه همته إلى التأليف فى الأدب واللغة .

ومن خير ما ألفه « شفاء الغليل بما فى كلام العرب من الدخيل » أتى فيه بمقدمة حسنة عن التعريب ، ثم أورد الكلمات المعرّبة مرتبة على حروف المعجم .

وفى موضوعنا الأدبى خلف لنا « خبايا الزوايا » فى ترجمة أدباء عصره ، وقسمه إلى خمسة أقسام : أدباء سوريا والحجاز ومصر والمغرب والروم (القسطنطينية) ، وقد أعاد هذا الكتاب فى كتابه ريحانة الألبا ونزهة الحياة الدنيا .

وأسلوبه مسجوع متكلف للبديع كقوله فى ترجمة ابن منجك :

« الأميرُ محمدُ بن مَنْجَك الجَرْكَسِيُّ أصلا ومَحْتِداً ، الشامىُّ منشأً ومولداً ، أديبٌ أريبٌ ، ونجيبٌ وابن نجيب ، أورق عودُه بالشام وأثمر ، فإذا عُدَّت السجايا عَرَضاً فسجاياه جَوْهر ، نشأ بها والدهرُ أبيضُ أقمرُ ، ونادم العيشَ والعيشُ أخضر ، وللبِقاع تأثيرٌ فى الطباع ، والعِرْق — كما قيل — لمغرِسِه نزّاع ، ومَنْ كان جارَ الرياض ، لبِس طبعُه بُرْدَ نسيمها الفَضْفَاض ، كما لبِس النهر الجارى ، دِرْعَ النسيم السارى .

وقد نَسَجَتْ كفُّ النسيم مُفاضةً عليه وما غيرُ الحَباب لها حَلَقْ

وقد صحبنى بِحِلْقَ ونسيمُه سَجْسَج ، وخيوطُ شبيبته بيد الكهولة لم تُنْسَج ، ولازَمنى إذ رأى انعطافى عليه ، وشِبْهُ الشىء منجذبٌ إليه » .

وله شرح درة الغواص للحريرى ونقدها . قال فى أوله : « دعانى الانتصار للسلف ، إلى تمييز الدر من الصدف ، فضممت إليها دررا تصيرها عقدا ، ونشرت عليها من جلستان الآداب نورا وردا ، مما تتقرطق به الآذان ، وتتوشح ببرده معاطف الزمان » الخ وقد مات فى مصر سنة ١٦٥٩ .

* * *

ثم توالى الضعف فى الكتابة حتى أصبحت لا لفظا ولا معنى ، وحتى أنواع البديع ثقلت وسمجت كقول عبد الوهاب الحلبى إلى الشهاب الخفاجى : « لقد طفحت أفئدة العلماء بشرا ، وارتاحت أسرار الكاتبين سرا وجهرا ، وأفعمت من المسرة صدور الصدور ؛ وطارت الفضائل بأجنحة السرور ، بين قدوم من اخضرت رياض التحقيق بإقدامه ، وغرقت بحار التدقيق من سحائب أقلامه » وسبب ضعف النثر ما قلناه فى سبب ضعف الشعر .

وأكبر مصيبة أصيب بها أدباء العربية — شعراء وكتابا — أنهم شدوا أعينهم إلى قصور الخلفاء والأمراء ، وربطوا مشاعرهم بها ، ولم ينظروا إلى غيرها إلا تبعاً ، ولم يشعروا بأنفسهم ، ولا لأنفسهم إلا قليلا ، فكان لهذا نتائج سيئة من وجوه شتى .

١ — أن الأدب — أكثر ما كان — أصبح أرستقراطيا فى أغراضه من مديح واستعطاف واستمناح واعتذار ونحو ذلك ، وفى ألفاظه ، إذ كان تحفة كالتحف التى تهدى أو تباع للملوك . أما أن تهيج مشاعر الشاعر أو الناثر فيفرج عن نفسه بالفن فقليل نادر .

٢ — أن كثيراً من الشعراء والكتاب أصيبوا بهذه الرابطة إصابات قاتلة من غضب السلطان أو النزاع السياسى بين الأمراء ، وتغلب أحدهم على الآخر فينكل بأتباعه ، وكانت تلك سنة قديمة من عهد خلفاء بنى أمية إلى مثل ما رأينا فى لسان الدين بن الخطيب ، ولو شعروا أو كتبوا لمشاعرهم ومشاعر الناس لأجادوا وسعدوا وحفظوا أرواحهم .

٣ — لما ربطوا أنفسهم بالقصور ربطوا فنهم بها ، فالأمراء يعطون فيجود الفن ، ويمنعون فيضعف الفن ، والأمراء يجيدون العربية فيرقى الأدب ، ويجهلون العربية

فيضعف الأدب . والعثمانيون يحولون الدواوين إلى اللغة التركية فينهار الأدب ، ولو كان الأدب مستقلا لاستقام سيره ولو اختلت القصور .

٤ — كان لهذه الظاهرة أثر سيء فى حياة الشعوب الشرقية نفسها ، فلو اتجه الشعراء والكتاب إلى الشعوب لوضعوا بذور الثورة على الملوك والأمراء إذا ظلموا الرعية ، ولأشعروا الشعب بآلامه ، ورسموا له آماله ، واستحثوه على بلوغ غايته — كما حدث من رجال الأدب فى الغرب — فكان عملهم مبعث نهضتهم . أما فى الشرق فلم يتجه الأدب شعراً ونثراً إلى الإصلاح الاجتماعى ، ولم يغنّ الفنان لنفسه ولقومه ، فكانت النتيجة ما نرى :

لقد كان الأدب الغربى فى عصور الاقطاع على هذا المنوال ، فكان الشعراء والأدباء يستمدون شعرهم وأدبهم من الأمراء ، لأن الشعب لم يكن يطعِم ولم يكن يغذى فنا ، إنما يفعل ذلك سادة الاقطاعات ، وكان لكل شاعر أو أديب راع من هؤلاء السادة ، وكان الأديب يستمد وحيه وموضوعاته من حياة الأمراء فى لغتهم وأسلوبهم وملابسهم وسلوكهم ، وكانت الروايات التى تمثل إنما يقصد بها — أولا — إلى تسلية هؤلاء السادة باختيار الموضوعات التى تلذهم ، والمناظر التى تغذى كبرياءهم . ولكن « النهضة » حولت هذا التيار وجعلت الأدباء يتحولون إلى الطبقة الوسطى من الشعوب ، وغيرت الموضوعات من قصور الأمراء إلى كوخ الفقراء ، وصورت حياة الطبقات الفقيرة كما كانت من قبل تصور حياة الطبقات الرفيعة ، وأمكن بانتشار المطابع أن يقوم ناشر الكتاب مقام الأمير فى إمداد الأديب بالمال ، وأن يقوم رضا القراء من الشعب مقام رضا القصور . وقراء الشعب إنما يرضيهم أن يجدوا فيما يقرءون ما يصور نفوسهم وآمالهم وآلامهم .

أما فى الشرق فلم يحدث هذا التحول ، لأن الحالة الاقتصادية لم تمكن الطبقات الوسطى والدنيا من اليسر المالى ، ولم تكن المطابع وانتشار القراءة والكتابة حتى يغنى الأدباء لهم ، فبقى الأدب العربى فى أوضاعه القديمة لم يسعفه ما طرأ على الغرب .

وظلت موضوعاته كما هى فى القديم ، فإن أنت نظرت إلى كتاب فى المختارات من أدب هذا العصر رأيت ما يأتى : قال « صفى الدين الحلى » يمدح الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وقال يهنئ المؤيد بالقدوم من الصعيد ، وقال ابن نباتة يمدح السلطان الأفضل ويعزيه فى والده ، وقال فى الناصر حسن . فإن خرجوا عن هذا رأيت ابن الوردى يقول فى الحكم ،

وقد نَسَجَتْ كفُّ النسيم مُفاضةً عليه وما غيرُ الحَباب لها حَلَقْ

وقد صحبنى بجِلْقَ ونسيمُه سَجْسَج ، وخيوطُ شبيبته بيد الكهولة لم تُنْسَج ، ولازَمنى إذ رأى انعطافى عليه ، وشِبْهُ الشىء منجذبٌ إليه » .

وله شرح درة الغواص للحريرى ونقدها . قال فى أوله : « دعانى الانتصار للسلف ، إلى تمييز الدر من الصدف ، فضممت إليها دررا تصيرها عقدا ، ونشرت عليها من جلستان الآداب نورا وورداً ، مما تتقرطق به الآذان ، وتتوشح ببرده معاطف الزمان » الخ وقد مات فى مصر سنة ١٦٥٩ .

* * *

ثم توالى الضعف فى الكتابة حتى أصبحت لا لفظا ولا معنى ، وحتى أنواع البديع ثقلت وسمجت كقول عبد الوهاب الحلبى إلى الشهاب الخفاجى : « لقد طفحت أفئدة العلماء بشرا ، وارتاحت أسرار الكاتبين سرا وجهرا ، وأفعمت من المسرة صدور الصدور ؛ وطارت الفضائل بأجنحة السرور ، بين قدوم من اخضرت رياض التحقيق بإقدامه ، وغرقت بحار التدقيق من سحائب أقلامه » وسبب ضعف النثر ما قلناه فى سبب ضعف الشعر .

وأكبر مصيبة أصيب بها أدباء العربية — شعراء وكتابا — أنهم شدوا أعينهم إلى قصور الخلفاء والأمراء ، وربطوا مشاعرهم بها ، ولم ينظروا إلى غيرها إلا تبعاً ، ولم يشعروا بأنفسهم ، ولا لأنفسهم إلا قليلا ، فكان لهذا نتائج سيئة من وجوه شتى .

١ — أن الأدب — أكثر ما كان — أصبح أرستقراطيا فى أغراضه من مديح واستعطاف واستمناح واعتذار ونحو ذلك ، وفى ألفاظه ، إذ كان تحفة كالتحف التى تهدى أو تباع للملوك . أما أن تهيج مشاعر الشاعر أو الناثر فيفرج عن نفسه بالفن فقليل نادر .

٢ — أن كثيراً من الشعراء والكتاب أصيبوا بهذه الرابطة إصابات قاتلة من غضب السلطان أو النزاع السياسى بين الأمراء ، وتغلب أحدهم على الآخر فينكل بأتباعه ، وكانت تلك سنة قديمة من عهد خلفاء بنى أمية إلى مثل ما رأينا فى لسان الدين بن الخطيب ، ولو شعروا أو كتبوا لمشاعرهم ومشاعر الناس لأجادوا وسعدوا وحفظوا أرواحهم .

٣ — لما ربطوا أنفسهم بالقصور ربطوا فنهم بها ، فالأمراء يعطون فيجود الفن ، ويمنعون فيضعف الفن ، والأمراء يجيدون العربية فيرقى الأدب ، ويجهلون العربية

فيضعف الأدب . والعثمانيون يحولون الدواوين إلى اللغة التركية فينهار الأدب ، ولو كان الأدب مستقلا لاستقام سيره ولو اختلت القصور .

٤ — كان لهذه الظاهرة أثر سيء فى حياة الشعوب الشرقية نفسها ، فلو اتجه الشعراء والكتاب إلى الشعوب لوضعوا بذور الثورة على الملوك والأمراء إذا ظلموا الرعية ، ولأشعروا الشعب بآلامه ، ورسموا له آماله ، واستحثوه على بلوغ غايته — كما حدث من رجال الأدب فى الغرب — فكان عملهم مبعث نهضتهم . أما فى الشرق فلم يتجه الأدب شعراً ونثراً إلى الإصلاح الاجتماعى ، ولم يغنّ الفنان لنفسه ولقومه ، فكانت النتيجة ما نرى :

لقد كان الأدب العربى فى عصور الاقطاع على هذا المنوال ، فكان الشعراء والأدباء يستمدون شعرهم وأدبهم من الأمراء ، لأن الشعب لم يكن يطعِم ولم يكن يغذى فنا ، إنما يفعل ذلك سادة الاقطاعات ، وكان لكل شاعر أو أديب راع من هؤلاء السادة ، وكان الأديب يستمد وحيه وموضوعاته من حياة الأمراء فى لغتهم وأسلوبهم وملابسهم وسلوكهم ، وكانت الروايات التى تمثل إنما يقصد بها — أولا — إلى تسلية هؤلاء السادة باختيار الموضوعات التى تلذهم ، والمناظر التى تغذى كبرياءهم . ولكن « النهضة » حولت هذا التيار وجعلت الأدباء يتحولون إلى الطبقة الوسطى من الشعوب ، وغيرت الموضوعات من قصور الأمراء إلى كوخ الفقراء ، وصورت حياة الطبقات الفقيرة كما كانت من قبل تصور حياة الطبقات الرفيعة ، وأمكن بانتشار المطابع أن يقوم ناشر الكتاب مقام الأمير فى إمداد الأديب بالمال ، وأن يقوم رضا القراء من الشعب مقام رضا القصور . وقراء الشعب إنما يرضيهم أن يجدوا فيما يقرءون ما يصور نفوسهم وآمالهم وآلامهم .

أما فى الشرق فلم يحدث هذا التحول ، لأن الحالة الاقتصادية لم تمكن الطبقات الوسطى والدنيا من اليسر المالى ، ولم تكن المطابع وانتشار القراءة والكتابة حتى يغنى الأدباء لهم ، فبقى الأدب العربى فى أوضاعه القديمة لم يسعفه ما طرأ على الغرب .

وظلت موضوعاته كما هى فى القديم ، فإن أنت نظرت إلى كتاب فى المختارات من أدب هذا العصر رأيت ما يأتى : قال « صفى الدين الحلى » يمدح الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وقال يهنئ المؤيد بالقدوم من الصعيد ، وقال ابن نباتة يمدح السلطان الأفضل ويعزيه فى والده ، وقال فى الناصر حسن . فإن خرجوا عن هذا رأيت ابن الوردى يقول فى الحكم ،

والشاب الظريف فى الغزل ، وسراج الدين الوراق فى شكر الله على نعمائه ، وفى لوم النفس على المعصية ، ومحيي الدين الحموى يصف روضاً أو نهراً — أما الدنيا وشؤونها والناس وحياتهم ومطالبهم فلا نجد فيها شيئاً .

وزاد الأمر سوءا أن العثمانيين لما فتحوا مصر والشام وغيرها أرادوا أن يجعلوا القسطنطينية بخير ما فى هذه البلاد ، فأخذوا من خزائن المدارس بمصر والشام أكثر الكتب القيمة التى فيها ، فحرموا البلاد أغلى كنوزها ، ونقلوا كثيراً من الأدباء والعلماء والمهندسين والوراقين وأرباب الصناعات إلى بلادهم ، وقد قدرهم ابن إياس بنحو ألف وثمانمائة ، وغرقت بعض السفن التى تحملهم ، وكان هؤلاء الذين أخذوا خير من فى مصر علما وأدبا وفنا فتركوا البلاد فى ظلام .

***

وكما كان الشعراء والأدباء ينشئون كان بجانبهم من يجمع المختارات من أدبهم وأدب من قبلهم ، فألف جمال الدين الوطواط (١٢٣٥—١٣١٨) كتابه « غرر الخصائص الواضحة » و « مباهج الفكر » :

وألف شهاب الدين الأبشيهى المولود نحو سنة ١٣٨٨ — ١٤٤٦ كتابه « المستطرف فى كل فن مستطرف » جمع فيه شعراً وقصصاً وأمثالا .

وألف شمس الدين النواجى المتوفى سنة ١٤٥٥ « حلبة الكميت » جمع فيه كثيراً مما قيل فى الخمر .

وألف داود الأنطاكى الطبيب المشهور صاحب التذكرة كتابا فى الحب وما قيل فيه سماه « تزيين الأسواق » ، وقد توفى سنة ١٥٩٩ .

وألف عبد القادر البغدادى المتوفى سنة ١٦٨٢ كتابه الكبير خزانة الأدب ترجم فيه لكثير من الأدباء والشعراء من الجاهليين ومن بعدهم ، وجمع فيه معلومات قيمة ، وهو فى الأصل شرح لشواهد « الكافية » فى النحو بنى عليه هذه التراجم .

(ح) **القصص :**

أما الأدباء الكلاسيكيون فأغلب نتاجهم القصصى كان إنشاء مقامات يقلدون فيها

مقامات الحريرى حتى كاد كل أديب يقيم البرهان على أدبه بإنشاء مقامة أو مقامات .

فعمل شمس الدين بن الصيقل الجزرى المتوفى سنة ٧٠١ خمسين مقامة نسبها إلى ابن نصر المصرى وروايتها إلى القاسم بن جريال الدمشقى .

وعمل محمد بن إبراهيم الدمشقى (٧٢٧) خمسين مقامة فلسفية ، وشهاب الدين الخفاجى بعض مقامات فى كتابه « ريحانة الألبا » وهكذا إلى الشيخ ناصيف اليازجى .

وكلها إذا وزنت بميزان القصة كانت خفيفة الوزن لضيق خيالها وقصر نفَسها ، وضعف عاطفتها وقلة حبكتها ، ورخاوة عقدتها .

وأما القصص الشعبية فكانت أوفر حياة ، وأوسع خيالا ، وأدخل فى باب القصص . وعلى رأس هذه القصص «ألف ليلة وليلة» ، وهو كتاب لم يعره أدباء العربية التفاتاً إلا بعد أن ذاع فى أوربا وترجموه إلى لغات كثيرة ، وقدروه تقديراً كبيراً . والسبب فى انصراف الأدباء العلماء من أهل العربية عنه هو أنه شعبى فى أسلوبه وموضوعه .

وإنما ذكرناه هنا ، لأنه لم يستكمل شكله الذى بين أيدينا إلا فى عهد المماليك ، فقد ذكر المسعودى أن أصله فارسى واسمه « هزار أفسانا » ومعناه ألف ليلة ، وترجم من الفهلوية إلى العربية ، ويدل على فارسيته أسماؤه الفارسية فى هذا القسم من مثل « شيرازاد » ومعناه : النبيلة بالحسب ، وقد غيرت إلى شهرزاد ، ودنيا زاد ، ومعناه : النبيلة بالنسب ، وقد حرفت إلى دينار زاد . وقد زادت فيه الأمم العربية المختلفة على توالى العصور إلى آخر عصر المماليك . وقد اجتهد المستشرقون فى تحليل قصصه ورد كل مجموعة منها إلى الأمة التى صدرت عنها وتحديد تاريخها ؛ فهناك قصص بغدادية تمثل حياة بغداد فى عصر الرشيد ووزيره جعفر البرمكى ، وهناك قصص مصرية تمثل حياة مصر « كأحمد الدنف ودليلة » .

وهناك قصص من أصل يهودى أدخلها فيها يهود تعربوا كقصة كريم الدين ، وقصص من عصر قديم حيث أزهرت التجارة فى الخليج الفارسى والمحيط الهندى كقصة السندباد البحرى ، وبعضها تدل حوادثها على قرب عهدها كقصة معروف وزوجته فاطمة ، فإن حوادثها تدل على أنها ألفت فى القرن السادس عشر ، وكقصة أبى قير وأبى صير ، فإنها من أحدث ما كتب .

وأسلوبها قريب التناول يفهمه العامة والخاصة — سواء فى ذلك شعرها ونثرها ، وبعض القصص تظهرفيها خصائص اللغة العامية السورية ، والبعض المصرية ، وكلها تصور الحياة الشرقية فى دينها ودنياها ، ونظرتها إلى النساء ، وأوهامها وخرافاتها ، وإيمانها بالقدر ، ومباهجها وأحزانها وحياة قصورها ، وعلاقة حكامها بشعوبها الخ . وقد انعكست فيها كل هذه الصور من غير شعور مؤلفيها .

وهى من الناحية الفنية تفوق المقامات بسعة خيالها ، وتنوع ألوانها وتصوير الحياة فى مختلف أشكالها ، وحسن حبكتها ، ومن أجل هذا لم ينل كتاب شرقى فى الغرب ما لقيه كتاب « ألف ليلة » .

وقصة عنترة بن شداد المعروفة بسيرة عنتر ، والمنسوبة إلى الأصمعى العالم اللغوى المشهور فى عصر الرشيد ، ولا شك أنها نسبة مختلقة ، وهى مؤلفة — كما يرى بعض المستشرقين — أيام الحروب الصليبية — وقد عدها بعضهم « إلياذة العرب » ، وقيمتها فى أنها تمثل حياة البدو ، من كرم ، وانتقام ، ونجدة ، وحب ، وتذوق للشعر ، مزجت فيها حياة البدو فى الجاهلية بحياتهم بعد الإسلام ، وحيك حولها كلها قصص لطيف بطلها عنترة بن شداد العبسى صاحب إحدى المعلقات .

وقد ترجمت أجزاء منها إلى الإنجليزية والفرنسية .

ومن أشهر القصص قصة بنى هلال ، وهى فى الحقيقة سلسلة من القصص تصور أحداث بنى هلال ممزوجة بالخيال الواسع ، منها قصة جابر وجبير تمثل بنى هلال فى القرون الأربعة الأولى للاسلام ، وقصة الخضراء — أم أبى زيد الهلال — وقصة الشماء وزهر البان وقصة أبى زيد الخ ، وكلها تستمد حوادثها مما كان من غزوات وحروب من قبيلة بنى هلال بين الغرب وحدود مصر فى القرن الحادى عشر الميلادى ، وغير ذلك من القصص كثير : كقصة سيف اليزن ، وهى تدور حول شخصية عجيبة ، تفتح العالم وتحارب الجن ، وتخضع أهل الكفر للاسلام ، وكقصة ذات الهمة والظاهر بيبرس الخ .

وكلها قصص من الأدب الشعبى كانت تسلى الشعب ، وتغذى خياله وعواطفه ، يقرؤها من يعرف القراءة ويستمع لها الناس فى المجتمعات من قارئين يحترفون قراءتها .

وهى — وإن فضلت المقامات من ناحية فنها — فلا تعد راقية أمام الذوق الفنى المهذب .

وربما كان من أهم أسباب ضعف القصص فى الشرق ورقيه فى الغرب فى هذا العصر حركة التمثيل فى المسارح ، فقد رقيت فى الغرب تقليداً للمسرح اليونانى وترقية له مع الزمان . وقد أبى الشرق أن يستعير الأدب اليونانى منذ العصر العباسى ، فاستعار العلوم ولكن لم يستعر الآداب ، ولو استعارها لاقتبس منها المسرح ، ولكنه لم يفعل واقتبسه الغرب وسار به مع الزمان ، فكان مبعثاً للقصص الراقى ، وما كان يكون شكسبير وأمثاله لولا المسرح

وقد نشأ فى الشرق مسرح هو « خيال الظل » اشتهر فيه وفى عمل الروايات له ابن دانيال ، ولكنه لم يتم ،ولم يرتق مع الزمان ، وظل بدائيا طول حياته حتى انقضى أجله

وقد نلاحظ — أيضا — الانفصال الشديد بين أدب الخاصة وأدب العامة مع أن هذا الانفصال يقضى عليه فى الأدب الغربى ؛ فكان للخاصة فى الشرق مقاماتها وشعرها وإعرابها ، وكان للعامة زجلها وقصصها ، وليس يمكن أن تعيش طائفة من غير أدب ، فالشعب لا بد أن يغذى مشاعره بأغانيه وزجله وأمثاله وأحاديثه (حواديته) ، فنبغ منهم أدباء يقومون بهذه الأغراض ، عندهم ملكة الأدب وإن لم يثقفوا ثقافة واسعة عميقة ، وكان من حسن الحظ أن لم يثقفوا لأنهم لو فعلوا لقالوا فى أدب الخاصة ، والخاصة يترفعون عن أن يقولوا للشعب ، وإنما يتجهون إلى الأمراء وأمثالهم ، ولا تزال الحواجز بين الأدبين قوية إلى اليوم ، فكل من يكتبون فى الأدب إنما يكتبون لمن يقرءون العربية الفصحى ، وهم المتعلمون ، وهم الأقلون . والسواد الأعظم من الأميين يعيش على الأغانى البلدية والأمثلة الشعبية والحواديت العامية ، ولم تحل مشكلة التقريب بين طبقتى الشعب فى لغتها وأدبها إلى اليوم .

(٤) **التصوف والفلسفة :**

وقد فشا فى هذا العصر التصوف سواء بين الخاصة والعامة ، ذلك لأن الناس فقدوا الدنيا فانصرفوا إلى الأخرى ، ويئسوا من العدالة الاجتماعية فى الأرض فأملوها فى السماء ، ولم يجرءوا أن يثوروا فى وجه الحكام يطالبونهم بتحقيق العدل فقنعوا بالسلامة فى ظل الأمل ، وضعفت عقولهم عن تمييز الحق من الباطل فملئوا التصوف بالخرافات والأوهام ، ولم تتجرد طبيعتهم من حب اللهو فأدخلوه فى التصوف ، فكان فيه الغناء والموسيقى

والرقص وألعاب البهلوان ، وهرع الناس إلى المتصوفة يستمنحونهم البركة ، ويستقضون منهم حوائجهم ، ويقرعون بهم أبواب السماء ؛ وامتلأت البلاد بأرباب الطرق ، ومشايخ الصوفية والأولياء ومدعى الولاية — وعلى الجملة ، فكان فى الحياة الصوفية على سعتها وانتشارها حق قليل وباطل كثير .

وكان لهذا كله صدى فى الأدب ، فكان عبد الغنى النابلسى شاعر المتصوفة ، وأشعاره الكثيرة تعيد علينا نغمات ابن الفارض وابن العربى .

وكان عبد الوهاب الشعرانى زعيم المتصوفة المؤلفين فى هذا العصر ؛ مصرى قاهرى ولد فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، ومصر ولاية عثمانية — وقد شاهد فى هذا العصر ظلم الحكام للفلاحين ، وكثرة الضرائب عليهم ، وسوء تحصيل المال منهم ، كما شاهد سوء حال الصناع والتجار ، فحبب ذلك إليه التصوف ، وعاش فى كنفه ينعم بمشاهدة الملائكة والأنبياء والتحدث إليهم ، وتلقى أوامرهم ونواهيهم ، وقص علينا فى كتابه « لطائف المنن » كثيراً مما نعم به فى مشاهداته الروحانية — وألف كتباً كثيرة فى التصوف شاعت فى الناس وتأثروا بها ، وربما كان من خيرها طبقات الصوفية ، يترجم فيها للمتصوفين ويحكى لكل صوفى بعض حكمه وأقواله وأحداثه ، وكتابه « الميزان » يبحث فيه فى أسباب اختلاف الأئمة بحثا صوفيا طريفاً .

أما الفلسفة فلم تلق رواجا فى هذا العصر ، ونُظر إليها على أنها نمط من الزندقة ، وربما نمت الفلسفة الإسلامية فى الجو الشيعى أكثر مما نمت فى الجو السنى كما كان ذلك قديماً ، فقد أزهرت فى العصر الفاطمى الشيعى فى مصر ، ثم ضعفت فى العصر الأيوبى السنى ، وكذلك فى عصرنا ربما عد بهاء الدين العاملى الشامى الشيعى أظهر رجال الشام ومصر فى الفلسفة ممزوجة بالتصوف ، ولم يقتصر على الفلسفة ، بل تعدى ذلك إلى الرياضة والأدب ، وتظهر سعة نواحيه وتعددها فى كتابيه « الخلاة » و « الكشكول » ، فهما دائرة معارف غير منظمة فيهما الأدب والتصوف والفلسفة والحساب والهندسة الخ . وقد توفى سنة ١٠٣١ هـ = ١٦٢١ م — إنما نشطت حركة الفلسفة فى هذا العصر فى فارس فى عهد الدولة الصفوية ، وكانت فلسفة إشراقية ممزوجة بالتصوف تعد من أساتذتها فيثاغورس وأفلاطون أكثر من أرسطو . وقد كان نتاج هؤلاء الفلاسفة الفرس كثير منه باللغة العربية — ورأسهم

فى هذا الباب صدر الدين الشيرازى المتوفى سنة ١٦٤١ م وكتابه « الأسفار » من أعظم الكتب فى الفلسفة ، مزج فيها آراء الفلاسفة اليونانيين بآراء ابن سينا بتصوف ابن العربى ، واستخرج من كل ذلك خلاصة قيمة ، وكانت شخصيته وكتبه ذا أثر كبير فى الحركة الفلسفية فى فارس إلى عصرنا الحاضر .

(هـ) التأليف :

الحق أن حركة التأليف فى هذه الفترة كانت كبيرة نشيطة — وخاصة فى مصر والشام — فنظرة إلى ما ألف فى هذا العصر فى مختلف العلوم تدل دلالة واضحة على هذا النشاط .

وكان من حسن حظ العلم أنه لم يقصر نفسه على القصور كما فعل الأدب ، نعم إن بعض العلماء ألف للأمراء واتصل بهم ، واستفاد منهم ؛ ولكن الكثير كان يشتغل بالعلم فى عزلة عن القصور — وكان أهم باعث لهم الباعث الدينى ، فهم يؤلفون فى التفسير والحديث للباعث الدينى ، ويؤلفون فى اللغة والأدب لأنهما وسيلتان من وسائل فهم القرآن والحديث ، على أن سلاطين المماليك من جانبهم فهموا من مقتضيات الملك وتأييده وعظمته وتخليد ذكره بناء المساجد — عادة توارثوها من أول أمرهم ؛ ولذلك حليت مصر فى عهدهم بكثير من المساجد . وكان الصالح منهم يبنى المسجد تديناً ، والفاسق يبنيها مكفراً عن فجوره وظلمه ، إذ كانت عقليتهم أن لا بأس من الجمع بين تذبيح وتسبيح ، وسرقة وصدقة ، وأن التسبيح يجب التذبيح ، والصدقة تذهب بالسرقة .

وكان المسجد قطعة فنية جميلة حيى بها الفن ، ولا يزال يعيش عليه دارسو الفن الإسلامى إلى الآن ؛ وكان أيضاً مدرسة ، لكل مسجد شيخه بل شيوخه ، ولهم تلاميذ ، وعليهم جميعاً الأوقاف تعينهم على طلب العلم ، وفى المسجد مكتبة للاطلاع والبحث ، فكان فى كل مسجد حركة علمية تقوى وتضعف بمقدار الأوقاف وبكفاية شيخ المدرسة ، وعناية الأمراء بالمسجد ، وكان كثير من العلماء البارزين فى هذا العصر شيوخ هذه المدارس أو المساجد ؛ كمدرسة بيبرس ، وقلاوون ، وشيخون ، وبرقوق ، والمؤيد .

وقد تعاون على التأليف فى الأدب هذه المدارس من جهة ، وديوان الإنشاء وإعداد رجاله من جهة أخرى .

ونحن نعرض فى إيجاز حركة التأليف فى الأدب وما يتصل به

فأول ما يلفت نظرنا فى أول هذا العصر ، التأليف فى الموسوعات ، أو دوائر المعارف ، وكان القصد منها جمع المعارف التى وصلت إلى زمانهم ، وإمداد رجال الديوان بالمعلومات التى تلزمهم ، ولو جاءتهم فكرة ترتيبها على حسب حروف الهجاء ، لكان لنا من ذلك دوائر معارف قيمة سهلة التناول .

وكان من أسبقهم فى ذلك النُّوَيْرِى أبو العباس شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (١٢٨٢ — ١٣٣٢) وهو مصرى من نويرة ، وقد اشتهر بالفقه والتاريخ ، وألف موسوعته التى اسمها « نهاية الأرب » وهى تطبع فى دار الكتب الآن ، وقد انتهى منها طبع ثلاثة عشر جزءاً ، وقد تبلغ الثلاثين . وقسم كتابه إلى أقسام (١) السماء والآثار العلوية ، والأرض والمعالم السفلية (٢) الإنسان وما يتعلق به (٣) الحيوان الصامت (٤) النبات (٥) التاريخ من بدء الخليقة إلى سنة ١٣٣١ أى قبل وفاته بعام .

وكان النويرى من رجال الملك الناصر محمد بن قلاوون .

وقد استغله كثير من المستشرقين فى بحوثهم ، فترجم بعضهم إلى الفرنسية ما كتبه عن صقلية ، وبعضهم ما كتبه عن فتح العرب للمغرب ، واعتمد بعضهم عليه فيما كتبه عن الظاهر بيبرس الخ .

وجا ابن فضل الله العمرى (١٣٠١ — ١٣٤٨) ، وقد كان معاصراً للنويرى فألف كتابه « مسالك الأبصار » ، وهو من نسل عمر بن الخطاب ، وقد ولد فى دمشق ، ورحل إلى بلاد كثيرة ، وانتقل إلى القاهرة ، وتولى بها القضاء ، وعمل أيضاً فى ديوان الملك الناصر .

وكتابه مسالك الأبصار فى التراجم والتاريخ والجغرافيا مملوء بالفوائد القيمة والمعلومات الواسعة ، إلى أناقة فى التعبير وجمال فى الأداء يفوق النويرى ، وهو يقع فى أكثر من عشرين جزءا طبع منه جزؤه الأول فى دار الكتب .

ثم القلقشندى المصرى ، وقد تقدم ذكره ، وهو من أصحاب الموسوعات ، إذ ألف كتابه الضخم ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا .

قدمه بمقدمة فى فضل الكتابة ، وصفات الكتّاب ، والتعريف بديوان الإنشاء وقوانينه .

ثم المقالة الأولى فيما يحتاج إليه الكاتب من الأمور العلمية والعملية ، والثانية فى المسالك والممالك .

والثالثة والرابعة فى تاريخ الكتابة وتطوراتها وما التزم فى بدئها وختامها ، واختلافها باختلاف المكتوب إليه وموضوع الكتاب . والخامسة فى البيعة والعهد وأنواع المناصب من رجال السيف والقلم . ثم ما يحتاج إليه الكاتب من الإقطاعات وما يكتب فى شأنها ، وعقد الصلح وفسخه وما يكتب فى ذلك ، وتاريخ البريد ، ومراكزه فى مصر والشام ، وحمام الرسائل ، ومطاراته وأبراجه الخ . الخ .

وقد أراد به أن يزوّد الكاتب بكل ما يحتاج إليه من معلومات ، وقد طبع فى دار الكتب فى أربعة عشر مجلدا ، وقد توفى القلقشندى سنة ١٤١٨ .

فكتاب النويرى أوسع موضوعا ، وكتاب العمرى أوسع فى الجغرافيا والتاريخ ، وكتاب القلقشندى ألصق بالكتابة وأدواتها ولوازمها ، ولكل فضل .

وقد كانت كلها مصدراً للأدباء والعلماء ، كما أنها حفظت لنا ثروة كبيرة من مؤلفات الأقدمين ، ومن معلومات هامة عن الأحداث المعاصرة ، وكما كانت مادة قيمة للباحثين من المستشرقين والشرقيين .

المؤرخون : كثر مؤلفو التاريخ فى هذا العصر من تراجم رجال إلى تاريخ مدن إلى تاريخ سياسى لدولة إلى تاريخ عام .

وكان من أوائل المؤلفين فى هذه الفترة ابن خلكان فقد ألف كتابه وفيات الأعيان فكان مرجع كل باحث ، ومؤلفه ابن خلكان هذا ينتمى إلى يحيى بن خالد البرمكى ، وقد ولد فى اربل (١٢١١) ودرس فى حلب ودمشق والقاهرة ، وكان قاضى القضاة فى الشام فى عهد الظاهر بيبرس .

وكتابه من أهم الكتب فى تراجم المشهورين من رجال العلم والأدب والصناعة والمال غير الصحابة والتابعين والخلفاء ، واجتهد فيه فى تحرى الحقائق بعين ناقدة ، فى لغة سليمة بسيطة ، متوقيا قدر الإمكان ألفاظ الفجور ، وقد احتوى نحو ٨٦٥ ترجمة ، وعنى أشد العناية بتحقيق سنة الوفاة ، ومن ثم سماه « وفيات الأعيان » وربما ترك مشهوراً من العلماء والأدباء لأنه لم يتحقق من تاريخ وفاته ، وربما كان كتابه هذا أول كتاب من نوعه لشموله وعدم اقتصاره على نوع معين من المشهورين ولا على بلد معين .

وقد مات سنة ١٢٨٢ .

وقد ذيل هذا الكتاب ابن شاكر الكتبى المتوفى نحو سنة ١٣٠٣ مترجما لبعض من تركه ابن خلكان ولابن خلكان نفسه ولبعض من جاءوا بعده وسمى ذيله « فوات الوفيات » . وهو دون الوفيات فى استيفاء الترجمة وتحرى سنة الوفاة .

***

وألف محمد بن على بن طباطبا نزيل الموصل فى عهد فخر الدين عيسى بن ابراهيم كتابه الذى نسبه إليه وسماه الفخرى . وعرض فيه لتاريخ الدولة الإسلامية من أول عهدها إلى آخر الدولة العباسية ، وقد عنى فيه بالأسلوب ودقة التعبير وحسن السبك ، كما أن له نظرات دقيقة فى شؤون السياسة العامة وقواعد كلية يستشهد عليها بالأحداث الإسلامية الجزئية ، وقد ولد ابن طباطبا سنة ١٢٦٢ .

كما ألف أبو الفداء أمير حماة ، من قبل الملك الناصر ومن نسل الأيوبيين ، والذى عاش من سنة ١٢٧٣ — ١٣٣١ كتابه فى التاريخ العام ، وقد اعتمد فيه على الطبرى وابن الأثير ، وهو أكثر فائدة فى تأريخه للفترة الأخيرة التى كانت بعد ابن الأثير ، وانتهت سنة ١٣٢٩ .

واشتهر بالتاريخ شمس الدين الذهبى (١٢٧٤ — ١٣٤٨) وهو من أصل تركمانى ، ولد فى دمشق ورحل إلى بلاد كثيرة يلقى علماءها ، وقد اشتهر فى التاريخ بكتابيه « طبقات الحُفَّاظ » فى تراجم المحدِّثين ونقدهم والحكم لهم أو عليهم ، وكتاب « تاريخ الإسلام » وكان عمدة كثير من المؤرخين بعده ، وهو لم يطبع إلى الآن .

وخليل بن أيبك الصفدى المتوفى سنة ١٣٦٣ الفلسطينى ، وقد اشتهر بكتابه الواسع فى التراجم المسمى « الوافى بالوفيات » فى ستة وعشرين جزءاً ، وقد طبع منه بعض أجزائه .

ثم ابن كثير (١٣٠٢ — ١٣٧٢) وقد خلف الذهبى فى التدريس بدمشق وألف فى التاريخ كتابه « البداية والنهاية » بدأه ببدء الخليقة وانتهى إلى سنة ١٣٣٧ ، وقد طبع فى مصر فى أربعة عشر مجلداً .

وألف لسان الدين بن الخطيب الذى تقدم ذكره « الإحاطة فى أخبار غرناطة » ترجم فيه لرجالها كما ألف فى تاريخ الأندلس والمغرب .

وكان من المؤرخين فى هذا العصر ابن الفرات المصرى المولود سنة ١٣٣٤ ، وله كتاب كبير فى جملة أجزاء طبع بعضها ، وأهميته فى أنه يعد مرجعاً عظيم القيمة فى الحروب الصليبية

وقد تفوق فى التاريخ — وكان نسيج وحده — «ابن خلدون» (سنة ١٣٣٢—١٤٠٦) منحه الله عقلا نفاذاً ، وذكاء لامعاً ، وملاحظة دقيقة ؛ ثم انغمس فى الحياة السياسية المضطربة فى الأندلس والمغرب ومصر فأفاد منها ، اتصل بالملوك والأمراء والخاصة والعامة ، فدرس أحوالهم عن قرب ، وتولى المناصب الكبيرة ، وسفر بين الملوك فاطلع على بواطن الأمور ، وربط الأحداث بعضها ببعض ؛ وعرف أسبابها ونتائجها ، واستخرج من ذلك علماً هو علم التاريخ . لقد كان المؤرخون قبله يسردون الحوادث ، ويسمون ذلك تاريخاً ، فجاء هو يستخرج من الجزئيات كليات ونظريات ، ويطبقها على الأحداث وأمثالها .

أصله عربى من كندة من حضرموت . رحل بعض أجداده « خالد » إلى الأندلس وسميت الأسرة ببنى خلدون ، وسكنت أولًا بالقرب من إشبيلية ، ثم فى إشبيلية ، ثم فى تونس . وبعد أن أتم دروسه التحق بخدمة السلطان أبى إسحاق إبراهيم من بنى حفص ، وتوالت عليه أيام البؤس والرخاء ، وتدخل فى نزاع السلاطين ، ونصر بعضاً على بعض ، فإذا جاءت دولته كرم ، وإذا زالت عذب وسجن ، إلى أن أتى مصر ، وتولى التدريس فيها ، ثم على كره منه ولاه السلطان برقوق القضاء فعرف بشدته ، ورفضه الرجاء ، فكان له من ذلك أعداء ، فعزل ، ثم ولى ثم عزل ثم ولى — وصحب الملك الناصر «فرجا» الذى خلف برقوق إلى الشام فى حروبه مع تيمورلنك ، ولقى ابن خلدون تيمورلنك فأكرمه وأعجب به ، وعاد إلى مصر حيث مات بها سنة ١٤٠٦ .

ألف ابن خلدون تاريخه الضخم « العبر » ، وأعظم جزء فيه مقدمته ، فهى الموضوع المبتكر ، وضع فيها أسس التاريخ من حيث هو علم ، فنقد المؤرخين السابقين فى طريقتهم من عدم الدقة ، والتحرى ، وإعمال العقل فيما يروون ، ورأى أن العالم ينتقل فى أدوار طبيعية ، من بدو إلى حضارة ، وشرح هذا الترقى فى الاجتماع والدين والسياسة والاقتصاد والفن والعلم ، فمزج بين ما سمى بعد بعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد وعلم السياسة وعلم الحضارة مزجا تاما .

بين لنا كيف تتكون الدول ، وكيف تنمو وكيف تنهار ، وما لذلك من أعمار ، ووسائل الرقى والانحطاط ، وطبائع البدو وطبائع الحضر ، الخ . وأسلوبه فيها أسلوب رياضى أشبه ما يكون بشرح نظرية هندسية — الفرض ثم الدعوى أو المطلوب ثم البرهان — فى تعبير لا يزيد عن المعنى ولا ينقص ، ليس فيه من المحسنات اللفظية ما يصرف النظر عن الجوهر ، قد تحرر لفظه من قيود السجع ، كما تحرر فكره من قيود السياسة والتعصب لمذهب دينى معين أو جنس من الناس معين حتى ولا جنسه العربى .

فإذا نحن علمنا أنه لم يحذ فى ذلك حذو أحد قبله أدركنا سر عظمته ؛ وقد أخذ عليه بعض المستشرقين أن كل أمثلته وتطبيقاته إنما هى على الدول الإسلامية . ولو كان قد توسع فى التاريخ السياسى اليونانى والرومانى لكان له أفق أوسع ، ونظر أشمل . ولكن أى إنسان خلا من « لو » .

وبقية الأجزاء كسائر كتب التاريخ ولكن تمتاز بمقدمة صغيرة بين يدى الموضوع وبذكر حوادث مما حدثت بعد الطبرى وابن الأثير ، وبمعلومات وافية عن تاريخ المغرب .

وقد كتب هذا التاريخ — أولاً — سنة ١٣٣٧ ثم أعاد تنقيحه مراراً .

وعلى الجملة فإن كان غيره من المؤرخين شريطا مسجّلا فإنه ترفع عن ذلك وأبى إلا أن يبحث فى الآلة كيف تسجل وكيف تصنع ومتى تجود ، وكيف يكون فى الإمكان أن تكون خيراً مما كان .

ومن الأسف أن لم يكن بين المسلمين من نهج نهجه ، ورقى نظرياته ، وإنما كان ذلك فى الغرب أخيراً إذ أسس علم الاجتماع وعلم السياسة وعلم الاقتصاد وعلم التاريخ .

ومن أمثلة أسلوبه وتفكيره قوله فى التربية وطرق التعليم

« اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً إذا كان على التدريج شيئاً فشيئاً ، وقليلاً قليلا ، يُلْقِى عليه أوّلاً مسائلَ من كل باب من الفنّ هى أصول ذلك الباب ، ويُقرِّبُ له فى شرحها على سبيل الإجمال ، ويراعى فى ذلك قوةَ عقله واستعداده لقبول ما يَرِد عليه ، حتى ينتهى إلى آخر الفنّ . وعند ذلك تحصُل له مَلَكة فى ذلك العلم ، إلا أنها جزئية وضعيفة ، وغايتُها أنها هيّأته لفهم الفنّ ، وتحصيل مسائله ثم يَرجعُ به إلى الفن ثانية فيرفعه فى التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها ، ويستوفى الشرح والبيان ، ويخرج عن الإجمال ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه ، إلى أن ينتهىَ إلى آخر الفنّ ، فتجود ملكته . ثم يرجع به وقد شدا ، فلا يترك عويصاً ولا مُبْهَماً ولا مُغْلَقاً إلا وَضّحه ، وفتح له مُغلَقه ، فيخلُص من الفنّ وقد أُستولى على ملكته . هذا وجه التعليم المفيد ، وهو — كما رأيت — إنما يحصل فى ثلاث تكرارات ، وقد يحصل للبعض فى أقل من ذلك بحسب ما يُخْلقُ له ويتيسّر عليه . وقد شاهدنا كثيراً من المعلّمين لهذا العهد الذى أدركنا يجهلون طرق التعليم وإفاداته ، ويُحْضِرُون المتعلم فى أوّل تعليمه المسائلَ المقفلة من العلم ، ويطالبونه بإحضار ذهنه فى حلّها ، ويحسبون ذلك مَرانة على التعليم وصواباً فيه ، ويكلفونه وَعْىَ ذلك وتحصيله ، ويخلِطون عليه بما يُلقون له من غايات الفنون فى مباديها ، وقبل أن يستعدّ لفهمها ؛ فإنّ قبولَ العلم والأستعداداتِ لفهمه تنشأ تدريجاً ؛ ويكون المتعلم أوّل الأمر عاجزاً عن الفهم بالجملة إلا فى الأقل ، وعلى سبيل التقريب والإجمال ، وبالأمثال الحِسّيّة . ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرّج قليلا قليلا بمخالفة مسائلِ ذلك الفنّ وتكررها عليه . والأنتقال فيها من التقريب إلى الأستيعاب الذى فوقه ، حتى تتمّ الملكة فى الأستعداد ، ثم فى التحصيل ؛ ويحيط هو بمسائل الفن . وإذا أُلقيت عليه الغايات فى البدايات — وهو حينئذٍ عاجز عن الفهم والوعى ، وبعيد عن الاستعداد له — كَلّ ذهنه ، وَحسب ذلك من صُعوبة العلم فى نفسه ، فتكاسل عنه ، وأنحرف عن قبوله ، وتمادَى فى هِجرانه . وإنما أتَى ذلك من سوء التعليم » .

ثم المقريزى أبو العباس تقى الدين ، أصله من بعلبك وتحول والده إلى القاهرة فولد تقى الدين (١٣٦٥ — ١٤٤٢) ونسبته إلى حارة بعلبك تسمى المقارزة ، وقد أكثر من التأليف فى التاريخ ، وخاصة فى تاريخ مصر فى عصورها المختلفة ، من الخلفاء الفاطميين ،

« اتعاظ الحنفا » إلى المماليك « السلوك » وفى تخطيطها « المواعظ والاعتبار » وهو واسع الاطلاع ، كثير النقل من غير عزو ، قليل النقد ، ومع هذا ترك لنا ثروة من المعلومات قيمة ما كان يمكننا الوصول إليها لولاه . وجاء فى أول خططه قوله :

« وبعد ، فإنّ علمَ التاريخ من أجلّ العلوم قدْرا ، وأشرفها عند العقلاء مكانةً وخَطَرا ، لما يَحويه من المواعظ والانذار ، بالرحيل إلى الآخرة عن هذه الدار ؛ والاُطلاع على مكارم الأخلاق ليُقْتَدَى بها ، واستعلامِ مَذَامِّ الفعال لِيَرْغَبَ عَنها أو لو النُّهَى . لا جَرَمَ أن كانت الأنفس الفاضلة به وامِقةً ، والهِمَمُ العالية إليه مائلةً وله عاشقةً . وقد صنف الأئمة كثيراً ، وضمَّن الأجلّة كتبهم منه شيئاً كبيراً .

وكانت مصر هى مسقَط راسى ، وملعب أترابى ومجمع ناسى ، ومَغْنَى عشيرتى وحامَّتى ، وموطنَ خاصَّتى وعامَّتى ، وجوِّى الذى رَبَّى جناحَىَّ فى وكْره ، وعُشّ مآربى فلا تهوى الأنفس غير ذِكره . لا زلتُ مذ شدوت العلم ، وآتانى ربى الفطانة والفهم ، أرغب فى معرفة أخبارها وأُحبّ الإشراف على الكثير من آثارها ، وأهوَى مساءلة الركبان عن سكان ديارها ، فقيَّدتُ بخطِّى فى الأعوام الكثيرة من ذلك فوائد قلّما يجمعها كتاب ، أو يحويها لِعزَّتها وغرابتها إهاب ، إلا أنها ليستْ بمرتَّبة على منوال ، ولا مهذَّبةٍ بطريقة واحدة ومثال . فأردتُ أن أُلخصَ منها أنباء ما بديار مصر من الآثار الباقية ، عن الأمم الماضية والقُرون الخالية ، وما بقى بفُسْطاطِ مصرَ من معاهدَ غيَّرَها — أو كاد — البِلَى والقِدم ، ولم يبقَ إلا أن يمحوَ رسمها الفناء والعَدَم ؛ وأذكر ما بمدينة القاهرة ، من آثار العصور الزاهرة ، وما اشتملت عليه من الخِطَطِ والأصقاع ، وحوته من المبانى البديعة الأوضاع ، مع التعريف بحال مَنْ أسَّس ذلك من أعيان الأماثل ، والتنويه بذكرَى الذى شادها من سَراة الأعاظم الأفاضل ، وأنثُر خلال ذلك نُكَتاً لطيفة ، وحكما بديعة شريفة ، من غير إطالة ولا إكثار ، ولا إجحاف يُخِلُّ بالغَرَض ولا اختصار ، بل وسَطٌ بين الطرفين ، وطريق بَيْنَ بَيْن . . . » الخ .

وجاء ابن عربشاه (١٣٨٩ — ١٤٥٠) وهو دمشقى الأصل أخذ أسيرا فى غزوة تيمورلنك للشام وأرسل إلى سمرقند ، وقد استفاد من إقامته فى هذه البلاد ومن رحلته

إلى خوارزم وطراخان وغيرها معلومات قيمة عن الفرس والترك ومعرفة بلغتهما ، وقد اتصل بالسلطان محمد الأول بن بايزيد وقربه إليه ثم حج وأتى مصر .

وقد ألف كتابه « عجائب المقدور فى أخبار تيمور » وهو مسجوع مملوء بالمحسنات البديعية ، وفيه معلومات طريفة عن تيمورلنك ودولته ، كما ألف « فاكهة الخلفاء » وهو كتاب فى السياسة الرمزية كـكليلة ودمنة وقلد فيه كتابا فارسيا اسمه مرزبان نامه .

وألف أبو المحاسن بن تغرى بردى (المتوفى سنة ١٤٥٩) كتابه النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة مرتبا حسب السنين من فتح العرب لمصر إلى سنة ١٤٥٣ ، مع ذكره فى كل سنة من توفى فيها من المشهورين .

ثم شهاب الدين أبو العباس المقرى سنة ١٥٩١ سنة ١٦٣٢ ولد فى تلمسان ، ورحل إلى فاس ومراكش ثم حج وجاء إلى مصر ورحل إلى بيت المقدس ودمشق .

وقد ألف كتابه « نفح الطيب » أثناء إقامته فى القاهرة وهو قسمان قسمه الأول فى تاريخ الأندلس ورجالها ، والثانى فى ترجمة لسان الدين بن الخطيب ومشايخه ومن يتصل به وفى الكتاب معلومات قيمة عن الأندلس لا نظفر بها فى غيره .

وكتب طاشكبرى زاده التركى الأصل (١٤٩٥ — ١٥٦٠) كتابه شقائق النعمان ترجم فيه لنحو ٥٢٢ رجلا من علماء الترك ومتصوفتهم ، كما ألف « نوادر الأخبار » ترجم فيه لأعلام الإسلام . الخ الخ .

***

وإذا انحرفنا قليلا عن خط التاريخ وجدنا شيئاً كبير القيمة قريباً منه وهو الرحلات ، وعلى رأسها رحلة ابن بطوطة (١٣٠٤ — ١٣٧٧) . ولد مؤلفها فى طنجة ، ونشأ طُلَعة . وبعد أن تثقف نوى أن يزور العالم الإسلامى ويتعرف أحواله ، ويقيد ما يرى فى البلاد وأحوال سكانها وعاداتهم ونحو ذلك — وقد رحل إلى شرق أفريقيا والقسطنطينية والهند وسيلان والصين . وعاد إلى بلده طنجه سنة ١٣٤٩ واستقر بها أشهراً ، ثم زار غرناطة ثم بلاد السودان .

وقد فاق فى وصفه الرحالين فى العصور القديمة والوسطى فى دقة تصويره رغم ما وقع

فيه من أخطاء ومبالغات وأوهام ، ولا يزال مصدراً معولا عليه فى وصف الحياة الاجتماعية والثقافية للعالم الإسلامى فى عصره .

وألف فى هذا العصر من معاجم اللغة كتاب لسان العرب لأبى الفضل محمد بن مكرم المتوفى فى القاهرة سنة ١٣١١ فى عشرين مجلداً جمع فيه كتاب التهذيب للأزهرى ، والمحكم لابن سيده ، والصحاح للجوهرى ، والجمهرة لابن دريد ، والنهاية لابن الأثير .

وهو يجمع مادة ضخمة فى اللغة والأدب ، إذا استشهد ببيت أو حديث أو آية فسره وأتى فى ذلك بفوائد قيمة ، وقد قال فى مقدمته : « وإنى لم أقصد سوى حفظ هذه اللغة العربية وضبط فضلها ، إذ عليها مدار أحكام الكتاب العزيز والسنة النبوية ... وذلك لما رأيته قد غلب فى هذا الأوان ، من اختلاف الألسنة والألوان ، حتى لقد أصبح اللحن فى الكلام يعد لحناً مردوداً ، وصار النطق بالعربية من المعايب معدوداً ؛ وتنافس الناس فى تصانيف الترجمانات فى اللغة الأعجمية ، وتفاصحوا فى غير العربية ، فجمعت هذا الكتاب فى زمن أهله بغير لغته يفخرون ، وصنعته كما صنع نوح الفلك وقومه منه يسخرون » .

ثم « القاموس المحيط » لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادى (١٣٢٩ — ١٤١٤) ولد بكازرين إحدى بلاد فارس ، وتعلم فى واسط و بغداد ودمشق ، ورحل إلى مصر ثم إلى آسيا الصغرى ولقى تيمورلنك فى شيراز ، فقابله مقابلة حسنة ، ثم دخل زبيد فتلقاه الأشرف إسماعيل سلطان اليمن بالقبول وعينه قاضى القضاة باليمن حتى مات .

ولقى كتابه القاموس شهرة كبيرة حتى سمى كل معجم قاموساً ، وهو شديد الاختصار وأقل قيمة من لسان العرب ؛ وإن كان يمتاز ببعض مزايا كتمييزه بين الواوى واليائى ؛ وضبطه البلدان والأعلام ، و نصه على صيغة المؤنث الخ .

وقد جاء فى العصر العثمانى السيد المرتضى الزبيدى ، ولد فى اليمن ونشأ بها ، ثم جاء إلى مصر ، وكان يعرف العربية والفارسية والتركية ، فشرح قاموس الفيروزابادى فى عشرة مجلدات ضخمة وسماه تاج العروس .

وكما كان هناك موسوعات فى الكتب كان هناك رجال موسوعيون يؤلفون المؤلفات المختلفة الكثيرة فى الموضوعات المختلفة ، ولعل من يمثل هذا خير تمثيل جلال الدين

السيوطى ، (١٤٤٥ — ١٥٠٥) وقد سكنت أسرته أسيوط فنسب إليها ، ولكنه ولد فى القاهرة من أب كان قاضياً ، وقد درس العلوم المختلفة فى عصره ، وحدَّث عن نفسه فقال : رزقت التبحر فى سبعة علوم — التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبيان والبديع على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة — والذى أعتقده أن الذى وصلت إليه من هذه العلوم سوى الفقه والنقول التى اطلعت عليها فيها لم يصل إليه ولا وقف عليه أحد من أشياخى فضلا عمن دونهم .

وأما الفقه فلا أدعى ذلك فيه ، بل شيخى فيه أوسع نظراً وأطول باعا (يريد شيخه علم الدين البلقينى) ودون هذه السبعة فى المعرفة أصول الفقه والجدل والتصريف ، ودونها الإنشاء والترسل والفرائض ودونها القراءات ، ولم آخذها عن شيخ ، ودونها الطب ، وأما علم الحساب فهو أعسر شىء علىّ وأبعده من ذهنى ، إذا نظرت فيه مسألة تتعلق به فكأنما أحاول جبلا أحمله » .

وقد عدّ هو من تآليفه ثلثمائة كتاب فى فروع مختلفة ، فى اللغة « المزهر » — مثلا — وهو من خير كتبه ، وفى النحو كالأشباه والنظائر ، وطبقات النحويين واللغويين ، وفى التاريخ كحسن المحاضرة ، وفى علوم القرآن كالاتقان الخ .

ويظهر أن إعجابه بنفسه — كما تدل عليه كلمته السابقة — وإغارته على بعض تأليف غيره جعلت له أعداء كثيرين من علماء عصره مما دعا السلطان طومان باى أن ينحيه من مناصبه ، وقد اتهم كثيرا بأنه يأخذ من تآليف غيره ويحورها وينسبها إلى نفسه ، حتى تنازع هو والقسطلانى فى كتاب « المواهب اللدنية » أيهما ألفه ، والقسطلانى يدعى أن السيوطى أغار عليه حتى تحاكما إلى شيخ الاسلام زكريا الأنصارى فحكم به للقسطلانى . وأياما كان ، فقد كان جماعا أكثر منه مبتكرا أو ناقدا .

***

وجاء حاجى خليفة المعروف بكاتب جلبى ، وهو تركى من الآستانة تعلم والتحق بالجيش واشترك فى حملة وجهت إلى بغداد وإلى همذان وإلى حلب ، وانتدبه السلطان محمود الثانى فى لجنة لاصلاح مالية الدولة ومات سنة ١٦٥٨ .

فألف موسوعة يذكر فيها كل ما اطلع عليه ووصل إلى علمه من الكتب وسماه

« كشف الظنون ، فى أسامى الكتب والفنون » يشتمل على نحو خمسة عشر ألف اسم لكتاب مع ذكر مؤلفيها وتاريخ وفاتهم ما أمكن .

ويذكر فذلكة عن كل علم عند ذكر حرفه حسب حروف الهجاء فتاريخ علم الأدب فى الهمزة والفقه فى الفاء والحساب فى الحاء وهكذا .

وقد حظى هذا الكتاب لحاجة الباحثين إليه ، وهو مرجع للباحث العربى والفارسى والتركى .

من هذا كله يتجلى أن حركة التأليف هذه كانت حركة قوية ، ورجالها مخلصون فى بذل الجهد والرغبة فى التحصيل والمسابقة فى التأليف ، ولكنها حركة معادة كحركة الماء على سطح البحيرة الراكدة ، فأكثر هذا التأليف جمع لأقوال من سبق أو تجميع لمتفرق ، أو تفريق لمجتمع ، أو تسجيل لما حدث ، وإذا استثنينا ابن خلدون وقليلا من المؤلفين لم نجد جديداً .

والأدب ليس إلا صورة ممسوخة لأدب ابن العميد ، وابن عباد ، والقاضى الفاضل ، ومقامات الحريرى ، وشعر أبى تمام والبحترى وأمثالهما . وكان الأمر فى العصر العثمانى أسوأ منه فى عهد المماليك ، فقد أصبح الأدب والعلم تقليداً للتقليد ، وأصاب البلاد ركود فى الحركة العلمية والأدبية ، وصار نَفَسا ينبعث من صدر شيخ فان ، واستمر الحال على هذا المنوال إلى الحملة الفرنسية ثم محمد على .

هذه لمحة خاطفة فى قصة الأدب العربى فى ذلك العصر لم نطل فيها كما أطلنا فى الآداب الأخرى لأن كتبها المطولة فى متناول القارئ العربى .

فإذا نحن نظرنا إلى الأدب العربى فى هذه الفترة فى ضوء ما حكيناه عن الأدب الغربى رأينا البون شاسعاً ، فى هذه الفترة فى أوربا كانت النهضة ، والثورة على القديم ، ووضع أسس جديدة لحياة جديدة ، وتحكيم العقل فى المسائل العلمية ؛ وتحرير العواطف من قيود التقاليد ، واستمرت العواطف والعقل ترقى طوال القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر . وشهدت هذه النهضة قصص شكسبير ، ومآسى راسين ، وملاهى موليير ، وأساطير لافونتين ، وروائع جوته إلى كثير من أمثال ذلك ، كما شهدت فلسفة

بيكون وديكارت وهجل ، ووضع كل قضية موضع البحث والتجربة ، وكما شهدت الرقى الصناعى واكتشاف البلدان والتقدم فى كشف المخترعات .

لقد كان الشرق والغرب يسيران متحاذيين تقريباً قبل النهضة الأوربية إن لم يفق الشرق ، فلما جاء عصر النهضة كان الغرب يسير إلى الأمام والشرق يسير إلى الخلف فى العلم والأدب والفن والصناعة وسائر ضروب الحضارة ، وكلما مضى الزمن كبر الفرق .

ويرجع ذلك إلى سوء الحالة الاجتماعية والسياسية فى الشرق ؛ فظلم الحكام من المماليك والعثمانيين خنق الشعب ، وإسرافهم فى ترفهم أفقر الشعب ، ولكن كان الحال كذلك فى الغرب ، فثار الشعب ، فلم لم يثر الشرق على حكامه وينتزع حقوقه من أيديهم ؟

لقد أصيب الشرق بكوارث خطيرة من غزوات التتار وتيمورلنك والصليبيين ، وكان الخراب والتدمير والفقر وتوالى النكبات ، فضعفت من ذلك نفوس الشعوب .

وكان رجال الدين فى يد الحكام يسخرونهم كما يشاءون إلا فى القليل النادر ، والشعوب تحترم رجال الدين وتصغى إليهم وتسمع لأوامرهم ونواهيهم ، فكان الصمت وكان الاستسلام ، وكان الاعتقاد بأن الظلم من غضب الله ، والفقر من قدر الله .

لقد كان من أهم ما اتجه إليه الأدب والعلم فى النهضة الأوربية الدنيا وشؤونها ، فلا حرج على الإنسان أن يستمتع بملذات الحياة ، وأن يهتم بالدنيا وما فيها ، بل أفرطوا فى ذلك ، وعلى أثر ذلك قوى العلم وقويت العواطف فقوى الأدب . أما فى الشرق فلم يضموا الدنيا إلى الآخرة فى الحساب ، ونسوا قوله تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » . وقوله صلى الله عليه وسلم : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً » ؛ وكان نظرهم إلى الآخرة يصبّرهم على بؤسهم فى الدنيا ، فنظروا إلى الآخرة وحدها ، ولذلك كانت الحركة العلمية حركة دينية بحتة من تفسير وحديث وفقه ، واللغة لخدمة الدين ، والنحو والصرف لخدمة الدين ، أما النظر إلى الطبيعة والصناعة والمادة والعمل على ترقيتها واستخدامها فليس فى الحساب ؛ ولذلك غلبهم الأوربيون — فى أول احتكاك — بمهارتهم فى شؤون الدنيا ، ودهش الجبرتى وأمثاله مما رأوا من عمل الفرنسيين فى الطبيعة والكيمياء — ولم يرزق الله الشرق بعظماء يغيرون هذا الاتجاه

ويدعون إلى النظر فى الدنيا كما ينظرون إلى الآخرة ؛ ومن بدأ فى ذلك كابن خلدون لم يستطع أن يكوّن مدرسة — فى الغرب كان من دعا مثل هذه الدعوة ، ثم سجن أو عذب لتعاليمه الجديدة الجريئة ؛ كان يجد من يحمل اللواء عنه حتى تستقر الدعوة ، ولكنه فى الشرق كان يسجن أو يعذب ، فتنكمش النفوس ، ولا يجرؤ أحد على نصرته فتموت الفكرة ، وذلك لما ذكرنا مما أصاب نفسية الشعب .

ماتت الفلسفة التى تحيى الفكر ومات الاعتزال الحر ، وبقى الأمر فى يد الفقهاء والصوفية ، والفقه تحول إلى شكل ، والتصوف تحول إلى شعوذة إلا فى القليل النادر ، وكان هؤلاء جميعاً قادة الشعوب روحيا ، والملوك الظلمة والأمراء الطغاة قادتهم إداريا ، وتصالح هؤلاء وهؤلاء على إماتة الشعوب ، فمن فاه بكلمة تخالف المألوف فويل له ، فوقفت حرية الفكر ، وليس ينهض الأدب إلا فى جو الحرية .

ثم إن الأدب لا ينهض إلا بالتطعيم ، لقد نهض الأدب العربى فى آخر العصر الأموى وفى العصر العباسى بتطعيمه بالأدب الفارسى والهندى والعلم اليونانى ، ونهض الأدب الأوربى فى عصر النهضة بتطعيمه بالأدب اليونانى والرومانى ، ونهض أدب كل أمة أوروبية من انجليزية وفرنسية وألمانية وإيطالية باقتباسها من غيرها وترجمة خير ما تخرجه الامم الأخرى إلى لغتها ، فبذلك كان الأدب فى حركة مستمرة وحياة متدفقة غير راكدة .

والأدب العربى فى هذه الفترة أغلق على نفسه ، لم يطعّم أى تطعيم ولم يتفتح أمامه أى أفق جديد ، ولم يتأثر أى تأثر بما كان يجرى فى أوربا من نهضة ، فلما لم تهب عليه ريح جديدة ولا جرى إليه جدول جديد أصيب بالركود .

***

لقد كان ذلك إلى حملة نابليون على مصر سنة ١٧٩٨ حيث اتصل الشرق بالغرب وأخذ يطلع على علومه وآدابه ، ويدخلها مع الأدب العربى القديم فى منهاجه ، ولكن مع الأسف شعر الشرق حين اطلاعه على علم الغرب وأدبه بشىء من « مركّب النقص » كما امتزج إعجابه بتقدم العلم والأدب فى أوربا بشعوره بكراهية الاستعمار الذى جرته معها المدنية الغربية ، فكان من ذلك كله نتائج هى موضوع بحثنا فى الجزء الثالث إن شاء الله .

الفصل الخامس عشر

الأدب الفارسى

من غارات التتار إلى انقضاء الدولة الصفوية

من منتصف القرن السابع الهجرى إلى منتصف القرن الثانى عشر

أجملنا فى الجزء الأول من قصة الأدب أحوال الأدب الفارسى الإسلامىّ منذ نشأته إلى غارات التتار ؛ أى من أواخر القرن الثالث الهجرى إلى منتصف القرن السابع . فصوّرنا بعض مظاهر هذا الأدب القيّم الواسع على قدر ما يحتاج قرّاء العربية الذين يبغون أن يعرفوا من هذا الأدب ما لا يسع المتأدب جهله .

وفى هذا الفصل نسوق الكلام فى تاريخ هذا الأدب أو التعريف ببعض أحواله بعد غارات التتار إلى انقضاء دولة الصفويين . وذلكم زهاء خمسة قرون ، سيطر فيها على إيران كلها أو أكثرها التتار الإيلخانيون ثم تيمور لنك وخلفاؤه ثم الصفوية . وبين هذه الدول دول صغيرة نشأت فى الاضطراب الذى يقارن سقوط دولة كبيرة وقيام أخرى ، كما عاصرت الإيلخانيين والتيموريين دول أخرى فى أرجاء إيران ، ولكن تاريخ هذه الدول الثلاث الكبيرة يوضح عصور التاريخ الإيرانى فى هذه القرون الخمسة .

مقدمة :

فجئ التتار الأقطار الإسلامية بغاراتهم المدمرة فى العقد الثانى من القرن السابع الهجرى . وسرعان ما اجتاحوا بلاد ما وراء النهر ، لم يثبت أمامهم جيش ، ولا ردت بأسهم مدينة . ولم يستطع ملوك خوارزم أن يصدُّوا هذا السيل الجارف بالبأس ولا بالحيلة . وعبرت الجيوش التتارية نهر جيحون إلى بلاد الفرس ، ويممت فرق منهم الغرب فانساحت فى أوربة الشرقية .

وكان التتار حيثما ساروا ينشرون الخراب والدمار ، ويشيعون الفزع والهلع كالنيران

المضطرمة ، والرياح العاصفة . وقد صدقت فيهم مقالة الفرس : جاءوا وقتلوا وأخربوا ، وأحرقوا وحملوا وذهبوا .

ولا يسعنى — كلما كتبت عن غارات التتار — أن أنسى الكلمات المبكيات التى خطها مؤرخ معاصر : ابنُ الأثير صاحب التاريخ الكامل فليقرأها من شاء .

ظلت حوادث التتار تضطرب فيما وراء النهر وشمال إيران حقبة . فلما كانت سنة إحدى وخمسين وستمائة وجّه منكو قا آن ملك التتار — حفيد جنكيزخان — أخاه هولاكو للقضاء على حصون الاسماعيلية وعلى الخلافة العباسية فى بغداد ؛ فأخضع أمراء إيران والقوقاز إلى آخر سنة ثلاث وخمسين . ثم فتح قلاع الاسماعيلية سنة أربع وخمسين . ثم عمد إلى بغداد ففتحها ، وقتل الخليفة المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين فى المحرم سنة ست وخمسين .

ثم توجه صوب الغرب يبغى الشام ومصر واستولى على البلاد . حتى كانت موقعة عين جالوت فى فلسطين سنة ثمان وخمسين ، فردّت الجيوشُ المصرية والشامية التتار ، وعلّمت المسلمين أن هذا العدوّ الهائل لا يستعصى على الشجاعة والصبر . فارتدّ خطر التتار عن مصر ، ثم انحسر شرّهم عن الشام سريعاً ؛ ولكن بقى سلطانهم فى العراق واتصل مُلكهم من بادية الشام إلى التركستان الشرقية .

وكان لهولاكو من هذه الأقطار مافتحه منذ وجّهه أخوه للفتح . وهو ما بين جيحون إلى البحر الأبيض ، وما بين جبال القوقاز إلى المحيط الهندى . وقامت له ولذريته من بعده دولة واسعة استمرت إلى سنة ٧٤٤ هـ وعرفت باسم الدولة الإيلخانية ، أى دولة ملوك الأقاليم ، تمييزا لهم عن دولة الخاقان الأعظم ، وكانوا يعترفون بسلطان الملك الأعظم الخاقان وارث عرش جنكيز خان .

فصل قيام الدولة الإيلخانية — فى العالم الإسلامى الشرقى عامة وفى إيران خاصة — بين عهدين من التاريخ مختلفين فى السياسة وفى الآداب والعلوم والفنون . وفيما يلى إجمال الكلام فى الدول التى سيطرت على إيران منذ زالت الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ إلى أن زالت الدولة الصفوية سنة ١١٤٨ ، وذلك خمسة قرون ، وإجمال الكلام فى الأدب فى تلك العصور .

ويمكن أن نقسم هذه الحقبة قسمين : الأول عصر التتار والتيموريين ، والثانى عصر الصفويين ، الأول من سقوط بغداد إلى سنة ٩٠٧ والثانى من هذه السنة إلى سنة ١١٤٨ .

القسم الأول

التتار والتيموريون

الفصل الأول — التتار :

توفى هولاكو بعد ثمان سنين من فتح بغداد ، فخلفه ابنه أباقا سنة ٦٦٣ ثم توالى على الملك تسعة بعد أباقا ، لا ينفسح المجال لتعدادهم بله وصف أحوالهم وسِيرهم ؛ ولكن الذى يعنينا أن نبيّن كيف استجاب التتار سريعاً للحضارة المحيطة بهم ، ودخلوا فى الجماعة الإسلامية . بعد أن تنازعتهم الأديان حيناً ، وطمع الصليبيون ودول أوربا فى محالفتهم ومحالفة الخاقان الأعظم على قتال المسلمين . أسلم تكودار بن هولاكو وتسمّى أحمد . فلما مات أباقا تنازع الملك هو وأرغون بن أباقا فانتصر أكثر المغول للأول فملك متسميا السلطان أحمد ، وسارع إلى إعلام علماء بغداد وسلطان مصر برغبته فى نصرة الإسلام وموادّة المسلمين ، ولكن أرغون ائتمر مع بعض كبراء المغول حتى خَلع السلطان أحمد وقتله .

ولم يمض أكثر من أحد عشر عاماً بعد قتل السلطان أحمد حتى تولى الملك غازان حفيد أباقا وكان توليّه إيذاناً بظفر الإسلام بالمغول كلهم فى الدولة الإيلخانية .

وكان غازان قد وعد مربّيه الأمير نوروز أن يسلم إذا أظفره الله بالملك على عمه بايدو ، فلما مَلك أنجز وعده . ففى الرابع من شعبان سنة ٦٩٤ أسلم هو وعشرة آلاف من المغول فى حضرة الشيخ صدر الدين ابراهيم ابن الشيخ سعد الدين الحموى . واستمر الإسلام منذ ذلك اليوم ديناً لملوك المغول فى إيران حتى انتهت دولتهم سنة ٧٤٤ هـ

كان سيل التتار طامياً جارفاً مدمِّراً ؛ ولكن لم يجرف كل الزروع والأشجار فى إيران ، ولم يذهب بالبذور كلها من هذه الأرض الخصبة ، فنمت على الزمان جذور ، ونبتت بذور ، فلم تعدم إيران فى عصر التتار أدباً . ثم كان إقليم من إيران بنجوة من هذا السيل — إقليم فارس ، الإقليم الجنوبى الغربى من إيران ، الذى نشأت فيه الدولة الفارسية الأولى ، والذى حفظ تراث إيران بعد غارات الإسكندر المقدونى حقباً طوالا .

كان فى هذا الإقليم إمارة أنشأها أحد أتابكة السلاجقة سنقر بن مودود ، ودامت

زهاء قرن ونصف (٥٤٢ — ٦٨٥ هـ) وحفظت نفسها فى هذه العصور المضطربة بمسالمة الفاتحين ، والتودّد إليهم . أدى أمراؤها الجزية للسلاجقة ولملوك خوارزم ثم صانعوا ملوك التتار وأدوا إليهم الجزية كذلك فجنبوا بلادهم الكوارث التى حلت بغيرها . وانتهت دولتهم بتزوج الأميرة أبش خاتون — آخر من ملك من هذه الأسرة — بالأمير منكَو أحد أبناء هولاكو فدخل الإقليم فى سلطان التتار حتى توفيت الأميرة فى ١١ ذى القعدة سنة ٨٦٥ .

كانت هذه الإمارة إبّان غارات التتار مثابة للناس وأمناً ؛ فلجأ إليها كثير من العلماء والأدباء . وقد أشاد الشيخ سعدى الشيرازى — وهو ينتسب إلى الأمير سعد بن أبى بكر من أمراء هذه الدولة — بما فعل هؤلاء الأتابك لحماية البلاد ، قال فى مقدمة كتابه « البستان » أبياتا ترجمتُها بالعربية :

فمن يبغ أمناً بهذى الفتن ... فليس له غير هذا الوطن
فطوبى لبيت كبيت العتيق ... حواليه من كل فج عميق
لقد صد اسكندر بالحديد ... وبالقِطر يأجوج يبنى السدود
وقد فقت اسكندراً فى النُوَب ... أقمت ليأجوج سدّ الذهب (١)

وفى شيراز من هذا الإقليم نشأ اثنان من أعظم شعراء إيران : الشيخ سعدى الشيرازى وقد تقدم ذكره فى الجزء الأول من قصة الأدب ، وحافظ الشيرازى . وحسبنا أن نذكره من بين شعراء هذا العصر عصر التتار :

حافظ الشيرازى

شمس الدين محمد الحافظ الشيرازى ، ولد فى شيراز فى أسرة فقيرة ، وتوفى أبوه وهو صبى فاضطرته الفاقة إلى أن يكسب قوته بالعمل فى مخبز ؛ ولكن طموحه إلى المعرفة وميله إلى التعلّم نزعا به إلى مناهل العلم فى شيراز . فكان يغشاها كلما أمكنته الفرصة .

ولسنا ندرى كيف طلب الحافظ العلم ؛ ولكنا نظن أنه سار فى طلبه على نهج معاصريه . وقد حفظ القرآن وبهذا لقّب « الحافظ » وأخذ عن علماء شيراز فى الدُور والمساجد والمدارس .

وقد تولّى التدريس من بعدُ فى بعض مدارس شيراز ، درّس التفسير والكلام والنحو والأدب .

---

(١) البيت الثانى نظمه الشيخ سعدى بالعربية .

حافظ الشيرازى (بجانب الشجرة) وصديقه الشيخ أبو إسحاق

زهاء قرن ونصف (٥٤٢ — ٦٨٥ هـ) وحفظت اسمها في هذه العصور الصغرى عمالة الفاتحين ، والتوردة إليهم . أدى أمراؤها الجزية للملاجقة والمرك خوارزم ثم صانعوا ملوك التتار وأدوا إليهم الجزية كذلك خضعوا لأدهم الكوابوت التي حلت بعدها ، وانتهت دولتهم

وقد حفظ القرآن وعرف المتعلمين وجعلها موضع ([illegible]) في الجهالة لحفاظ الحديث والدارس .

وقد تولى التدريس من بعد في بعض مدارس تبريز ، درس التفسير والكلام والنحو والأدب

(٢) [illegible]

وعرف حافظ فى بلاده عالماً ، ثم ذاع صيتـه عارفا ، وانتشر كلامه فى الآفاق شاعراً . وعظّمه العامة والخاصة ، والملوك والرعيّة وحسُن اعتقادهم فيه ، فـكانوا يتلقون أشعاره على أنها رموز للأسرار الإلهية ، و إشارات للمعارف القدسية ، وأبيات تشبه فى ظاهرها كلام الشعراء ، وفى باطنهـا كلام العارفين والأولياء . ومن أجل هذا سمّوه « لسان الغيب » ودعوه « ترجمان الأسرار » .

واتصل ببعض أمراء زمانه وكبرائه ، وذكرهم فى شعره وسجّل بعض الخطوب فى منظوماته ؛ ولـكن ذكر هؤلاء الأمراء والـكبراء وتسجيل هذه الخطوب كان يأتى جملا موجزة ، أو إشارات خفية فى أثناء شعره . لم يصرّح بالمدح إلاّ قليـلا ، ولم يذهب فيه مذاهب المدّاحين ؛ بل كان البيت أو الأبيات القليلة تأتى فى ثنايا غزل من غزلياته لا يكاد القارىء يدرك أن الشاعر قطع سياقه ليمدح .

ولحافظ فى الشعر أسلوب دقيق جميل يشبه النغَم الموسيقى المحـكَم ، جانست كل لفظة صاحبتها ، وأصابت كل كلمة دلالتها . ومعانيه بين التصريح والتلويح ، والظهور والخفاء ، تستغرق عناية القارىء ، وتستولى عليه ، فيتأملها حريصاً عليها معجباً بها . وقلّ من يساير حافظاً فى إحكام السبك ، ودقة النسج ، و إجادة النظم . فلا تجد فى أوزانه وقوافيه — على كثرة ما كنى وورّى وجانس — تكلّفاً أو اضطراباً أو فضولا . وكثيراً ما أتى بالرديف فى شعره فلم يهن ولم يتكلف (١) .

وتبدو مهارته فى أكمل وجوهها حين يضمّن المعانى الصوفية المعانى الظاهرية المألوفة ، فيقسم كلامه بين أهل الظاهر وأهل الباطن ؛ فمن شاء تغنّى به فى مجلس شراب بين الندماء والأحباب ، ومن شاء تواجد به بين الصوفية ، وتجاوز ظاهره إلى معانيه الخفية .

هو كذلك فى معظم ديوانه المسمّى الغزليات (٢) ؛ ولـكنه بين الحين والحين يبدو صوفياً صريحاً ، أو يعرض معانيه فى صور شعرية غير محتملة إلا التفسير الصوفى ، ثم يسارع إلى التحجب بين أزهار الرياض ، ومجالس الشراب ، ويسمعك رنين الـكؤس وأحاديث

---

(١) الرديف كلمة تـكرر فى آخر الأبيات ، ويلتزم روىّ قبلها . والتزام كلمة واحدة دون تكلف لا يكون إلا براعة .

(٢) الغزل فى اصطلاح الأدب الفارسى أبيات قليلة تقال فى معان شتى أغلبها الغزل فى معناه العربى . وهو يقابل القصيد ، وهو منظومات غلب فيها الطول تقال فى الوصف والمدح والهجاء الخ

الندامى ، وأغاريد البلابل ، ويحدثك عن الخدود والعيون والحواجب والطرر والأفواه ؛ سنّة شعراء الغزل والخمر .

ولولا هذه الجلَوات التى يمرّ بها قارىء شعره ، وهذه اللمعات التى يدلّ بها على نفسه ما التمس الناس فى شعره شيئاً وراء المعانى الظاهرة .

وعارُ ديوان حافظ كالسائر فى حديقة ورد تروعه الصور الكثيرة ، والألوان المختلفة ؛ ولكنها كلها ورد . فهو يعرض صورا كثيرة لحقائق قليلة .

أو هو كالمطرب يسمعك كثيراً من الأوزان والألحان والأنغام ؛ ولكنها لا تعدو حديث الحبيب فى جماله ووصله وهجره وبعده وقربه ورضاه وغضبه . وكل ما سمعت من هذا معجب مطرب رائع ، وكأن كل قطعة — باحسان التعبير وإجادة التصوير — تتضمن معانى جديدة لم تتناولها قطعة قبلها .

وهذه قطع من شعر حافظ ترجمتها منثورة إلا واحدة نظمتها . وقد أردت أن تكون الترجمة عُطُلا من الزينة مُبينة عن المعنى فى غير تكلف :

— ١ —

لا ترجوَن طاعة وصدق عهد منى أنا السكران الذى طار ذكرى باحتساء الكأس يوم « ألست »(١)

حينما توضأت من ينبوع العشق ، كبّرت أربع تكبيرات على كل كائن

ناولنى الصهباء أعلمك — من أسرار القضاء — أى وجه تيّمنى وأىّ عَرف أسكرنى

إن الطود هنا أخف من النملة ، فلا تيأسنّ من الرحمة يا عابد الخمرة

ليفدِ فمك الروح ، فما أنبت بستانىّ العالم فى حديقة النظر ، أجمل من هذا الكِمّ بين الزهَر

ما اطمأن تحت هذه القبة الزرقاء غيرُ هذه النرجسة السكرى لا مسّتها الضرّاء

لحافظ من عشقك ملك سليمان ؛ ولم تنل يده من وصلك إلا الريح .

— ٢ —

وهذه قطعة من أجمل ما عرف الشعر الصوفى وأبعده مرمى :

تحدّث شعاع حسنك بالتجلى فى الأزل ، فبدا العشق وأضرم فى العالم ناراً لم تزل .

وتجلّى عشقه فما رأى الملَك ولهان ، فقلبته الغيرة ناراً تشتعل فى الإنسان . وأراد

(١) يوم ألست : إشارة إلى الآية الكريمة « ألست بربكم قالوا بلى » .

المدعى أن يطالع السرّ فيعلم ، فدفعت يد الغيب فى صدر غير المحرَم[١] ، وهمّ العقل أن يضىء من هذه الشعلة سراجا ، فتلألأ برق الغيرة وزلزل العالم هياجا .

اقترع الآخرون على العيش وقلبى المغتم ، عاودت قرعته الغمّ . نظر ليرى فى العالم صورته ، فضرب فى مزرعة الإنسان خيمته . إنما خط حافظ سجلّ الطرب فى عشقك ، حينما خطّ على أسباب الفرح من أجلك[٢] .

وحافظ يبين فى شعره عن انقباض واكتئاب وحزن ، ويعرب عما يمتحن به فى هذا العالم ، ويغلب عليه التشاؤم ؛ ولكنه يبين عن فرحه وسروره أحياناً ، وعن تهلله وإشراقه ، وتأميله وانبساطه ؛ كأنه برئ من مرض ، أو استراح من ألم ، أو ظفر بما يريد بعد عناء ، أو حُمّ له بعد طول الفراق لقاء . فغزله الذى أوله :

تعال فإن قصر الأمل واهن القواعد ، وهات الخمر فأساس العمر على الرياح .

يقول فيه :

لا تؤمل صدق العهد من الدنيا المتقلّبة ، فإن هذه العجوز عروس لألف زوج .

ويقول بعد هذا البيت كالذى أفاق من غفوة :

ماذا أقول لك ؟ كم بشّرنى ملك الغيب البارحة وأنا فى الحانة سكران خائر !

قال أيها البازى الطموح ، أليف السدرة ، ليس مقامك فى زاوية المحن هذه . لا لا ! استمع ؛ ألا تسمع الصفير ينبعث من شرفات العرش . ما الذى أصابك فى هذا الشرَك .

وله غزل أوله :

ترك شيخنا البارحة مسجده إلى الحانة ، فما ترون يا إخوان الطريقة ؟

يقول فيه :

جلا علينا وجهك الجميل آية من اللطف فليس فى تفسيرنا إلا اللطف والجمل .

وهذا البيت يبين عن الأصل الذى يصدر عنه حافظ ، فقد أدرك من الجمال الإلهى فى هذا العالم ما أنطقه بتفسير هذا الجمال كالطائر الغرد الذى يشرف على شجرة فى روضة يقلب نظره بين المياه والأزهار والأشجار ، وكأن تغريده ترجمة الجمال الذى يرى ، وتفسير الحسن الذى يُبصِر ، بالأصوات والأنغام .

---

(١) يستعمل فى الفارسية المحرَم فى معنى الأمين على السر والأهل له . وهو فى العربية بمعنى أقرباء المرأة الذين لا يحل لهم تزوجها . وهم أمناء عليها .

(٢) خط على أسباب الفرح أى ضرب عليها بالقلم (شطبها) .

ولا أنسى كلما تحدثت عن حافظ غزله الرائع الذى أوله :

رأيت البارحة الملائكة تدق باب الحانة ، وتصوغ طينة آدم كأساً .

ويعلن عن اغتباطه بما أدرك فيقول :

إن سكان حرَم الملكوت شاركونى الشراب وأنا حِلس التراب . أحمد الله فقد وقع الصلح بينى و بينه . وهذه الحور راقصة تشرب كئوس الشكر فرِحة .

ويقول بعد هذا البيت وكأن هذا الصلح هو إدراك الستر المحجب ، والاطلاع على الحقيقة الخفية التى ضلّ عنها الناس .

« التمس عذراً لحرب الاثنتين والسبعين ملة ، فقد عميت عليهم الحقيقة فضربوا فى بيداء الخرافات » .

— ٣ —

وهذه قطعة أخرى من قطعه التى يبين فيها عن نفسه فى ثورة وهياج :

تعالى الله أى سعادة لى الليلة فقد أوافى حبيبى بغتة الليلة
سجدت حين رأيت وجهه الجميل بحمد الله ما أحسن عملى الليلة
قد أثمر غصن عيشى بوصله فأنا مجدود ظافر الليلة
ينقش دمى على الأرض « أنا الحق » كالحلاج إن صلبتنى الليلة
فى يدى براءة ليلة القدر أتى بها طالعى اليقظان الليلة
صح عزمى على أن أرفع الغطاء عن الطبق ولو ذهب رأسى الليلة
أنت صاحب نعمة وأنا مستحق فهات زكاة الحسن فلى الحق هذه الليلة
إنى لأخشى أن يَمَّحِى حافظ من الثورة التى فى رأسى الليلة

فهذه إحدى قطعه التى لا تفسر فى جملتها إلا بالمعانى الصوفية . وهى من الأبيات التى يرمى بها الوجد أحياناً فيُغلب حافظ على تقنُّعه وتحجُّبه ، فقد عزم على أن يبوح بالسر ولو كان فى هـذا قتله . وإن قتل فلن يحوّله القتـل عن هذا الإدراك الذى أحاط به ، وتغلغل فى سريرته ، وسرى فى دمه ، فلو سال دمه على الأرض ما دلّ إلا على هذا المعنى ، وما رسم على الأرض إلا الـكلمة الناطقة بالفناء والتى صلب بها الحلاج « أنا الحق » ، بل يخشى حافظ مما ثار نفسه هذه الليلة أن يمَّحى .

وهذه قطعة يدعو حافظ فيها إلى الرجاء والتفاؤل ترجمتها نظما :

يوسف المفقود فى أوطانه ، لا تحزنَن ، عائد يوما إلى كنعانه ، لا تحزنن

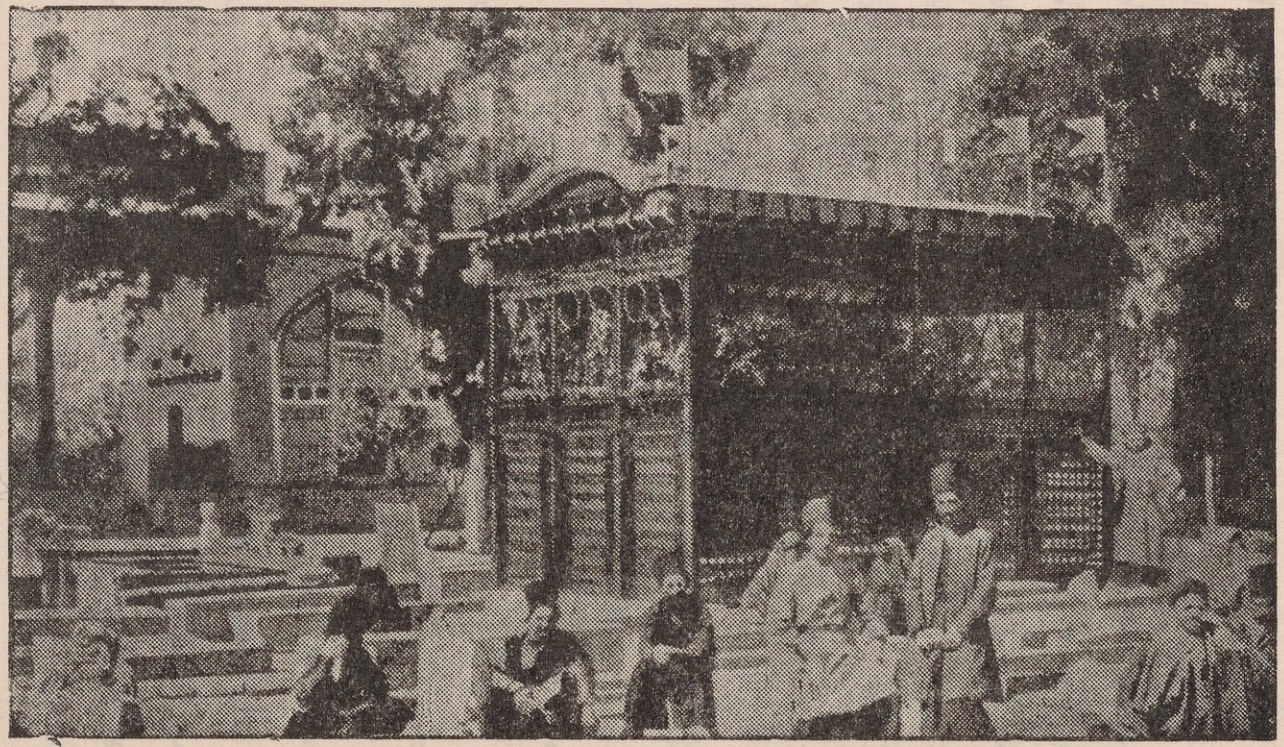

الحافظية فى مدينة شيراز حيث ضريح حافظ الشيرازى

بيت الأحزان تراه عن قريب روضة ... يضحك الورد على بنيانه ، لا تحزنن[1]
رأسك الأشعث يوما سوف يلقى زينة ... ويفيق القلب من أشجانه ، لا تحزنن
هذه الأفلاك إن دارت على غير المنى ... لا يدوم الدهر فى حِدْثانه ، لا تحزنن
أيها البُلبُل تغدو فى ربيع ثانياً ... تستظل الورد فى أغصانه ، لا تحزنن
لست تدرى الغيب فى أسراره ، لا تيأسَنْ ... كم وراء الستر من أفنانه ، لا تحزنن
إن إلى الكعبة فى أشواقك اجتزت الفلا ... فدهاك الشوك من سَعدانه ، لا تحزنن
يعلم الله مُحيل الحال ما أحوالنا ... والعدى والحِبّ فى هجرانه ، لا تحزنن
يافؤادى إن يَسِل بالكون طوفان الفنا ... فُلْك نوح لك فى طوفانه ، لا تحزنن
منزلٌ جِدٌّ مَخوف ومراد شاحطٌ ... لم يَدُم فجّ على ركبانه ، لا تحزنن
حافظٌ ما دمت بالفقر وليل مظلم ... فى دعاء الله أو قرآنه ، لا تحزنن

وفى هذه القطعة مثل من الأوزان والقوافى الفارسية . فالوزن من الرمل المثمّن أى ذى التفعيلات الثمانى . والرمَل فى العربية لا يزيد على ست .

والقافية مردوفة ؛ تكررت فيها كلمة « لا تحزنن » والتزم الروى فى الكلمات التى قبلها . وهذا شائع فى الشعر الفارسى عامة وشعر حافظ الشيرازى خاصة .

وقد كتب تاريخ حافظ وترجم ديوانه الدكتور إبراهيم أمين المدرس بكلية الآداب فليرجع إليه من شاء المزيد .

***

ولا يتسع المجال لتتبع الآثار الأدبية فى عهد التتار ، وحسبنا أن نقول إنه كان عصر اضطراب فى أوله ، اضطرب فيه الأدب ، فكانت فترة دَهِش فيها الناس لما أصابهم ، ولم يجدوا من يشجعهم أو يستمع لهم ، فانقطع النسَق فكان عهد التتار فاصلا بين عهدين .

والذى يثير إعجاب المؤلف فى هذه الحقبة التأليف التاريخى وحده . فقد عنى التتار بتسجيل أخبارهم ، وتدوين مآثرهم وتعريف الناس بسير آبائهم ، فألفت كتب فى التاريخ هى أحسن ما أنتجه عصر من عصور إيران .

ومن أجل هذا يحسن أن نفصّل الكلام فى هذا الجانب من الثقافة الإيرانية فى ذلك العصر .

(١) بيت الأحزان اعتكف فيه يعقوب حزنا على يوسف .

وأترجم لأكبر مؤرخى هذا العصر، الذى مهد السبيل لمن بعده . وهو رشيد الدين فضل الله صاحب الكتاب المعروف « جامع التواريخ » :

رشـــيد الدين

وكتابه جامع التواريخ

استجاب التتار سريعاً للاسلام وحضارته . واستعانوا بالمسلمين فى تدبير دولتهم ، ثم أسلموا واندرجوا فى الجماعة الإسلامية .

وقد نبه فى عهدهم وزراء رعوا السياسة والعلم ، وتركوا فى التاريخ آثاراً محمودة منهم أسرة الجوينى : شمس الدين محمد صاحب الديوان ، وأخوه علاء الدين عطا ملك ، وابنه بهاء الدين . تولى شمس الدين الوزارة لهولاكو ولابنه أباقا . وولى علاء الدين أمر بغداد أربعاً وعشرين سنة منذ عام ٦٥٧ هـ . وكان بهاء الدين واليـاً على العراق العجمى وفارس .

وكان لهذه الأسرة فضل فى تدبير الملك ورعاية العلم والأدب ، وكان فيها الأدباء العلماء . وقد ألف عطا ملك كتابا ضخما فى تاريخ التتار سماه تاريخ جهانكُشا أى فاتح العالم يعنى جنكيزخان . أكمله سنة ٦٥٨ ، بعد فتح بغداد بسنتين ، وانتهى فيه إلى حوادث سنة ٦٥٥ هـ .

ومن كبار الوزراء والعلماء والمصلحين فى دولة الأيلخانيين رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة أبى الخير ابن موفّق الدولة علىّ . كان جده موفق الدولة هو ونصير الدين الطوسى فى أسْر الإسماعيلية فى قلعة ألمُوت حينما استولى عليها هولاكو سنة ٦٤٦ ، السنة التى ولد فيها رشيد الدين . فدخل موفق الدولة فى خدمة هولاكو .

وصار رشيد الدين طبيباً لأباقا بن هولاكو ، ونبُه شأنه ، وعلت مكانته . فلما ولى محمود غازان ٦٩٤ زادت مكانة رشيد وعُرف فضله وتمكنه فى علوم أخرى إلى الطب الذى عُرفت خبرته فيه من قبل . فلما عُزل الوزير صدر الدين الزنجانى المعروف بصدر جهان وقتل ، ولى رشيد الدين الوزارة وأُشرِك معه سعد الدين سنة ٦٩٧ هـ . وذلك بعد ثلاث سنين من ولاية غازان . وصحب غازان فى غزواته فى الشام . وكان كاتبه باللغة العربية . واستمر

رشيد الدين وزيراً بعد موت غازان ، فوزر لأولجايتو (خدا بنده) وأغدق عليه خدابنده الهبات وقرّبه إليه ، وركن إليه فى تدبير الملك ، فبلغ رشيد الدين أوج سلطانه ، وتصرف كما يشاء خُلقه وعلمه وحكمته .

بنى رشيد الدين بجوار السلطانية دارِ الملك الجديدة ضاحيةً سماها الرشيدية . وبنى فيها مسجداً كبيراً ومدرسة ومارستانا ومستشفى ، ودوراً أخرى للخيرات وزهاء ألف منزل .

وبعد قليل بنى ضاحية أخرى قرب الغازانية شرقى تبريز وأنفق أموالا كثيرة حتى ساق إليها الماء من نهر سراوْ (سراورُود) فى قنوات منحوتة فى الصخر ، مكّنه من هذه الأعمال ما أفاض عليه السلطان من الأعطية .

وفى عهد أبى سعيد بن أولجايتو (٧١٦ — ٧٣٦) أشرك معه فى الوزارة على شاه ونالت الدسائس المتمادية من رشيد الدين فعُزل . ورغب فى أن يعيش فى دَعةٍ بعيداً عن الدسائس . وكان من الأمراء من يودّ رجوعه إلى الوزارة . فاهتم منافسه على شاه فاتهمه أنه هو وابنه الصبى ابراهيم وضعا السم لأولجايتو فى دواء صنع له . وصدّق أبو سعيد التهمة وكان صبياً فى الخامسة عشرة من عمره . فقتل الرجل العالم الخيّر الحكيم الحازم بعد أن لبث يدبر ملك المغول عشرين عاما . قتل سنة ٧١٨ وقد نيّف على السبعين . وقتل معه ابنه ابراهيم وهو صبى فى السادسة عشرة من عمره . وتلك كانت غايةَ وزراء المغول الأيلخانيين لم ينج منها إلا قليل .

وتبع قتلَه مصادرة أمواله وتعذيب أقاربه ونفيهم وإبطال أوقافه . وأبيحت المحلة التى بناها وسميت الربع الرشيدى .

دفن رشيد الدين فى القبر الذى أعده لنفسه ؛ ولكن هذا الرجل الكبير لم يترك له حتى قبره . فقد أمر ميرانشاه ابن تيمورلنك بعد مائة عام أن ينبش القبر وتنقل عظام المقبور إلى مقبرة اليهود . وكان حساد الرجل يزعمون أنه يهودى الأصل ، ومنهم من زعم أنه لم يزل على اليهودية .

كتبه :

كان رشيد الدين — على كثرة شواغله — معنياً بتأليف الكتب فى موضوعات شتى فألف :

١ — جامع التواريخ . وسنعود إلى الكلام فيه .

٢ — وكتاب الأحياء والآثار . وهو ٢٤ فصلا تتناول موضوعات مختلفة فى الطبيعة والزراعة والغرس وتربية الحيوان وقتل الحشرات الضارة ، وفى العمارة والتحصين وبناء السفن واستخراج المعادن الخ . وهذا الكتاب مفقود .

٣ — والتوضيحات . وهو فى العقائد والتصوف . كتبه بأمر أولجايتو ومنه نسخة فى مكتبة باريس .

٤ — ومفتاح التفاسير . فى بلاغة القرآن وفى المفسرين وطرائقهم وموضوعات دينية أخرى .

٥ — والرسالة السلطانية فى العقائد . ألفها على أثر مجادلة وقعت فى مجلس أولجايتو .

٦ — ولطائف الحقائق فى العقائد أيضاً . وهى ثلاثون رسالة صدرها بمقدمة حدّث فيها برؤيا رأى فيها الرسول صلوات الله عليه ليلة السادس والعشرين من رمضان سنة ٧٠٥ هـ وهذه الأربعة الأخيرة مكتوبة بالعربية ، وقد جمعت وسميت المجموعة الرشيدية ونسخها موجودة

وكتب أخرى .

عناية رشيد الدين بكتبه :

توسل رشيد الدين بوسائل عدة لتخليد كتبه ؛ كان يأمر أن تنسخ من كل كتاب نسخ كثيرة ويعيرها للعلماء مرخصاً لهم فى نسخها .

وأمر بأن يترجم كل كتاب له عربى إلى الفارسية ، وكل كتاب له فارسى إلى العربية ، وأن ينسخ من هذه وهذه نسخ كثيرة لتحفظ فى خزانة الجامع فى المحلة المنسوبة إليه : الربع الرشيدى .

وأمر أن تجمع رسائله مع ما يتصل بها من صور وخرائط فى مجموع واحد ، سمى جامع التصانيف الرشيدى ، وتوضع فى خزانة هذا الجامع .

وأمر أن تكتب أربعة من كتبه فى الطب وتدبير المغول للحكومات باللغات الثلاث العربية والفارسية والصينية .

وأباح نسخ كتبه كلها لمن يشاء ، وخصص مالا من وقف الجامع لنساخين يكتبون فى كل سنة نسختين من كل كتبه إحداهما بالعربية والأخرى بالفارسية ترسلان إلى إحدى المدن الإسلامية الكبرى .

وأمر أن تنسخ هذه الكتب على أحسن الورق البغدادى بأحسن الخطوط وأوضحها ، وأن تقابل بالأصول مقابلة دقيقة .

وأمر أن يُختار النساخون من مهرة الكتاب الذين يجيدون الكتابة ويسرعون فيها ، وأن يعملوا فى المساجد . وكلما كملت نسخة وضعت على كرسى بين المنبر والمحراب ، وتلى عليها دعاء للمؤلف كتبه لنفسه . ويكتب هذا الدعاء آخر كل نسخة ويتلوه تحميد أنشأه رشيد الدين ، وخاتمة يكتبها قيّم الوقف يبين فيها تاريخ النسخة ، والمدينة التى كتبت لها ، ويذكر اسمه ونسبه ليدعو له المسلمون .

ثم تحمل النسخة إلى قضاة تبريز ليشهدوا أن وصايا الواقف قد أنفذت فى كتابتها . وترسل إلى المدينة التى كتبت لها ، فتوضع فى خزانة عامة وييسر للناس الاطلاع عليها واستعارتها برهن يقدره قيّم الخزانة .

وأمر أن تكتب نُسَخ من المجموعة الرشيدية وبيان الحقائق وكتاب الأحياء والآثار وتعطى لأحد المدرسين فى الجامع يقرأ منها كل يوم ويفسرها للطلاب . وعلى كل مدرس أن ينسخ من أحد هذه الكتب نسخة عربية وأخرى فارسية فى مدة محددة ، فإن لم يفعل عزل . والنسخة التى يكتبها تكون له يتصرف بها كما يشاء . وتيسر مطالعة هذه الكتب لمن يشاء ولكن لا تنقل من خزانتها .

وعلى قوّام الوقف أن ينفذوا شروط الواقف فى غير تبديل ولا تحريف ولا ونًى ، ومن لم يفعل فعليه لعنة الله .

جامع التواريخ :

هو بالعربية والفارسية .

أشار السلطان غازان أحد الملوك من بنى هولاكو على وزيره رشيد الدين فضل الله بأن يكتب تاريخ المغول وقبائلهم وأنسابهم باللغة الفارسية . وجمع إليه كل خبير بتاريخ المغول ، ويسر له الاستفادة من سجلات الدولة . فلم تمنعه شواغله الكثيرة أن يجمع هذا التاريخ الجامع . ويقول دولتشاه : إن المؤلف لم يجد وقتاً للكتابة إلا ما بين صلاة الفجر وشروق الشمس من كل يوم . وقد توفى غازان قبل أن يتم الكتاب فأمر أخوه وخليفته أولجايتو بإتمامه وتصديره باسم غازان الذى أشار بتأليفه .

فى كشف الظنون : « لما شرع فى التبييض مات السلطان غازان فى شوال سنة ٧٠٤ ، وجلس مكانه أخوه خدابنده محمد فأمره بإتمامه وإدخال اسمه فى العنوان . وأمر أيضاً بإلحاق أحوال الأقاليم وأهلها وطبقات الأصناف وبأن يجعل جامعاً لتفاصيل ما فى كتب التاريخ .

وأمر من تحت حكمه من أصحاب تواريخ الأديان والفرق بالإمداد إليه من كتبهم . وأمر أيضاً بأن يجعله مذيلا بكتاب صور الأقاليم ومسالك الممالك فأجاب وكتب أحوال الدولة الجنكيزخانية وأمة الترك مفصلا فى مجلد ، وذكر خلاصة الوفيات فى مجلد آخر ، وذكر صور الأقاليم فى مجلد آخر على أن يكون ذيلا له . ونقل أخبار كل فرقة على ما وجد فى كتبهم بغير تغيير » الخ . . .

فقد أمر أولجايتو بكتابة جزء آخر ، فى تاريخ البشر وبخاصة المدن الإسلامية ، وجزء ثالث فى تقويم البلدان . والذى فى أيدينا اليوم الجزء الأول الذى يتضمن تاريخ المغول ، ويسمى أحياناً التاريخ الغازانى ، والثانى المتضمن التاريخ العام .

وتم الكتاب كله سنة ٩١٠ هـ .

والجزء الأول فيه بابان : الأول فى قبائل المغول والترك وفروعها وأنسابها وأساطيرها . والثانى تاريخ جنكيزخان وآبائه وخلفائه إلى غازان خان .

والجزء الثانى مقدمة : تاريخ آدم والأنبياء ، وبابان : الأول فى ملوك الفرس قبل الإسلام ، والثانى فى سيرة الرسول صلوات الله عليه والخلفاء إلى زوال الخلافة العباسية

بأيدى المغول ، وملوك الفرس بعد الإسلام : الغزنويين والسلاجقة وملوك خوارزم وأتابكة فارس ، وتاريخ الإسماعيلية .

ثم فى الترك ، وأهل الصين ، واليهود والفرنج وملوكهم وبابواتهم والهند وبوذا ودينه .

وهذا كتاب له قيمته وخطره فى التاريخ بما جمع تواريخ أمم كثيرة فى عصور متطاولة ، وبما استقصى المواقف فى جمع الأخبار من مصادرها المكتوبة وغير المكتوبة . وهو نسيج وحده فى طريقته وأسلوبه .

وقد يسر للمؤلف من المصادر وأتيح له من الرواة ما لم يجتمع مثله لمؤرخ .

يزاد على هذا التقاء تواريخ الأمم ، وحوادث العصور فيه . فهذا مؤلف مسلم يكتب لسلاطين تجاذبتهم الأديان حيناً ثم سكنوا إلى الاسلام . وهو يكتب فى حدود عصور مختلفة ، ما قبل غارات التتار وما بعدها . وحسبنا أنه يؤرخ لبنى جنكيز وهم فى مركز الحضارة الإسلامية ، ولكنهم متصلون بأمتهم وبسننهم إلى قلب الصين .

قال المؤلف فى أول الكتاب :

« أكتب تواريخ أصل المغول ونسبهم ، ونسب سائر الأتراك الذين يشبهون المغول ، فصلا بعد فصل ، وأرتب تلك الروايات والحكايات التى تتعلق بهم مما كان موجوداً فى خزائنهم المعمورة ، ومما وجد عند بعض الأمراء ومقرّبى الحضرة الشريفة مودعة . وإلى هذا الزمان لم يجمعها أحد ، ولم يتيسر له سعادة هذا التصنيف ، وشرف هذا التركيب والتأليف . وكل واحد من المؤرخين كتب سطراً من ذلك من غير معرفة بحقيقة الحال ، بل سمعه من أفواه العوامّ وتصرّف فيه على وجه اقتضاه رأيه ، ولم يتيقن صحة ذلك لا هو ولا غيره » .

وقد تلا رشيد الدين مؤرخون فى العهد التتارى فكتبوا كتباً فى التاريخ قيمة منها تاريخ كَزيده للمستوفى وتاريخ الوصّاف كما كتب قبل رشيد الدين تاريخ جهانكَشا (فاتح العالم) لعطا الجوينى .

واتصل التأليف فى التاريخ بعد عهد التتار فكتبت روضة الصفا وحبيب السيَر وغيرهما .

الفصل الثانى — عصر التيموريين :

— ١ —

تيمورلنك وأولاده :

سنة توفى أبو سعيد ثامن ملوك المغول الإيلخانيين وآخرهم ، ولد رجل قدِر له أن يسيّر على إيران وما يليها عاصفة من الخراب والدمار كالتى أثارها بنو جنكيز من قبل . ذلكم تيمور الذى عرف باسم تيمورلنك[1] .

ولد فى كَشّ فيما وراء النهر سنة ٧٣٦ هـ . وقد وُصل نسبه بجنكيز خان . وليس يتسع مجال القول هنا لنبين كيفَ نشأ تيمور وكيف تسلّط وكيف نشر فتوحه فى إيران والهند وآسيا الصغرى والشام .

حسبنا أن نقول إن إيران فى الحقبة التى بين وفاة أبى سعيد وغزو تيمور إياها ، وهى خمسة وأربعون عاماً ، كانت مقسمة بين أربع دول صغيرة ، أعظمهم وأجداهم على الأدب آل المظفر فى ولاية فارس والعراق العجمى وكرمان . وكانت دار ملكهم شيراز . وهم الأسرة التى عاش فى كنفها حافظ الشيرازى .

ثم شرع تيمور يفتح إيران سنة ٧٨٢ هـ فاستولى عليها سريعاً فيما استولى عليه من الأقطار .

وتوفى سنة ٨٠٧ هـ وقد امتدت دولته من دهلى إلى دمشق ، ومن بحيرة آرال إلى خليج البصرة . وكانت سمرقند دار ملكه .

وكان عسيراً أن يُحتَفظ بهذا الملك الفسيح ، فاسترد بعض الدول المغلوبة ما سلبوه بعد موته . وتمكن أولاده من تثبيت سلطانهم فى الولايات الشمالية من إيران .

وتنازع بنو تيمور على الملك زمناً إلى أن قضى عليهم الشيبانيون فيما وراء النهر والصفويون فى إيران .

ودامت دولة تيمور وخلفائه إلى سنة ٩٠٧ فقد استمرت زهاء مائة وأربعين عاما (٧٧١ — ٩٠٧ هـ) .

---

(١) لنك : الأعرج .

— ٢ —

كان القرن التاسع الهجرى عصر اضطراب سياسى فى إيران والبلاد المتصلة بها ؛ فقد أعقب موتُ تيمور لنك سنة ٨٠٧ هـ اضطرابَ الدولة التى بناها بالسيف والرعب . واستطاع ابنه شاه رُخ أن يثبّت سلطانه على معظم أرجاء المملكة ، وأن يثبُت لثورات أقاربه بين الحين والحين . فلما مات شاه رخ سنة ٨٥٠ خلفه ابنُه أُلُغ بك ، فلم يغن غناء أبيه ، وتوفى بعد قليل . فكان الأمر بعده كما قال السير جون ملكولم : « بعد موت ألغ بك نرى طائفة من ذرية تيمور يتنازعون أرجاء الإمبراطورية . وقد بلغ إجلال الناس للدم التيمورى حداً يسّر لكل من يفخر بجريان هذا الدم فى عروقه أنصاراً يمكّنونه من الظفر بعرش أو قبر مجيد » .

ونشأت فى هذا القرن دول جديدة ، فنازعت بنى تيمور المتنازعين : دولةُ الأزبَك فيما وراء النهر ، ودولتا التركمان المعروفتان : قَره قُيونلو (ذوو الشاة السوداء) ، وآق قُيونلو (ذوو الشاة البيضاء) . وكانت خاتمة هذا الاضطراب المستمر انتصار الشاه إسماعيل مؤسس الدولة الصفوية فى موقعة شُرور سنة ٩٠٧ بعد مائة سنة من موت تيمور . وكان هذا الانتصار على جيوش آق قيونلو فاتحة انتصارات مدّت سلطان إسماعيل ما بين نهر جيحون وخليج البصرة وأفغانستان والفرات . فجمع شمل هذه البلاد مرة أخرى .

— ٣ —

وإنما يعنينا من ذرية تيمور الأمراء الذين كان لهم أثر حميد فى السياسة والعلوم والفنون :

١ — شاه رخ بن تيمور ، وكان أمير خراسان أيام أبيه تولاها وعمره عشرون سنة عام ٧٩٩ هـ ، وضرب النقود باسمه . ثم امتد سلطانه بعد أبيه على معظم إيران وما وراء النهر . ولم يكن همه توسيع ملكه بل إصلاح ما أفسده أبوه وتعمير ما أخربه . وقد أجمع مؤرخوه على مدحه والإشادة بحبه للسلم وعنايته بتعرف أحوال الرعية وإسعادها . وكان مكرما رجال العلم والأدب فقصدوه من كل جانب .

٢ — ولم يدم ملك ابنه ألغ بك أكثر من ثلاث سنين ؛ ولكنه شارك فى نشر العلم . وقد بنى مرصد سمرقند حينما كان أمير تركستان فى عهد أبيه ، وإليه ينسب زيج ألغ بك أو الزيج الجديد السلطانى .

٣ — وكان السلطان أبو سعيد حفيدُ ميران شاه بن تيمور ذا عناية بالعلم والأدب كذلك . وقد استقر ملكه فى هراة اثنى عشر عاما .

وأعظم بنى تيمور أثراً فى العلوم والآداب السلطان أبو الغازى حسين الذى ملك هراة بعد موت أبى سعيد سنة ٨٧٣ هـ واستمر ملكا إلى أن توفى سنة ٩١١ هـ . وفى كنفه عاش الجامى زمناً طويلا ، وإليه أهدى كثيراً من مؤلفاته . وكان السلطان أديباً شاعراً ، ولكن الفضل الأكبر فى تثبيت دولته واجتماع العلماء والأدباء حوله يرجع إلى وزير عالم شاعر خيّر معمّر محب للعلماء صارت هراة فى أيامه مجمع النابغين من رجال العلوم والفنون ، حتى عدت إذ ذاك كمدينة غزنة فى عهد السلطان محمود ، فلا يستطيع من يتكلم فى هذا العصر أن يغفله . ذلكم هو الوزير الكبير على شيرنوائى .

ولد فى هراة سنة ٨٤٤ ومات ودفن بها سنة ٩٠٦ . وكانت وزارته فى ذلك العصر المضطرب مصدر سلم وإصلاح . وقد وثق به السلطان حسين ، وكان رفيقه فى طلب العلم ، فألقى إليه مقاليد الدولة فيسر الله الأمور ، وعم السلم حتى استطاع هنا الوزير أن يفرغ بعض الفراغ للاشراف على المؤلفين ، وأن يشاركهم فى التأليف والنظم ، ووجد سبيلا للرياضة الروحية ، وأدخله صديقه الشيخ الجامى فى الطريقة النقشبندية .

وقد أجمع مؤرخوه على أنه كان من الأفذاذ الذين تزيّن بهم تاريخ الإسلام ؛ حتى بابُر ، وهو أدق نقداً وأكثر اقتصاداً فى المدح من أصحاب التراجم ، يقول إنه لا يعرف مثله فى السخاء ورعاية العلماء .

وقد شجع هذا الوزير كثيراً من العلماء والأدباء على التأليف وقرض الشعر . وكان صديقاً للجامى ومحسناً إليه . وقد أهدى إليه الجامى كثيراً من كتبه . ورثى الوزير صديقه الجامى حين مات ونظم منظومة طويلة سماها « خمسة المتحيرين » تخليداً لذكرى صديقه وشيخه فى التصوف .

وكان هذا الوزير مولعاً بالموسيقى والغناء والتصوير والنقش ، فعاش فى رعايته كبار المصورين والموسيقيين ، ومنهم المصور الكبير بهزاد ، وشاه مظفر ، والموسيقى قول محمد وشيخى النائى ، وحسين العودى .

وكان شاعراً عظيما أغنى اللغة التركية الشرقية بمنظوماته المطولة . وهى ستة مثنويات كبيرة . وكان مؤلفاً خصب القريحة كتب تسعة وعشرين كتابا فى موضوعات مختلفة فى عهد السلطان حسين ، آخرها « محاكمة اللغتين » . وهو كتاب أراد أن يبين فيه امتياز اللغة التركية على الفارسية ، كتبه سنة ١٩٠٥ قبل وفاته بسنة واحدة . وقد رأيت فى إستانبول معجما له فى اللغة العربية سماه سبعة الأبحر .

وقد أهدى إليه كثير من المؤلفين كتبهم ، منهم الشيخ الجامى ، وله ألّف كتابه « نفحات الأنس » فى تراجم الصوفية ، ودولتشاه الذى أهدى إليه كتابه « تذكرة الشعراء » .

وأما كلفه بالتعمير وبره بالفقراء وعنايته بدور العبادة والعلم ، فحسبنا فى ذلك أن نعرف أن بناءه وترميمه ووقفه تناول ثلاثمائة وسبعين بناء بين مسجد ومدرسة وخان ودار صدقة فى خراسان ، وأنه جلب الماء من عين بعيدة فى طريق وعر إلى مدينة المشهد ، فهى تسقى منها حتى اليوم .

— ٤ —

نرى إذاً أن عصر بنى تيمور ، على كثرة فتنه وحروبه ، كان عصر ازدهار للآداب والفنون . كان هؤلاء الأمراء المتنازعون كالأمراء الذين استقلوا فى العراق والشام وإيران فى القرن الرابع الهجرى ، فتنافسوا فى إحياء الآداب ؛ بل كانوا كملوك الطوائف فى الأندلس ، تنافساً فى تقريب العلماء والشعراء .

يقول الدكتور مارتن : « إن تكن جيوش تيمور قد محت آثاراً جميلة فإن خلفاءه أحدثوا كثيراً من بدائع الصناعات وأبلغوا الفنون الفارسية أعلى درجاتها . كانوا فى فترات السلم يعنون بالكتب وينظمون الشعر ، وكثير منهم أجاد فى شعره ؛ فالسلطان حسين مرزا لم يكن شاعراً قليل الخطر ، وشعره التركى يفوق شعر كثير من شعراء وقته . وقد كتب أيضاً باللغة العربية .

إنهم كانوا فى أساليب حياتهم يشبهون أمراء أوربا المعاصرين ، أو أمراء فرنسا فى القرن الثامن عشر ؛ ولكنهم كانوا فى الأدب أعظم أثراً . كان شاه رُخ وأُلُغ بك ، وباى سُنقُر ، والسلطان حسين ، محبين للكتب يعنون بالإجادة فى نسخها وتذهيبها وتحليتها .

فهم لا يقلون عن معاصريهم دوقات برجندى Bergundy ، ولا يقاس بهم عشاق الكتب فى إيطاليا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر .

كان باى سنقر والسلطان حسين فى إيران كما كان وليم موريس فى إنجلترا بعد أربعة قرون . إنهم لم يكتفوا بجمع الكتب . بل خلقوا فنونا لها . ولا يمكن أن يقاس بالكتب الشرقية فى ذلك العصر أجملُ ما عرفته أوربا من الكتب . وكان باى سنقر خاصة مولعاً بالفنون الكُتُبيّة ، فنشأ فى رعايته أجمل الأساليب فى صناعة الكتب . وكان من أعاظم المولعين بالكتب فى العالم كله . كان يعمل بأمره وتشجيعه أربعون صَنَعاً فى النسخ . وبلغت العناية بالورق والتصوير والتجليد حداً لا يعرف نظيره حتى اليوم .

وقد أخرجت إيران أجمل بُسُطها فى عهد التيموريين ، لا فى عهد الشاه عباس . وصنع فى قصورهم من السلاح والدروع والأدوات والآنية المحلاة بالعاج ما لم تعرف مثله الأقطار الأخرى » .

— ٥ —

العلماء والكتاب والشعراء :

وقد نبغ فى هذا العصر كثير من الكتاب والمؤلفين ، عدّ المؤرخ خُوندَمير فى كتابه « حبيب السير » زهاء مائتين من الكتاب والمؤلفين فى ذلك العصر .

فمن المؤرخين حافظ أبرو صاحب « زبدة التواريخ » ألفه لشاه رخ ، وفصيحى الخوافى صاحب « المجمل » فى التاريخ والجغرافيا ، ألفه لشاه رخ أيضاً ، وعبد الرازق السمرقندى صاحب « مطلع السعدين » أهداه إلى أبى سعيد ، ومعين الدين الإسفيزارى صاحب « روضات الجنات » فى تاريخ مدينة هراة ، كتبه للسلطان حسين .

ومنهم المؤرخ الكبير ميرخُوند صاحب « روضة الصفا » أمضى معظم حياته فى هراة فى كنف الوزير على شير .

ومن أصحاب التراجم دولتشاه صاحب « تذكرة الشعراء » ، وحسين الواعظ صاحب « روضة الشهداء » فى مصارع آل البيت ، وعلى بن حسين الواعظ صاحب « رشحات عين

الحيـاة » فى تراجم الصوفية . وقد ألف السلطان حسين كتاباً فى التراجم سماه « مجالس العشاق » ، كما ألف وزيره على شير « مجالس النفائس » فى تراجم الصوفية والشعراء .

وكان للشعر رواج فى ذلك العصر . وقد أثر شعراؤه فى تركيا وما وراء النهر والهند . وكانت الصناعة والتكلف غالبين على الشعراء ، إلا جماعة من كبرائهم .

ومن كبار الشعراء شاه نعمة الله الكرمانى ، وهو صاحب طريقة فى التصوف ، توفى ٨٣٤ هـ ، وسيد قاسم الأنوار ولد فى ولاية تبريز سنة ٧٥٧ هـ ومات فى خَرجِرد سنة ٨٧٣ وكاتبى النيسابورى ، وإمامى الهروى .

وقد ذكر على شير ٤٦ شاعراً معاصراً .

وأما التصوف فكان غالباً على العلماء والشعراء . وقد ألفت فى تراجم الصوفية « نفحات الأنس » للجامى و « الرشحات » للواعظ و « شرح المثنوى » لكمال الدين الخوارزمى .

وإذا أردنا أن نختار من أدباء هذا العصر من يتمثل فيه علم العصر وأدبه وتصوفه فى أكمل صورها فذلكم :

الشيخ عبد الرحمن الجامى

(١)

هو نور الدين عبد الرحمن الجامى بن نظام الدين أحمد الدشتى بن شمس الدين محمد . كان جده من دشت إحدى محلات أصفهان . ثم رحل إلى ولاية جام من خراسان . وهناك تقلد القضاء والإفتاء ، وتزوج امرأة من ذرية الإمام محمد بن الحسن الشيبانى صاحب أبى حنيفة ، فولد له نظام الدين . وكان شمس الدين وابنه يعرفان هناك بلقب الدشتى ، نسبة إلى دشت أصفهان .

وهنالكم فى قرية اسمها خرجرد من قرى جام ، ولد عبد الرحمن وقت العشاء ، ليلة الثالث والعشرين من شعبان سنة ٨١٧ هـ .

وقد بين هو مولده فى بيتين له بالفارسية .

ورحل فى صغره مع أبيه إلى هراة . وهنالك غلب عليهما لقب الجامى نسبة إلى ولاية

جام التى رحلا عنها . وللجامى بيتان يذكر فيهما أنه يسمى الجامى من جهتين : لأنه من ولاية جام ، ولأنه من المقتدين بشيخ الإسلام أحمد الجامى .

(ب)

بدأ عبد الرحمن تعلمه فى المدرسة النظامية فى هراة ، فدرس علوم الدين وأخذ علوم البلاغة ، فقرأ المفتاح والمطوّل وحواشيه . وكان من أساتذته على السمرقندى من تلاميذ السيد الشريف الجرجانى . قال عنه الجامى إنه لم يكن له نظير ؛ ولكنه استغنى عنه بعد أربعين يوماً . وكذلك سمع دروس شهاب الدين الجاجَرمى الذى تتصل تلمذته بسعد الدين التفتازانى . قال الجامى إنه لزمه مدة طويلة فلم يستفد منه إلا مسألتين اثنتين .

ثم توجه إلى سمرقند فى طلب العلم ، وحضر درس قاضى زاده الرومى . ووقعت بينهما مباحثات طويلة انتهى فيها الشيخ إلى رأى تلميذه . وقد قال قاضى زاده وهو يتحدث عن الأذكياء : إنه لم يعبر نهر جيحون إلى هذا الجانب منذ حلت به مثل الشاب الجامى ذكاء وجودة طبع .

وكذلك درس فى سمرقند الهيئة وظهرت براعته فيها ونقد أقوال علمائها . وقد سئل مرة فى هراة عن مسائل من الهيئة فأجاب عنها ارتجالا .

تجلى نبوغ عبد الرحمن فى كل ما قرأ أو سمع من العلوم . ولعل حدة ذكائه هونت عليه التلقى عن الأساتذة ؛ فقد روى عنه أنه قال وقد ذكر أساتذته : « لم أقرأ على واحد منهم درساً فكان فهمه خيراً من فهمى ، بل كنت أفوقهم فى البحث والإدراك ، ولا أعرف لأحد منهم على حق الأستاذية ، وإنما أنا تلميذ والدى أخذت عنه اللغة » .

وكان عبد الرحمن ممتازاً بعلوّ نفسه كما امتاز بذكائه . أراده جماعة من إخوانه طلاب العلم على أن يذهب معهم إلى أحد أمراء السلطان شاه رخ ليحصلوا على وظيفة . فطال وقوفهم على الباب ثم قابلوا الأمير . فلما خرجوا قال الجامى : « لا أعود إلى مثل هذا أبداً » . فلم ير بعدها على باب أحد من أرباب المناصب .

(حـ) تصوفه

ثم ذهب إلى خراسان فلقى سعد الدين الكشغرى ، وسلك طريقته . وكان سعد الدين

خليفة الطريقة النقشبندية . ويحكى أن هذا الشيخ كان يجلس على باب جامع هراة ، وكلما بصر بالجامى ماراً قال : « إن فى هذا الشاب مخايل عظيمة ، ولا أدرى كيف نصطاده لطريقتنا » . فلما جاء الجامى إليه قال : « اليوم ظفرت شبكتنا بصقر » . وكان أسف العلماء على تصوفه بمقدار فرح الصوفية به ؛ قال محمد الجاجَرمى : « إن خراسان أخرجت بعد خمسمائة سنة رجلا كاملا فقطع عليه سعد الدين الطريق وأضاعه » يعنى أن سعد الدين نقله من طريق العلماء إلى طريق التصوف .

ارتاض عبد الرحمن رياضة صوفية ، وأخذ نفسه بالمجاهدات الشاقة ، واعتزل الناس واستوحش منهم ، وساح فى البلاد ، فلقى كثيراً من كبار الصوفية فى خراسان وما وراء النهر .

(٤) حجه وسياحته

عزم على الحج سنة ٨٧٧ هـ ، فتأهب للسفر فى ربيع الأول ، فاجتمع كبراء بلده ليمنعوه من الحج قائلين إن خيراً كثيراً يصيب الفقراء من السلاطين على يديك ، وإن كل فائدة تفيدها الفقراء تعدل الحج مشياً . فأجابهم وكان يحب الفكاهة : « لقد تعبت من كثرة حجى ماشياً وأود أن أحج مرة راكباً » .

أخذ طريقه إلى الحج ، حتى بلغ همذان ، فلقيه حاكمها فضيّفه هو وكل القافلة ، ثم أرسل معه خفراء حتى جاوز جبال كردستان وبلغ العراق . بلغ بغداد أول جمادى الآخرة ، وزار مزارات أهل البيت فى النجف وكربلاء . وقد اعترض بعض الشيعة فى بغداد على أبيات فى كتابه « سلسلة الذهب » وتألبوا عليه . فجلس الشيخ فى إحدى مدارس بغداد واجتمع إليه الكبراء والعلماء ، فقرأ الأبيات التى اعتُرض عليها ، وفسرها تفسيراً أرضى الحاضرين ثم قال : « لقد مدحت العلويين فى « سلسلة الذهب » مدحاً خفت معه من السنيين فى خراسان ، وما حسبت أنى سأتعرض لثورة الروافض فى بغداد » .

وقد نظم قصيدة يشكو جفاء أهل بغداد . ولعلها الواقعة الفذة التى تطاول فيها الناس على الشيخ . ثم ذهب إلى الحرمين ونظم قصائد يترجم فيها عن شعوره هناك .

وبعد الحج توجه إلى الشام وسمع الحديث فى دمشق ثم توجه إلى حلب .

(هـ)

ولما سمع السلطان العثمانى محمد الفاتح (٨٥٥ — ٨٨٦) ، أن الشيخ ذاهب إلى الحجاز أرسل إليه بعض خواصه ومعه خمسة آلاف قطعة ذهباً ، و بضعة آلاف فلورى ووعد بآلاف أخرى ، وسأله أن يشرف بلاد الروم بزيارته . فلما جاء الرسول إلى دمشق كان الشيخ قد ذهب إلى حلب . وعلم وهو فى حلب بمقدم رسول الفاتح فخشى أن يدركه هناك ، فعجل الخروج منها إلى تبريز . وكانت الحرب إذ ذاك ناشبة بين العثمانيين وأمير آذربيجان ، فتطوع بعض الأمراء لخفارة قافلة الجامى حتى جاوز بها المواضع المخوفة . ودعاه بعض الناس إلى التوقف فى طريقه فاعتذر بأنه يريد أن يرى والدته العجوز . ورجع إلى هراة سنة ٨٧٨ فبقى بها فى رعاية السلطان حسين ووزيره على شير حتى توفى سنة ٨٩٨ هـ .

وقد رثاه على شير وكثير من الشعراء وأرخوا موته بكلمات منها الآية : « ومن دخله كان آمناً » ومنها : (آه أز فراق جامى ، آه أز فراق جامى) .

(و)

وكان الشيخ الجامى ، على علمه وزهده وتقواه وتصوفه ، حسنَ العشرة فكهاً يحب المزاح . وقد سارت له لطائف دقيقة وأجوبة مسكتة ؛ فهو من هذه الناحية يشبه الشيخ سعدى الشيرازى .

كان من معاصريه شاعر يسمى ساغرى ، وكان يدعى أن الشعراء تسرق معانيه ، فنظم الجامى بيتين فى هذا المعنى :

يقول ساغرى إن لصوص المعانى سرقوا من شعره كل معنى جيد . صدق ، لقد سرقوا معانيه ، فما رأيت فى شعره بيتاً له معنى .

ومما يذكر فى كتابه بهارستان أن رجلا أحسّ بضيق صدره ، فذهب إلى طبيب ، فسأله : ما عملك ؟ قال : شاعر . قال : أنظمت شعراً من قريب ؟ قال : نعم . قال : هل أنشدته أحداً ؟ قال : لا . قال : فأنشدنى . فأنشده فاستعاده مرة بعد مرة ثم سأله : كيف تجدك الآن ؟ قال : قد استرحت . قال : نعم ، كان هذا الشعر معقّداً فى صدرك .

(ز)

وقليل من العلماء والأدباء من بلغ فى حياته المكانة التى بلغها الجامى بين العامة والخاصة . فقد أجمع الناس على تعظيمه والتبرك به ، وراسله الملوك ورغبوا فى زياته فأبى . وممن راسله وتودد إليه السلطان يعقوب من أمراء آق قيونلو (٨٤٤ — ٨٩٦) وجهان شاه قره قيونلو ، (٨٤١ — ٨٧٢) والسلطان محمد الفاتح (٨٥٥ — ٨٨٦) . وقد ذكر هؤلاء فى شعره . والسلطان بايزيد الثانى ابن الفاتح (٨٨٦ — ٩١٨) .

وفى منشآت السلاطين رسالتان من هذا السلطان وجواب الجامى عنهما . ومنهما يتبين تعظيم السلطان للشيخ ، وإمداده إياه بالمال .

(ح)

كان الجامى عالماً شاعراً صوفياً ، وقد كتب فى موضوعات كثيرة نظما ونثرا .

فأما مؤلفاته المنثورة ، فمنها « نفحات الأنس » فى تراجم الصوفية ألفه (سنة ٨٨٣) وشواهد النبوة (سنة ٨٨٥) وشرح اللمعات للعراقى (سنة ٨٨٦) واللوائح واللوامع شرح فصوص الحكم لابن عربى ، وشرح النصوص لصدر الدين القنوى ، وشرح التائية والخمرية لابن الفارض ، وناى نامه ، وهو شرح مقدمة المثنوى ، وشرحه على الكافية فى النحو العربى ، وقد سماه الفوائد الضيائية نسبة إلى ابنه ضياء الدين ، وهو شرح ذائع جداً فى البلاد الإسلامية الشرقية ، ألفه لابنه بعد أن قرأ له كلستان سعدى ، وكتابُ بهارستان ، وهو قصص أدبية أخلاقية .

وله مؤلفات أخرى فى التفسير والحديث والتوحيد والتصوف الخ تقارب الأربعين .

وأما منظوماته فضربان : الأول الديوان وهو ثلاثة أقسام : فاتحة الشباب ، وواسطة العقد ، وخاتمة الحياة .

والضرب الثانى سبع منظومات قصصية مطولة تسمى هفت أورنك وهى :

(١) سلسلة الذهب وتتضمن مسائل فلسفية ودينية وأخلاقية ، أتمها سنة ٨٩٠ وقدمها للسلطان حسين بَيقرا .

(٢) وسلامان وأبسال وهى قصة فيها ألف ومائة بيت تذكّر القارىء بقصة حىّ بن يقظان ، نظمها ليعقوب بن أوزون حسن (آق قيونلو) .

(٣) وتحفة الأحرار فى التصوف ، جعلها على مثال مخزن الأسرار لنظامى ، وأتمها سنة ٨٨٦ وهى ألف وسبعمائة بيت .

(٤) وسبحة الأبرار فى التصوف كذلك ، وفيه قصص وأمثال كثيرة ، وقدمه للسلطان حسين .

(٥) يوسف وزليخا ، وهو أسْيَر منظومات الجامى أتمه سنة ٨٨٨ وقدمه للسلطان حسين

(٦) ليلى والمجنون ، ويشتمل على ٣٧٦٠ بيت نظمها فى أربعة أشهر سنة ٨٨٩ .

(٧) خسرونامهٔ سكندرى ، فى الأخلاق والحكم ، نظمها للسلطان حسين .

ويضيق المقام عن التحدث فى بعض منظوماته أو إيراد شىء من شعره ، فأكتفى بالحديث عن أقصر هذه المنظومات القصصية ، قصة سلامان وأبسال . وهى قصة رمزية صوفية وهذه خلاصتها :

كان فى بلاد اليونان ملك ذو شوكة ، وكان فى عهده حكيم يعترف الحكماء بأمامته ، وعرف الملك قدره فقرّبه واصطفاه واتبع مشورته فى أموره كلها ، فسخرت له ممالك الأرض كلها واستقر له السلطان ، وسعد الناس بعدله وسخائه .

وفكّر الملك فى أمر نفسه فرأى أنه ظفر بكل ما تمنى إلا ولداً يخلفه ، ويحيى ذكره ، فأفضى للحكيم بأمنيّته وقال : لا نعمة أعظم من الولد . وبيّنْ عون الولد لأبيه ، ودفعه عنه فى الحادثات .

فلما سمع الحكيم كلام الملك قال إن الولد لا يكون إلا بالشهوة ، ومن الشهوة يُظلِم العقل والفكر ويزيّن القبيح ، وتذهب الحكمة من القلب ، والنور من العين .

وتكلم الشاعر فى مضار الشهوة وانتقل إلى ذم النساء ووصفهن بالغدر وكفر النعمة .

ودبّر الحكيم تدبيره فأخذ نطفة من صلب الملك بغير شهوة ، ووضعها فى مكان ملائم فنشأ منها بعد تسعة أشهر طفل سوىّ . وفرح الملك به أىّ فرح ، وسماه سلامان واختار له مرضعة شابة ، سنّها دون العشرين ، اسمها أبسال ، أوتيت من الجمال ما يعجز عنه البيان وقد وصف الشاعر جمالها وصفاً مفصّلا . وأحبت المرضعة طفلها بل جُنّت به . وافتنّت فى تنظيفه وتزيينه ، وشغلت به ليلا ونهاراً ، حتى بلغ الرابعة عشرة من عمره كالبدر فى

الرابعة عشرة من الشهر . وشب سويّا جميلا روعة للناظرين ، وفتنة للمتأمّلين .

وكان من حدة الفهم والذكاء ، وتصريف الكلام منثوره ومنظومه ، وجودة الخط موضعَ الإعجاب والتعجب . وقد أوتى حظاً من كل حكمة ، وحذق حكمة اليونان .

وكان ذا ولع بتهيئة مجالس الطرب بالليـل . وكان إذا لعب برأسه الشراب شارك المغنّين والموسيقيين ، « تارة يمزج صوت الناى بالسكْر فيملأ الآذان سكّراً ، وتارة يتناول الرباب ، فيشعل النغمات التى تحرق الألباب . ويسلط البندق الرطب على الوتر ، فيرمى الأخضر واليابس بالشرَر . وحيناً يحتضن العود كالطفل الصغير ، ويعرك أذنه فيثير الأنات الحزينة ، ويقطر الأهداب دماً » .

وكان يسمر كل ليلة حتى السحر . وينام قليلا ثم يخرج إلى الميدان صبحاً بين السكر والنوم . فيلعب بالكرة مع أترابه من بنى الملوك ، فيبزّهم فى تلقف الكرة بالصولجان ، لا تطيش له ضربة ، ولا تخيب له عزمة .

ثم ينصرف إلى المناضلة فيوتر أقواسه ويرمى ، فلولا السماء لجاوزت سهامه الأفق ، لا يسلم من سهمه غزال عدّاء ، ولا طائر يخفق فى جو السماء .

وهو فى الجود والبذل بالغاية التى لا تدرك ، إذا قيس به حاتم ومَعن فهما بخيلان .

تعوّد بسط الكف حتى لو انه ثناها لقبض لم تطعه أنامله الخ .

وبلغ سلامان مبلغ الرجال ، وحدّثت أبسال نفسها به ، وعزّ عليها مرامه فجعلت تتجمل له ، لتعرض نفسها فى فنون من الصور ، وألوان من الجمال ، لتأسر قلب سلامان .

واستطرد الشاعر إلى قصة يوسف فقال إن زليخا أمرت فبنى لها قصر أبيض ناصع . ثم أمرت نقاشاً ماهراً أن يصورها فى كل جانب منه . فلما راودت يوسف كان كلما أعرض عنها رأى صورتها ، ففتنته لولا أن رأى برهان ربه .

وعمل فى سلامان جمالها وتجملها ، وتزيّنها وتحيلها ؛ ولكنه خاف العاقبة ، وآثر العافية ، وخشى أن تذهب اللذة الزائلة بما يطمح إليه من جاه وجلال .

ثم غلبه هوى أبسال فأذعن له ، وطابت بينهما الصحبة فأفضى اليوم إلى الأسبوع والأسبوع إلى الشهر ، والشهر إلى السنة .

ولكن الدهر كان يناديهما بالغيب أن ليس من دأبى أن أترك الصفاء لأهله . كم

صحبة وصلتها نهاراً ثم قطعتها ليلا ! وكم دولة طلعت بها مع الليل ، وفى الصباح سال بها السيل .

وانقطع سلامان عن لقاء الملك وحكيمه . فسألا حتى أُخبرا الخبر . فدعواه وسألاه فعرفا كنه الأمر فعمدا إلى النصيحة وكان من قول أبيه :

« لقد أدميتُ قلبى كالشقائق سنين حتى نالت يدى وردة مثلك ... إنما يجدر بك اللعب بالصولجان ، وركض الخيل فى الميدان ، لا الإمساك بالطرر كالصوالج ، والقعود مع الغوانى اللواعب . ويجدر بك أن ترمى الصَيد فتُصميه فى البيداء ، لا أن تكون كالصيد غرضا لهذه الظباء ، وأن تضرب بالسيف فى صفوف الرجال ، وتقطع أعناق الأبطال ، لا أن تفر من الشجعان ، وتعرض رقبتك لسيوف النساء . بالله يابنى دع هذا واطمح للمقصد الأسمى وإلا قتلت أباك غماً » .

فأجاب سلامان : إنه طوع أمر والده ، ورهن إشارته . وشكا إليه ما يلقى من حب أبسال وقال إنه مغلوب على أمره .

وقال الحكيم :

« إيه يا باكورة البستان القديم وآخر ما أبدع قلم التكوين . يا قارئ كتاب السبع والأربع [1] ، وعالم صفحات الليل والنهار ! أنت خازن كنز آدم ، وأنت نسخة هذا العالم . اعرف نفسك ولا تحسبنها هَمَلا ، فأنت أرفع من كل ما أقول .

إن الذى صورَتْ جنتَك يد قدرته كتب فى قلبك حروف حكمته . فأنقِ صدرك من نقوش الصور ، ووجّه هذه المرآة إلى المعانى الكُبَر ، حتى يكون صدرك المعانى كنزا ومرآتك لنور المعرفة مَظهرا ...

لقد كنت عالى المنزلة فى مبدئك ، وكان على الأفلاك موكبك ، فرمتك شهوة النفس من عُلاك ، وجعلَتْ حضيضَ التراب مثواك .

وأجاب سلامان :

« يامن روحُ أفلاطون منه فى حبور ، وأرسطو لأمره أسير . كانت العقول عشرة أول الأمر فجعلتها أنت أحد عشر .

---

(١) سبعة الأفلاك وأربع الطبائع أو العناصر

أنا سالكُ طريقك ، وأصغر تلاميذك . ولكن لا يعزب عن رأيك المنير ، أنه ليس باختيارى المسير . إن قدرة الفاعل على قدر القابل ، وليست القابليـة بجعل جاعل . فكيف انقطع آخرا ، عمّا كنت له فى بدايتى قابلا .

وضاق الأمر على سلامان بما لقى من اللوم . وهجر الملك والحكيم وهرب مع أبسال .

ويصف الشاعر ما يفعل اللوم بالعشاق ، ويبين أن سلامان لم يجد بداً من فراق وطنه وأنه هيّأ محملا له ولأبسال وسارا لا يفترقان ليل نهار ، حتى أتيا بحراً واسعا عميقاً مائجاً ، السمك فيه ظاهر جميل الألوان والأشكال ، يشق الماء كما يُشَق الديباج الأزرق بمقراض من الفضة . وأراد سلامان أن يعبرا فوجد زورقا كالهلال ، فركبا فيه مسرورين فصار الهلال منزلا للشمس والقمر . وسار الزورق تملأ شراعه الريح كالبط يسبح على الماء ، ويشق صفحة البحر بصدره مسرعا إلى مقصده ، له سرعة السهم وإن كان محنياً كالقوس .

ولاحت وسط اللج غابة يعجز الوهم عن وصفها ، اجتمعت فيها أصناف الطير كله ، أسرابا إثر أسراب ، وأفواجا بعد أفواج ، والأشجار ناضرة متشابكة ، والثمر فى أصول الشجر يابساً وجنيًّا . وفى ظل كل شجرة ينبوع كعين الشمس ، والأغصان تهزها الريح فتنثر ما عليها من زهر وثمر .

« فلما رأى سلامان جمال المكان ، كف عن السفر العنان ، وأقام مع أبسال فيه ، وادعين ، ومن الخوف والرجاء فارغين ، فرحين ممتزجين كالروح والبدن ، نضرين كالورد والسوسن ؛ صحبة لا يعلق بها فساد الدخلاء ، وراحة لا يشوبها عناء . ووَرْد لا يصحبه وخز الشوك ، وكنز لا يقارب به نَكْز الثعبان . فهما نائمان فى المرج كل آن ، شاربان من الينابيع لا يفتران ، تارة مع العنادل فى غناء ، وأخرى فى حديث حلو مع الببّغاء ، يجولان حينا مع الطاووس ، ويتبختران حينا مع الحجَل .

وقصارى القول أنهما وصلا النهار بالليل فى طرب وحبور وجَذَل . وماذا بعد أن يؤنسك الحبيب ، ويبعد عنك الحاسد والرقيب » .

وعرف الملك بعد حين خبرهما ، فاشتد حزنه لهما . وتتبع أخبارهما ، فلم يقف لهما على أثر

فعمد إلى « مرآة العالم » التى يتجلّى فيها كل شىء . وهى كقلب العارف لا يخفى عليه ما فى العالم من خير أو شر ، فرآها الملك فى هذا النعيم فرقّ لها .

وازداد الملك على مر الزمان حسرة ، ولم يرعَوِ ابنه — معقد رجائه — عن غيّه . فوجه همته وفكره إلى سلامان حتى حال على البُعد بينه وبين حبيبته . وكانت العاقبة أن عاود أباه معتذراً إليه مما جناه .

وذهب الفرح بالملك كل مذهب حين رأى وجه ابنه ، وبالغ فى الحفاوة به وإعظامه وإكرامه وقال له :

المُلك لك فخذه ، ولا تخرجه من سلالتك . انفض يدك من هذه الغانية ، وامحُ من يدك حنّاء هذه الجميلة . فما يجتمع تدبير الملك وعبادة الغانيات . فاختر أن تكون ما تشاء ، إما مَلِكا وإما زيرَ نساء .

وفعلت النصيحة بسلامان فعلها ، فضاق بالدنيا وضاقت به . فانطلق هو وأبسال إلى البادية ، وجمعا حطباً ، وركما بعضه على بعض حتى صار كالجبل . ثم أضرما فيه النار ونظرا إليها فرحين ثم تقدما إليها فدخلاها غير هائبين .

واطلع الملك على هذا بالغيب ، فوجّه همته إلى إهلاك أبسال وإنجاء سلامان ، فظفر بما أراد .

« كان هذا ذهباً ، وكانت هذه غشا على الذهب ، فبقى الذهب خالصاً وذاب الغش ، إذا ألقى الذهب المغشوش فى النار لم يعمل حرُّها إلا فى غِشّه . إن للرجال مدداً من الله ، فليس هذا من همة الرجال بعيداً . يعرف هذا كل ذى همة ، وإنما ينكره من لا همة له . ورأى سلامان أنه بقى واحترقت حبيبته ؛ بقى جسما بغير روح ، فاضطرم فى نفسه الحزن ، وأرسل الآهات ناراً ، وأسال الدمع مدراراً » .

وكلما جنه الليل فى داره ، أطال الحديث مع خيال حبيبته :

« يا من أحرقنى فراقه ، وحُرِمَتْ عينى جماله ، كنت أنيس روحى سنين ، وكنت نور ناظرى الحزين .

كان كل لصاحبه قرة عين ، وكنا بالوصال سعيدين . عشنا فارغين من همّ الناس ، لا نعرف أحداً ولا يعرفنا أحد ، وقد كفّ الفلك يد جَوره ، وسارت الأمور على هوى

الفؤاد ، يجمعنا الليل سرين ، ويرانا النهار نجيّين . ليت النار حين اضطرمت ، أحرقتنى وأبقت عليك ! ويلى قد احترقتِ وبقيتُ ، ويلاه إنه حظى العاثر . ليتنى حم لى لقاء ، وسلكت معك طريق الفناء ، وخلصت من الوجود الشقى ، ووصلت إلى النعيم الأبدى » .

ونَمى خبر سلامان إلى الملك ، فذهب به الغم المذاهب . قال : وارحمتاه لسلامان ! لقد كان مع أبسال فى همّ ، وهو بدونها أسير الغم . كان فى غم بها ، وهو فى غم من دونها . إن قبة السماء دار غم عُجاب ، الخلوّ من الغم فيها كِذاب . حينما ضُربت طينة آدم ، وخُلعت عليها الصورة أمطر عليه سحاب البلاء مطر الغم أربعين صباحاً . فلما مضت الأربعون أمطر عليه الطرب يوماً واحداً . فلا يخلص من الغم إنسان ، ولا يجد السرور إلا يوماً واحداً من أربعين . ثم تنتهى الأمور إلى السرور . ولكن يعلم العارفون أن هذا فى الدار الآخرة .

وبهظ الملكَ أمرُ سلامان ، وعجز عن التدبير له فعرضه على الحكيم العالم ، وسأله أن ينقذه بحكمته . قال الحكيم : إن لم ينقُضْ سلامان عهدى ، ولم يخرج عن أمرى ، رددت إليه أبسال عما قليل ، وخلصته من هذا الحال الوبيل . أطبّ لأمره أياماً ، وأردُّه نجىّ أبسال دواماً .

وسمع سلامان هذا من الحكيم ، فأسلس له قياده ، وأخلص له طاعته ، وفتح قلبه لأمره .

فلما انقاد سلامان للحكيم أقبل عليه يعلمه ويفقهه وأتى بالسحر فى تلقينه وتقويمه . وكان سلامان كلما ذكر أبسال صاح وناح . فصنع الحكيم صورة أبسال فكان يجلوها عليه كلما ثار به الوجد ، فتسكن ثورته فيزيل الحكيم الصورة .

« إذا قويت همة العارف خلق ما يشاء غير عاجز ، فإذا غفل عنه لحظة فارقته صورة الوجود » .

وكان الحكيم بين الحين والحين يعرض فى أحاديثه للزُهرَة يصف جمالها ، ومكانتها بين الأنجم ، ويحدث عن غنائها وطربها ، وإصاخة الأفلاك لأغانيها .

وكان سلامان يصغى إلى حديث الزهرة فيُشرَب قلبه الميل إليها . وازداد الميل على تكرار الأحاديث . فلما آنس منه الحكيم هذا توجه إلى الزهرة فأثّر فيها حتى تجلت

فى جمالها كاملا ، وفعلت فعلها فى روح سلامان وقلبه . فامّحت صورة أبسال من ضميره ، وتمكّن حبّ الزهرة فى قلبه .

رأى الحسن الباقى فأعرض عن الفانى ، وآثر العيش الخالد على المتاع البائد .

مبايعة الملك وأركان دولته سلامان بالملك :

رأى الملك سلامانَ قد خلص من هذه المحنة ، وسمت همته إلى المعالى ففوض إليه الملك . وأعدّ حفلا دعا إليه الملوك والكبراء ورؤساء الجند . وبويع فى هذا الحفل لسلامان ووضع الملك التاج المرصع على رأسه . وأجلسه على عرش من الذهب . وفوض إليه الأقاليم السبعة ، وعلمه كيف يسوس الملك ، وكتب له وصية تليت على الحضور .

وهى وصية بليغة تتضمن سياسة الناس بالعدل ، والعطف على المظلوم والقسوة على الظالم ، واختيار الوزراء والعمال ، وتعرّف أخبار الرعية كل حين .

مغزى القصة :

فى كل صورة من القِصص حصة من المعنى لأهل الدقائق . وقد تمت صورة هذه القصة ، فعليك الظفر بمعناها . فليس الغرض منها القيل والقال بيننا و بينك ، بل كشف حالنا وحالك ؛ ما المراد بالملك والحكيم ؟ وسلامان هذا الذى ولده الملك بغير صاحبة ؟ ومن أبسال التى سعدت بسلامان ؟ وما جبل النار والبحر ؟ وما المُلك الذى ناله سلامان حين صحا من حب أبسال ؟ وما الزُهَرة التى سلبت قلبه ، وجلت عن المرآة صورة حبيبته ؟

استمع لشرحها واحدة واحدة ، وكن من الفَرْق إلى القَدَم أذناً مُصغية : لما خلق الصانع الواحد هذا العالم ، بدأ بالعقل الأول ، وتمت العقول عشرة . وعاشِرُها مؤثر فى العالم . وهو لهذا يسمى العقل الفعّال ، وهو فى العالم مفيض الخير والشر ، وكفيل بالنفع والضرّ . وهو مستغن عن الجسم والجسمانيات ، وهو بذاته وفعله منفصل عنها ، يؤثر فيها دون اتصال . وروح الإنسان وليدة تأثيره ، ونفسه أسيرة تدبيره . هما طوع حكمه ، وغريق إحسانه . هو الملك الآمر المؤمَّر ، وسواه مأمور مسخّر .

وهو المقصود بالملك فى هذه القصة . وأما الحكيم فهو الفيض الذى ينزل منه على

العالم . وروحه الطاهرة تسمى النفس الناطقة . وهى وليدة هذا العقل دون صلة جسمانية . ومفارقة هذه الصلة الجسمانية هى التى كنى عنها بالولادة من غير أب .

وهذا الوليد الطاهر سمى سلامان . وأما أبسال فهو هذا الجسم أسير الشهوة ، والخاضع لأحكام الطبيعة.

الجسم حى بالروح ، والروح بالجسم تدرك المحسوسات . فكلاهما ، من هذا ، عاشق صاحبه .

وما البحر الذى كانا فيه ، وسعدا بالوصال فى نواحيه ؟ بحر الشهوات الحيوانية ، ولجة اللذات النفسانية .

عالَم فى موجه مستغرق ، وهو فى استغراقه بعيد من الحق . وأما حرمان سلامان من أبسال على قربها منه ، فقد عُنى به تأثير الشيخوخة ، وطىّ بساط الشهوة .

وما ميل سلامان نحو الملك ، وتوجهه إلى عرشه ؟

هو الميل إلى اللذات العقلية ، والتوجه إلى مملكة العقل .

وما هذه النار ؟ هى الرياضة الشاقة ، إلى أن تحترق الطبيعة .

احترقت بها آثار الطبع ، وبقيت الروح ، وقد عزفت عن الشهوات الحيوانية ولكن لإلفها هذا الطبع عمراً عاودها ألم فراقه بين الحين والحين .

ولهذا وصف الحكيم جمال الزهرة ، وأوحى عشقها إلى نفسه ، حتى سكن على مرّ الزمان إليها ، وخلا من عشق أبسال وهمّها . فما الزهرة ؟ هى الكمالات العليا ، التى تكمل الروح ببلوغها .

ومن هذا الجمال يصير العقل نورانيا ، ومَلِكا فى المُلك الإنسانى .

قد أجملت لك هذه الأسرار ، واختصرت هذا المقال . فإن لم يكن لك من التفصيل بدّ ، فأعمل فكرك ، حتى تتجلّى لك الأسرار القديمة .

القسم الثانى

عصر الدولة الصفوية

٩٠٧ — ١١٤٨ هـ

— ١ —

كان صفىّ الدين الأردبيلىّ من أسرة علوية تنتسب إلى موسى الكاظم بن جعفر الصادق . وبين صفى الدين وموسى تسعة عشر أبا .

وكان لصفى الدين هذا مكانة عظيمة فى أردبيل وما حولها ، يعظمه الناس ويقصدونه من البلاد القريبة والبعيدة .

وتوفى فى جيلان سنة ٧٣٥ . وخلفه أبناؤه وازدادت على مرّ الأيام مكانتهم وشوكتهم حتى حارب بعضهم لحماية طريقتهم ودعوتهم الشيعية ، وقتل بعضهم فى الحرب .

قتل الشيخ حيدر ، وهو الحفيد الخامس لصفى الدين سنة ٨٩٣ هـ . وترك أطفالا ، أحدهم عمره سنة واحدة اسمه إسماعيل . وتقلبت الحوادث بإسماعيل حتى بويع بالملك فى تبريز سنة ٩٠٥ ، وسنّه ثلاث عشرة سنة .

وكان هذا إيذانا بقيام دولة هى أعظم الدول التى تسلطت فى إيران بعد الإسلام . وهى الدولة التى سميت الصفوية نسبة إلى الشيخ صفىّ الدين أحد أجداد الأسرة التى أقامتها .

وكان فى إيران اثنا عشر أميراً متفرقين فى أرجائها حين بويع إسماعيل فى تبريز ، منهم أمراء من ذرّية تيمورلنك .

وقد دانت البلاد سريعاً لهذه الدولة الجديدة فبلغت جيوش إسماعيل هَراة بعد سنين قليلة . وشمل ملكه ما بين نهر جيحون وخليج البصرة وأفغانستان ونهر الفرات . ودام الملك لهذه الدولة زهاء قرنين ونصف . وبلغت حدودها فى عهد الشاه عباس الأول حدود الدولة الساسانية القديمة .

وهذه الدولة تخالف الدول التى نشرت سلطانها على إيران قبلها من وجوه :

الشاه عباس الأول أعظم الملوك الصفويين وعلى يده باز للصيد

القسم الثانى

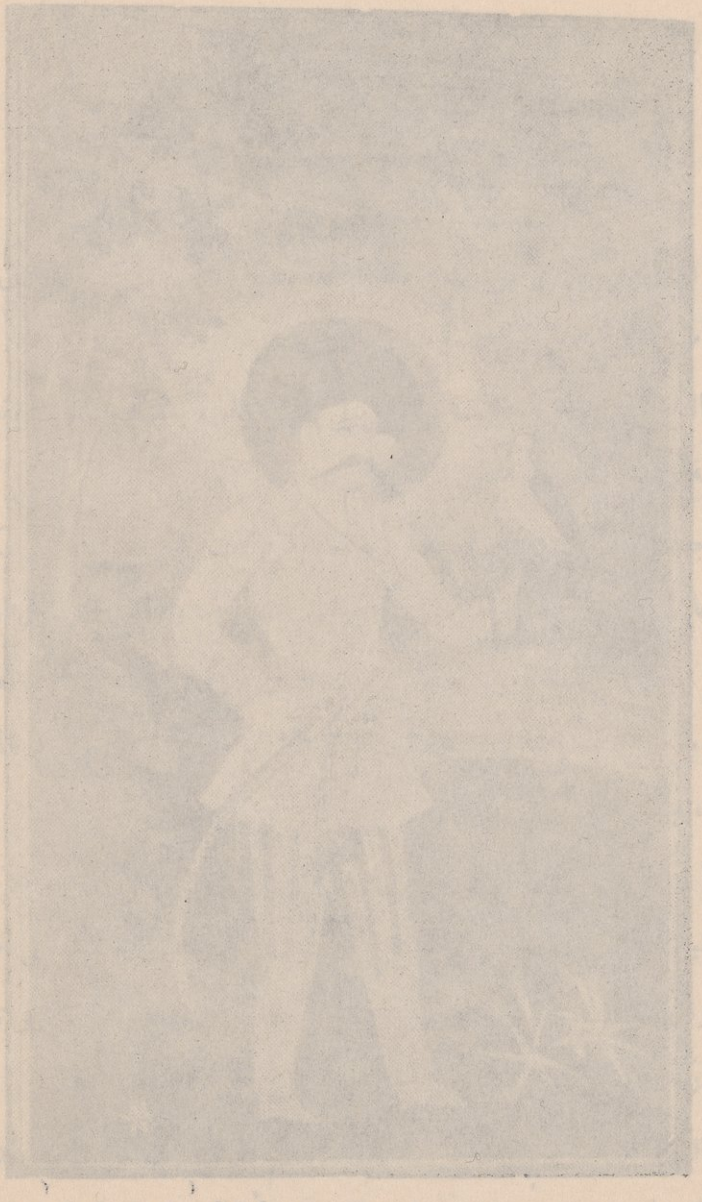

كان صنى [illegible] جعفر الصادق . وبين [illegible]

وكان لصنى [illegible] صدوه من البلاد القريبة [illegible]

ولوف فى [illegible] كاتهم وشوكتهم حتى [illegible] الحرب . قتل الشيخ [illegible] الا أحدهم عمره سنة [illegible] فى فبراير سنة ٩٠٥ .

وكان هذا [illegible] سلام . وهى الدولة التى [illegible] كانت . وكان فى إيران [illegible] بين . مهم أمراء من [illegible]

وقد دانت [illegible] سنين قليلة . وتحول ملكه [illegible] الى الشاه [illegible] الفرنسى . ودام الملك لهذه الدولة زهاء قرنين ونصف . وبلغت حدودها فى عهد الشاه عباس الأول حدود الدولة الساسانية القديمة .

وهذه الدولة تخالف الدول التى نشرت سلطانها على إيران قبلها من وجوه :

الأول : أنها بسطت سلطانها على إيران كلها ، واتخذت دار ملكها فى إيران نفسها . وكانت الدول قبلها تنشأ خارج إيران ويمتد سلطانها على جانب منها ، أو تنشأ فى إقليم من إيران وتسيطر عليه .

والثانى : أنها نشرت المذهب الشيعى بالترغيب والترهيب وجعلت من العصبية المذهبية عصبية سياسية فى نزاعها مع الأمم المجاورة ولاسيما الترك العثمانيين .

والثالث : أنها كانت فى التاريخ الإيرانى صلة بين العصور القديمة والعصور الحديثة ، واتصلت بدول أوربا وغيرها ، وقبست من الحضارة الأوربية .

ولهذه الدولة آثار جليلة تشهد بعمران البلاد فى عهدها وازدهار الصناعات .

وأعظم آثارها فى أصفهان ، التى اتخذها الشاه عباس الأول ومَن بعده دار الملك ، فاتسع عمرانها ، وبنيت فيها المساجد والقصور التى لا تزال قائمة يتجلى فيها الجمال والجلال . وقد زخرت أصفهان ، بالعمران حتى شاع بين الفرس هذا القول :

إصفهان نصف جهان (إصفهان نصف الدنيا) .

ونبغ فى هذا العصر كبار المصورين مثل رضاى عباسى . ولا تزال آثارهم زينة فى القصور القديمة والكتب .

المذهب الشيعى

جدّ الصفويون فى نشر المذهب الشيعى بالترغيب والترهيب . وقسوا على الناس فى هذا قسوة شديدة . واصطنعوا لتبليغ دعوتهم علماء كثيرين من أهل إيران ومن البلاد العربية . فانحاز إليهم علماء الشيعة من البلاد الإسلامية الأخرى ولاسيما جبل عامل من بلاد الشام ، والبحرين ، فرحين بالدولة القائمة على مذهبهم ، الداعية إليه والناصرة له بالسيف . وتعاونت الدولة والعلماء على إدخال الناس فى التشيع طوعا وكرها . وجدّ العلماء فى تأليف الكتب المبسوطة والموجزة ، ووضحوا أصول المذهب وفروعه .

وكان أكثر هذه المؤلفات بالعربية ، وقليل منها بالفارسية ؛ إذ كانت العربية لسان العلم إلى ذلك العصر .

وقد بالغ الملوك الصفويون فى إكبار المجتهدين وتعظيمهم ، واعتقدوا أنهم نواب الإمام المعصوم أو المهدى المنتظر صاحب الزمان « عجّل الله فرَجه » .

روى أن ملاَّ عبد الله التونى سار راكباً فى ميدان الشاه بأصفهان وأمامه عباس الأول أعظم السلاطين الصفويين ماشيا ، ليرى الناس منزلته وقوّته .

وكذلك روى أن الأمير محمد على ميرزا أعطى مجتهدَين كُلًّا منهما ألف تومان ليكتبا له دعاء يضعان عليه توقيعهما ويختمانه ، يضمن به مكانا فى الجنة . فلما تردد أحد المجتهدين — السيد رضا — قال له الأمير : اكتب الوثيقة وأشهد عليها علماء النجف وكربلاء أنل ذلك المكان من الله سبحانه وتعالى .

ويروى أن أحد ضباط الشاه عباس الكبير اقترف ذنباً فاستشفع الملاَّ أحمد الأردبيلى فكتب الشيخ إلى الشاه عباس :

يعلم بانى مُلك العارية عباس أن هذا الرجل إن كان ظالما أولَ الأمر فهو الآن فى صورة المظلوم . فإن غفرت ذنبه فلعل الحق سبحانه وتعالى يغفر ذنوبك .

كتبه عبد سلطان الولاية[1] (بنده شاه ولايت) أحمد الأردبيلى

فأجاب الشاه عباس :

يعرض عباس أنه عدّ الخدمة التى أمرتم بها منة فأنفذها . لا يُنسى هذا المحب من دعاء الخير .

كتبه كلب آستانه (عتبة) علىّ ، عباس

وسيطر المجتهدون على الناس ، وعظم سلطانهم فأمروا ونهوا ، وأحيوا وأماتوا . روى أن حجة الإسلام محمد باقر قتل سبعين . وعُرف من بَعدُ محمد على — وكان معاصراً لكريم خان زند — باسم قاتل الصوفية (صوفى كُش) لكثرة من قتل منهم .

والخلاصة أن المجتهدين بلغوا من السلطان والتمكن فى نفوس العامة والخاصة ما جعلهم ذوى الكلمة العليا فى المملكة . فكان أكبر أمل الناشئ من طلبة العلم أن يبلغ يوما رتبة الاجتهاد أو يقاربها . فتوجهت الهمم إلى العلوم الدينية وانصرفت عن الأدب . وأشبهت المملكة كلها مدرسة دينية يدبّر أمرها المجتهدون .

---

(١) سلطان الولاية على بن أبى طالب رضى الله عنه .

الأدب فى عهد الصفويين

— ١ —

اتفقت كلمة مؤرخى الآداب الفارسية على أن عصر الصفويين — على عظمة ملوكه واتساع عمرانه وازدهار صناعاته — كان عصر كساد فى الأدب الإيرانى .

ذلكم أن سلاطين الصفويين كانوا حماة المذهب الشيعى فصرفوا همتهم إلى نشره وتأييده . ودعوا الأدباء إلى مدح الأئمة العلويين ورثائهم ، والتحسر لما أصابهم . ولم يشجعوا الشعراء على النظم فى فنون الشعر المألوفة التى سار عليها شعراء إيران من قبل .

كان الصفويون ، ولا سيما طهماسب وعباس الأول ، يحرّضون الشعراء على مدح آل البيت ورثائهم :

روى أن محتشما الكاشانى نظم قصيدة بليغة يمدح بها الشاه طهماسب وأرسلها إليه من كاشان . فقال : « لا يرضينى أن يُشغل الشعراء بمدحى . فينبغى أن يمدحوا صاحب الولاية والأئمة المعصومين . ويلتمسوا الصلة من أرواحهم المقدسة قبل أن يلتمسوها منا » . فنظم محتشم موشحه المسمى هفت بند فى رثاء آل البيت ونال الصلة التى كان يرجوها . وتبعه شعراء زمانه ، فنظم كثير منهم موشحا سباعياً (هفت بند) .

ولإعراض الصفويين عن الشعر ، كسد فى إيران . فقصد الشعراء بمدائحهم سلاطين الدولة التيمورية فى الهند (الدولة المغولية) فلقوا من الكرامة والعطاء ما فاتهم فى بلادهم . وقد عدّ البداءونى زهاء مائة وسبعين شاعرا من أصل إيرانى مدحوا هؤلاء السلاطين ونالوا جوائزهم . وذكر الشيخ شبلى النعمانى فى كتابه « شعر العجم » واحدا وخمسين شاعرا هاجروا من إيران إلى الهند فى عصر جلال الدين أكبر (٩٦٣ — ١٠١٤ هـ) وحظوا بلقاء السلطان ومدحه .

وقد جمع شبلى أبياتا من الشعر الفارسى تُبين عن حنين شعراء الفارسية فى ذلك العصر إلى بلاد الهند ، وتمنّيهم أن يظفروا بالسفر إليها ؛ منها قول صائب : « لا يخلو رأس من الفكر فى حبك كما لا يخلو قلب من أمل السفر إلى الهند » .

ومن أعظم شعراء الفرس الذين هاجروا إلى الهند عرفى الشيرازى وصائب الأصفهانى. هاجر الأول فى صباه واتصل بجلال الدين أكبر . وتوفى فى الهند سنة ٩٩٩ فى سن السادسة والثلاثين . وسيأتى ذكر الثانى .

— ٢ —

ومع هذا فلم تخل هذه العصور من شعراء مجيدين ساروا على نهج سلفهم وحفظوا سنن الشعر الفارسى ونظموا فى القصص والتصوف كعهدنا بالعصور الماضية ، إلى موضوعات الشعر الأخرى .

فالشاعر هلالى المتوفى ٩٣٥ نظم قصة الملك والسائل (شاه وگدا) ومنظومة أخرى سماها صفات العاشقين ، ووحشى المتوفى سنة ٩٩١ ، وهو أحد شعراء الشاه طهماسب ، نظم منظومتين سماها الخلد الأعلى (خلد بَرين) والناظر والمنظور ، كما نظم قصة فرهاد وشيرين التى أولع شعراء الفرس بنظمها ؛ ولكنه خلف هذه القصة غير كاملة حتى انتدَب لها الشاعرُ وصال فأتمها سنة ١٢٦٥ بعد مايقارب قرنين من نظمها .

ومن شعراء هذا العصر شوكت البخارى المتوفى ١١٠٧ هـ . وهو ذو مكانة عالية عند الشعراء العثمانيين . ومنهم فضولى البغدادى أحد شعراء القرن العاشر الهجرى (توفى ٩٧٠) وهو شاعر بالألسن الثلاثة : العربية والفارسية والتركية ؛ ولكنه غلبت شهرته بالشعر التركى . وشعره مثال بيّن لما بين الآداب الثلاثة من اتصال .

وله منظومة ليلى والمجنون باللغة التركية . وقد ترجم كتاب حسين واعظ الكاشفى المسمى « روضة الشهداء » إلى اللغة التركية «وسماه حديقة السعداء» ، وهو فى ذكر الشهداء من آل البيت النبوى .

ومن أدباء هذا العصر وعلمائه الشيخ بهاء الدين العاملى صاحب المخلاة والكشكول فى اللغة العربية ، وله منظومات فارسية مختلفة يغلب عليها التصوف ، وستأتى ترجمته . ومنهم مُلّا محسن فيض الكاشانى ، وهو شاعر متصوف .

ولا بد للباحث ، مهما أوجز ، من الاهتمام بموضوع حديث فى أدب هذا العصر هو : مراثى آل البيت ، وموضوع قديم هو التصوف .

مراثى أهل البيت

لم تزد فنون الشعر الفارسى فى هذا العصر ولم تخرج عن النهج الذى سلكه السلف من شعراء الفرس ، ولم يبلغ شعراء العصر شأو من تقدمهم ، إلا فنّا واحداً عنى به شعراء الفرس منذ ذلك العصر ، ووسّعوه وافتنّوا فيه على مر الزمان ، وفاقوا فيه من سبقهم من الشعراء . وهو رثاء آل البيت . فهو أولى فنون الشعر بالكلام فى هذا العصر :

(ا)

كانت واقعة كربلاء مثار غم وحزن فى نفوس كثير من المسلمين . وتلتها وقائع زادت هذه النفوس غما وحزنا .

وقد وجدت هذه الوقائع أول ترجمان بليغ لها فى الشاعر العربىّ الأسدى الكميت ابن زيد .

وقفّى شعراء العربية على أثره . وكان أبعدهم صيتاً فى هذا الأمر السيد الحميرى من شعراء القرن الثانى الهجرى ، ودعبل الخزاعى من شعراء القرن الثالث ، والشريف الرضىّ من شعراء القرن الرابع .

(ب)

وانتقل هذا الفن إلى الفارسية فنظم فيه الشعراء بين مقلّ ومكثر ، حتى كان هذا العصر الذى نؤرخه — عصر الصفويين — فوجّه السلاطينُ الشعراءَ إلى رثاء آل البيت وحرّضوهم عليه . فأكثروا فيه وتفنّنوا ، وعالجوه بما عرف فى الشعر الفارسى من الإطناب والغلوّ .

وكان من السابقين إليه المبرّزين فيه محتشم الكاشانى . ومن شعره السائر فى المراثى موشحه المعروف « هفت بند » .

وفيه ستة وتسعون بيتا مقسمة على اثنى عشر قسما ، فى كل قسم سبعة أبيات على روىّ واحد والثامن مطلق . وبهذه السبعات المتفقة فى الروى سمى هذا الموشح هفت بند . وقد ترجمتُ منه الفاتحة والخاتمة وأربعة أقسام أخرى . وحاولت أن أجعل النثر فى الترجمة مسايرا للشعر فى الأصل على قدر الإمكان . فحافظت على الرديف وهو الكلمة المكررة فى أواخر الأبيات . وجعلت كل بيت فى سطر .

— ١ —

ماذا الهياج فى العالم ، وماذا النواح والبكاء والمأتم ؟
ما هذه القيامة الهائلة تصعد إلى العرش من الأرض ، ولم ينفخ فى الصور ليوم العرض ؟
من أين تنفس هذا الصبح المظلم ، فماج به الناس والعالم فى غمّ ؟
أترى الشمس قد طلعت من المغرب ، فذرّات العوالم كلها تهيج وتضطرب ؟
إنها قيامة الدنيا لا جرم ، هذه القارعة المسماة بالمحرّم .
إن ملكوت القدس وليس مكان جزع ، سمدت فيه الملائكة من الهلع ؟
والملك والجن فى نواح دائم ، يشاركون فى مأتم أشرف بنى آدم

شمس السماء والأرض نور المشرقين
ربيب صدر رسول الله الحسين

إلى أن يقول :

— ٢ —

ليت سرادق السماء خوى ، وليت هذا السقف الرفيع هوى
ليت سيلا أسود عمّ الأقطار ، وطلا وجه الأرض بالقار
ليت شعلة من آهات أهل البيت المحرقه ، رمت هذه السماء بصاعقه
ليته ، وقد تحرك الفلك بهذا المصاب ، ظل وجه الأرض كالزئبق فى اضطراب .
ليته حينما دخل جسمه فى الرغام ، خرجت أرواح الخلائق من الأجسام .
ليته حين فُلّك أهل البيت انحطم ، غرق العالم فى بحر من الدم
إن لم يقع هذا الانتقام بالدهر ، فكيف تكون مؤاخذة الدهر يوم الحشر

إن بيت النبى حين يرفع أيديه يتظلم
يزلزل أركان العرش الأعظم

ثم يقول بعد أربعة أقسام :

— ٣ —

ولما بلغت هذه القافلة الميدان ، ثارت ضوضاء الحشر فى الكون والمكان

ودوّت بالنواح ستّ الجهات ، وعمّ البكاء ملائك سبع السموات .
لم يبق فى البادية غزال إلا شلت رجله ، ولا طائر إلا هوى من عشه .
وكانت قيامة تُنسى القيامة الأخرى ، حين وقعت عيون آل البيت على القتلى .
فما تقلبت العين من أجسام الشهداء ، إلا على ضربة أو طعنة نكراء
ووقعت بغتة عين بنت الزهراء ، على جسد إمام الزمان فى العراء
فصاحت : « هذا الحسين » ، بغير اختيار ، فاشتعلت فى العالم كله النار

ثم رجعت شاكية بضعةُ البتول
إلى المدينة تقول يأيها الرسول :

— ٤ —

هذا القتيل الملقى فى البيدا ، حُسَينك ، هذا الصيد المضرج بالدماء حسينك
هذه الشجرة الناضرة التى بنار العطش ، صعدت الدخان من الأرض إلى العرش ، حسينك
هذا القمر الساقط فى بحر من الدم ، وجروحه تُربى على عدد الأنجم ، حسينك
هذا الغريق فى محيط الشهادة ، وقد تورد من موج دمائه وجه البادية ، حسينك
هذا الظمآن المحروم من الفرات الميمون ، وقد صارت الأرض من دمه جيحون ، حسينك
هذا الملك القليل الجند الذى خرج من الدنيا الخدوع ، بجيش الآهات والدموع ، حسينك
هذا القالب الملقى بغير كفن ، الملك الشهيد الذى لم يدفن ، حسينك

ثم توجهت شطر البقيع تخاطب الزهراء
فأحرقت سمك البحر وطير الهواء :

— ٥ —

يا أنس القلوب الكسيرة إلينا انظرى ، غرباء بغير صديق ولا عشيرة ، إلينا انظرى
انظرى أولادك شفعاء المحشر ، فى صولة قلوب قاسية كالحجر ، انظرى
لا لا ! تعالى كالسحاب الراعد إلى كربلاء ، وإلى طغيان سيل الفتنة وموج البلاء ، انظرى
انظرى أجساد القتلى فى الدم والتراب ، ورءوسَ الرؤساء على الحراب ، انظرى
ذلك الرأس الذى كان مكانه كتف المصطفى ، فصلته من كتفه طعنات العدى ، فانظرى

وذلك الجسد الذى كان صدرك مرباه ، يتدحرج فى تراب كربلاء ، ويلاه ، فانظرى

ويختم التركيب بهذ القسم :

— ٦ —

صمتا محتشم ! فقد ذاب قلب الحجر ، وزلزل العزاء وعيل المصطبر

صمتا محتشم ! فمن هذا الكلام الذى يقطر الدماء ، احترق طائر الهواء وحوت الدأماء

صمتا محتشم ! فمن هذا الـكلام ذى الشرر ، فاضت عيون السامعين بصافى الدرر .

صمتا محتشم ! فمن هذا الشعر المثير البكاء ، تخضب وجه الأرض بدموع مازجتها من القلوب دماء .

صمتا محتشم ! فمن هياجك صار نور الشمس ، كاسفا كالقمراء فى الحِندس .

صمتا محتشم ! فقد بكى الفلك بالدم ، حتى جاش البحر بحَباب كالعندم

صمتا محتشم ! فمن غبار غم الحسين القتيل ، احتجب من وجه الرسول جبريل

لم يقترف الفلك الغادر كهذا الاثم منذ كان

ولم يقسُ هـذه القسوة على مر الزمان

عنى محتشم بهذه المراثى المبكية المفظعة التى يملؤها النواح والبكاء ، والدموع والدماء ، ويسيطر فيها الغلوّ والإغراق . وسار شعراء على هذا النهج وافتنوا فى الرثاء ، وعنوا بالحوار فى المراثى ويسّروها للتمثيل . فنشأت قصص منظومة تمثيلية كمل تطورها فى العصر الذى يلى هذا العصر الذى نؤرخه . وهو عصر القاجاريين . وكان لها على العامة تأثير بالغ يبكون لسماعها وينوحون ، ويلطمون الخدود ويلتدمون ، ويبلغ بهم الهياج أحيانا حد الجنون .

التصـــــوف

لم يخل الشعر الفارسى فى هذا العصر من شعر صوفى صريح ، واستمرت النزعة الصوفية واضحة فى الشعر الفارسى كله ؛ ولـكن المؤرخ لايظفر فى هذا العصر بشاعر صوفى يلحق كبار الشعراء الذين نشأتهم العصور الماضية مثل سنائى والعطار والرومى والجامى .

وكان من أسباب هذا بغض الصفويين للصوفية ، وقسوتهم عليهم ، والعداء بين شيعة ذلك العهد عامة و بين الصوفية .

وحسبنا أن ننقل هنا كلام المجلسى أحد أكابر مجتهدى الشيعة فى العصر الصفوى . فقد قال وهو يدفع عن أبيـه تهمة التصوف : « لايسيئن أحد الظن بأبى فيتوهم أنه كان من الصوفية . كلا ، ما كان منهم ؛ فقد عرفت أحوال أبى سراً وعلانية ، وأحطت بعقائده . كان أبى سيئ الظن بهم ، ولـكنه فى أول أمره حينما كان الصوفية فى عنفوان قوتهم ، انتظم فى صفوفهم ليستطيع أن يمحو و يستأصل جذور هذه الشجرة الخبيثة الزقّوميّة . فلما أخمد نار عارهم صرّح بما يكنّ فى نفسه » .

وقد كتب كثير من علماء الشيعة فى الطعن على الصوفية والتشنيع عليهم ، وأثاروا عليهم العامة فقتل كثير منهم .

فقد نال الصوفية من الاضطهاد ، وأصاب شـعرهم من الـكساد فى دولة الصفويين ما نال كثيراً من فروع الفكر والأدب الأخرى .

وفى التصوف تجلى نبوغ شعراء الفرس ، والشـعر الصوفىّ أجمل أشعارهم وأعلاها ، وأرقّها وأعمقها . فكان من العدوان على الصوفية أن نال الشعر الصوفىّ خاصة والشعر الفارسى عامة ما ناله من فتور وخمود .

ولـكن الصفويين — وإن بطشوا بالصوفية — لم يمحوا من الأدب الفارسى هذه النزعة الروحية التى شاعت فيه ، ولم يطمسوا هذه الصور الجميلة التى أبدعها فيه شعراء التصوف العظام . فما خلا الشعر الفارسى فى جملته من نفحات التصوف حتى عصرنا هذا . وما خلا أدباء الفرس من متصوفين فى العصور كلها .

وحسبي هنا مثلا من الشعر الصوفي في العصر الصفوي وماتلاه ، موشح هاتف الأصفهاني المسمى « ترجيع بند » والترجيع اصطلاح في الأدب الفارسي لموشح يكرر فيه بيت بعينه بعد كل قسم من أقسامه .

هاتف عاش أكثر عمره بعد زوال دولة الصفويين ، ولكنه عاش في آثار هذه الدولة ، وفي الأحوال الأدبية التي سيطرت في عهدها .

السيد أحمد هاتف الأصفهاني من أسرة آذريّة الأصل ؛ ولكنه ولد في أصفهان وعاش بها أكثر عمره ، وأمضى سنين في قم وكاشان .

وطلب العلم في صباه وبرع في اللغة العربية ، ويروى أن له فيها شعرا . وكان له منزلة في الأدب بين معاصريه .

وتوفي في مدينة قم سنة ١١٨٩ هـ .

وله ديوان فيه قصائد وغزليات ورباعيات . وهو في الغزل يسير على آثار سعدي وحافظ . وله مراث بليغة يرثي بها أصدقاءه وكبراء عصره .

وصيت هاتف في الأدب يرجع معظمه إلى ترجيعه الصوفي . فهو من الشعراء الذين أذاعت بصيتهم منظومة واحدة . وهم في تاريخ الأدب كثير .

ولعل هذا الفصل الذي أكتبه عن الأدب الفارسي في كتاب قصة الأدب ، لايتسع لترجيع طويل كهذا ؛ ولكن لابد منه للتمثيل ، ولايحسن الاكتفاء بجزء منه ؛ فقد ترجم إلى العربية لأول مرة أثناء كتابة هذا الفصل ، فينبغي أن يقدّم تحفة لقراء الكتاب على طوله .

وليس هاتف مبتكراً في ترجيعه . فقد سبقه شعراء التصوف فلم يدَعوا لقائل بعدهم مقالا . وفي ترجيعه هذا معان وألفاظ من شعر العطار وجلال الدين الرومي وأوحدي المراغي وغيرهم من أئمة الشعر الصوفي ؛ ولكن حسب هاتف أنه ارتفع إلى هذه الطبقة فأحسن محاكاتها ، وعارض أشعارها معارضة شاعر مطبوع ، لا ناظم مقلّد .

موشح هاتف

— ١ —

يا فداك الأرواح والأبدان وهي نثر الطريق لا العِقيان

مالكَ القلب ! فى فدائك قلبى ... مالكَ الروح ! مهجتى قربان
مَخلَص القلب من يديك عسير ... ويسيرٌ للروح فيك امتهان
ملأ طُرْقى إلى وصالك هَول ... داء عشقى يعيا به الحُسبان
أعْبُدٌ ، روحنا فِداك ورَهنُ الْـ ... أمر منك العيون والآذان
ذا فؤادى إن شئت صلحاً ، وروحى ... إن تر الحربَ . كلنا إذعان
طاف بى الشوق والصبابةُ وهنًا ... هائمَ القلب ، والهوى حيران
وانتهى بى هوى الحبيب لدير ... فيه جمع المجوس والرهبان
خلوةً جئت — لا رأت عين سوء — ... عندها الحق ضاء لا النيران
ورأيت النار التى راء موسى ... ليلة الطور والدُجى ضَحيان
يوقد النار بالتبتّل شيخ ... حوله من مجوسه ولدان
كل فضىّ العذار والخدّ ورد ... مبسم ضيّق ، وحلوٌ لسان
ورباب والناى والعود والشمـ ... ـع ونقل والراح والريحان
وبدير الكئوس كالبدر ساقٍ ... فكهٌ مطرب له ألحان
وشيوخ المجوس والوُلْد والمو ... بذ كلٌّ أمامه غلمان
ومن الدين قد عرانى حياء ... فتنحيت أن يرانى العيان
سأل الشيخُ من ترون ؟ فقالوا : ... عاشق عيل صبره ولهان
قال : كأساً من الرحيق وإن لم ... يُدعَ فى الشَرب ذلك النَدمان
صَبّ ناراً فى الكأس نارىّ كفّ[1] ... عابد النار كأسه ملآن
ضل حين احتسيت عقلى وحِسّى ... أُحرِق الكفر فىّ والإيمان
سقط السكر بى ، وفى ذلك السكر ... بلفظ يعيا به التبيان
قال هذا الكلام لى كل عضو ... فىّ حتى الوريد والشريان :

واحد ليس فى الوجود سواه
وحده لا إله إلا هو

---

(١) نارىّ كف : ترجمة آتش دست . وهى بالفارسية كناية عن السرعة والمهارة .

— ٢ —

لستُ يا خلّ صارما منك حبلى ... لا وإن فيك قُطّعت أوصالى
فمئات الأرواح منّا تفدّى ... بسمةً حلوةً بفيك الحالى
يا أباً فى الغرام يكثر نصحى ... لن ترى الابن أهل هـذا المقال
ينصح الناسُ بالسلوّ فهلاّ ... نصحونى بعشقك القتّال
أنا نحو النجاة أعرف نهجى ... ما احتيالى ؟ عَلِقت بالأحبال
راعنى فى الكنيس ظبى النصارى ... قلت : يا آسر القلوب الخالى
فى خيوط الزُنار قد شدّ شعرى ... شعرة شعرة بهذا الجمال
عن طريق التوحيد حتام تجفو ؟ ... وإلام التثليث ياذا المِحال ؟
كيف يُسمى الحق الوحيد بروح ... وأب وابنه لدى الضُلال
فَتح الثغر ساحراً بكلام ... فى ابتسام ينسيك عذب الزلال :
لو بسرّ التوحيد كنت خبيراً ... تهمةَ الكفر لم تُدِر بالبال
فى ثلاث من المرايا شعاع ... من مُحَيّا الجميل فى الآزال
أنت تدعو الحرير خزاً وديبا ... جا وإبريسَما على أقوال
بينما نحن فى الحديث إذ النا ... قوس دوّى لنا بلحن عال :

واحد ليس فى الوجود سواه
وحده لا إله إلا هو

— ٣ —

جئت بالأمس حانة المدام ... وبقلبى للعشق وقْدُ الضِرام
مجلساً جئت ذا بهاء ونور ... بائع الخمر رأس هـذا النظام
وقف الخادمون صفّا فصفّا ... ومن الشّرب حَلقة فى انتظام
جلس الشّرب حول شيخ مهيب ... بين سكر ودهشة الأحلام
طاهرو القلب ، والسريرة ودّ ... صمتوا والقلوب فيض كلام
كل عين ، من العناية ، للحق ... وأذن للسرّ والإلهام

قول هذا لذلك : اشرب هنيئا وهَناك الشرابُ ردّ النِدام
أذُنٌ للرباب ، والعين للكا س وطوع اليدين كل مرام
فتقدمت قائلا فى خشوع يا نجىَّ الملائك الأعلام
عاشق موجع يريد معيناً فانظرنْ ما دواء هذا السقام
ضحك الشيخ قائلا : إيه يامن لك شيخ العقول فى الخدَّام
أين منا أنت الذى من حياء منك بنت الكروم رهنُ اللثام
قلت : فى الروح شعلة هات ماءً يطفئُ النار وهى ذات ضرام
هذه النار أحرقتنى أمس ليت كالأمس ليلتى فى الغرام
ضاحكاً قال : هاك كأساً فلما نلتها قال : خَفْ كثير المدام
فتجرعت جرعة خلصتنى من شعورى ومحنة الأفهام
ثم أبصرت واحداً ما سواه ليس غير الخطوط والأرقام
بغتة من صوامع الكون أُسْمعت حديث المقرّبين الكرام :

واحد ليس فى الوجود سواه
وحده لا إله إلا هو

— ٤ —

افتح القلب تبصر الروح جهرا والذى لا يُرى تراه مُقرّا
إن توجّه لساحة العشق وجهاً ترَ كل الآفاق ورداً وعطرا
وتر الأنجم العلى دائرات بِمُنى أهل هذه الأرض طرّا
والذى يبتغى الفؤاد تراه وكذا كل ما ترى العين سرّا
وترى السائل الذى لا تبالى يزدرى ملك ذلك الكون كبرا
وترى للحفاة أقدام صدق فى ذرى الفرقدين تخطِر خطرا
وترى حاسرى الرءوس وظلّ العرش فوق الرءوس يبسط سترا
وترى كل واجد فى سماع نفضت كفّه العوالم حُرّا
وترى الشمس حين يسفر عنها كل قلب لذرة حين تُفرى
وترى العشق كيمياء لروح إن تُذِبها فى وقدة العشق حرّى

وترى مُلك « لا مكان » فسيحا إن تجد من ضيق الجهات مَفَرّا
والذى لا ترى العيون تراه سامعاً ما اختفى عن الأذن سِرّا
وإلى أن ترى من الخلق والعا لم فرداً له الفؤاد أقرا
أخلص الروح والفؤاد لفرد ترَ عينَ اليقين سرا وجهراً :
واحد ليس فى الوجود سواه
وحده لا إله إلا هو

— ٥ —

وجهه من مشارق الأنوار فى تجلّيه يا أولى الأبصار
فى متوع النهار تطلب شمساً ؟ أنت فى الليل من ضياء النهار
خلّص النفس من ظلامك تبصر كل شىء يفيض بالأنوار
قائداً تبغى والعصا كالاعمى فى طريق أضاء للتسيار
ألفُ لون ، والماء فى غير لون ، لك تبدو فى الورد والأزهار
فى طريق الطِلاب أقدم جريئاً وتزوّد بالعشق للأسفار
رُبّ أمر فى العشق يبدو يسيراً وهو فى العقل عُقدة النُظار
قل « حبيبى » بغدوة وأصيل واطلبَنْ بالعشىّ والإبكار
إن يقل ألف مرة : لن ترانى فاجعل الوجه قبلة الأنظار
لتنال المكان تعجز عنه قدم الوهم أو رُؤى الأفكار
وتُرى فى حضرة ليس فيها جبرئيل الأمين فى الحُضّار
ذلك الزاد والطريق وذا المنـ ـزل أقدم إن كنت أهل خِطار
وإذا للطريق لم تك أهلا قل حبيبى ، ونم إلى الأعذار
هاتفُ ! العارفون حين دعوهم أهل صحو حينا وصرعى عقار
مِن مُدام ومطرب وسقاة ومجوس والدير والزنار
قصدوا رامزين أسرار غيب هى بين الإيماء والإظهار
إن يلح سرُّهم لقلبك تعلم إن هذا لسرّ ذى الأسرار :
واحد ليس فى الوجود سواه
وحده لا إله إلا هو

وأختم هذا الفصل بالكلام عن شاعر من أكبر شعراء الفرس فى العصر الصفوى ، وعالم أديب من أكبر علمائهم وأدبائهم :

صائب الأصفهانى

ولد فى قرية عباس آباد على مقربة من أصفهان وحصّل العلم فى هذه المدينة . وسافر فى شبابه إلى الهند ، وكانت مطمح أدباء الفرس وشعرائهم . ولحق به أبوه فردّه إلى أصفهان . ونبه شأنه هناك واتصل بالشاه عباس الثانى الصفوى (١٠٥٢ — ١٠٧٧) وتوفى بأصفهان

وله مختارات من الشعر الفارسى دلت على سعة اطلاعه وحسن ذوقه . ويشبّهه الشيخ شبلى النعمانى بأبى تمام فى هذا الاختيار .

وكان صائب معجبا بحافظ يتخذه إماما . فظهرت فى شعره مَشابه من شعر حافظ ، من بُعد الغور ودقة التصوير وجمال التعبير .

وله ديوان كبير متداول مخطوط ومطبوع .

وفى شعر صائب تتجلى القوة الروحية ، والعظمة النفسية ، التى تهزأ بما تلقى من محن وشدائد ، وتعلو على كل رغبة ورهبة فى هذه الدنيا . وهو فى هذا يشبه جلال الدين الرومى ، ومحمد إقبال شاعر الهند فى العصر الحاضر . وإقبال يكرّر القول أنه من نفحات جلال الدين . وصائب يذكر فى مواضع من كتبه « مرشد الروم » يعنى جلال الدين ، معظّما له معجَبا به .

وهذه أمثلة قليلة من شعر صائب ذهبت الترجمة المنثورة بكثير من جمالها وروعتها :

— ١ —

تُلوّن براعيمَ القلوب أنفاسُنا ، وتأبى عار الرنين أجراسنا[1]
إن هيجان الربيع كامن فى عالمنا الحائر . وإن بدا يابساً قفصنا[2] الظاهر
عَطّلنا زينة المرج الناضر ، وشوكنا نظام الروض العاطر

---

(١) يشبه القلب بالبرعوم وهو الزهرة لم تفتح ، ويقول إن نفسنا ينضج هذا البرعوم وأجراسنا تؤثر بغير صوت . ومعنى البيت الثانى والثالث أن ظاهر هؤلاء الناس فيه فقر وضعف ولكن فى قلوبهم الجمال والجلال والقوة . (٢) القفص : محبس الطير المعروف .

نُصعّد كصدر الشمس أنفاسنا ناضجة ، لا كأنفاس الصباح الباردة
استيقظ الورد المصوّر من نوح البلابل ، وكذلك إمدادنا للربيع النائم
أشفق قلب العشق من فجاجتنا ، ودمى قلب البستان من غضّ ثمارنا(١)
كل برعوم ضحك بنفَسنا اللطيف ، لا يبرد قلبُه الحار برياح الخريف

— ٢ —

لست ممن يحفلون بالذهب والنِثار ، إنما تحفة المحترفين قبضة من شرار
لا أتخذ البساتين والحصون فى البلاد ، إنما بستانى البيداء وحصونى الأطواد
تداركْ من أظلمت أيامهم بسراج يبعث النور ، ليكون شمعاً على قبرك المهجور
إن شوكا من أجل الناس ترفعه ، ينقلب ربيعاً فى ترابك منبعه
إن تُصِب قلب نملة بغمّ يسير ، أوقِظت فى قبرك للحساب العسير

— ٣ —

جُرحُنا يتحدّى الخِنجرَ ، وزجاجنا يصادم الحجر
إن شوق الساقطين فى طريق العشق ، يأخذ القدم ويمنح الجناح برفق
اليأس أول أملنا ، وإنما يُثمر حين يَذبل ، نخلنا
لا يُحرَم العنكبوت صيدَ الذُباب ، يعطى الرزق جناحا ذلك الرازق الوهاب الخ

— ٤ —

الفَلَك من تجمّلنا بغير قرار ، والسيف من تحملنا فى نار
بلغتْ أوج الشمس قطرةُ الندى ، كذلك تنزّلُنا فى رقىّ على المدى
نبلغ المطالب بالانكسار ، ولنا من الانكسار سلّم كموج البحار
حتّام الشكوى من عناء الشباك ، إن فى هذا العناء رَوح الإدراك
يا صائبُ ! من الأفكار شعر ذو ألوان ، ومن تغريد بلبلنا هذا الروض ذو أفنان

* * *

ومن علماء هذا العصر وأدبائه الذين تتمثل فيهم الثقافة فى نواحيها المتعددة :

---

(١) يعنى أن حالتهم الدنيا لها أثر عظيم فكيف بأحوالهم العليا .

بهاء الدين العاملى

بهاء الدين محمد بن حسين بن عبد الصمد الحارثى العاملى الهَمْدانى ، ولد فى بعلبك سنة ٩٥٣ هـ .

كان أبوه حسين من علماء الشيعة فى جبل عامل . وكان من تلاميذ الشيخ زين الدين الملقب بالشهيد الثانى . فلما قتل الترك زينَ الدين لتشيعه ، هاجر الشيخ حسين إلى إيران . وكانت إذ ذاك موطنا لدعوة الشيعة ، وملجأ لعلمائهم ، فى سلطان الدولة الصفوية . وسافر معه ابنه بهاء الدين صبيًا .

وفى إيران جدّ بهاء الدين فى تحصيل العلوم ولاسيما العلوم الدينية والرياضة والطب ، وأخذ عن والده وعلماء آخرين منهم ملاّ عبد الله اليزدى تلميذ جلال الدين الدَوانى تلميذ السيد الشريف الجرجانى .

وذاع صيت بهاء الدين وعلت مكانته حتى تولى مشيخة الإسلام فى إصفهان دار الملك .

ثم سافر للحج وطوّف فى الحجاز ومصر والشام والعراق فى زىّ الدراويش سنين كثيرة ؛ يقال إنه ساح ثلاثين سنة .

وفى مصر جمع كتاب الكشكول . قال المنينى [1] : « وكان يجتمع مدة إقامته بمصر بالأستاذ محمد بن أبى الحسن البكرى . وكان الأستاذ يبالغ فى تعظيمه ؛ فقال له مرة : يا مولانا أنا درويش فقير فكيف تعظمنى هذا التعظيم ؟ . قال شممت منك رائحة الفضل .

وامتدح الأستاذ بقصيدته المشهورة التى مطلعها :

يامصر سقيا لك من جنة قطوفها يانعة دانية »

والظاهر أنه كان يكتم أمره فى سياحته ولا يرغب فى التعريف بنفسه . وقد لقى كثيرا من العلماء والصوفية ثم رجع إلى أصفهان . وبلغ عند السلاطين الصفوية أرفع المنازل قال المنينى :

« ثم عاد وقطن بأرض العجم . وهناك همى غيث فضله وانسجم . فألف وصنّف ، وقرط المسامع وشنّف . وقصدته علماء تلك الأمصار ، واتفقت على فضله أسماعهم والأبصار . وغالت

---

(١) انظر كلام المنينى فى آخر كتاب الكشكول ط القاهرة .

تلك الدولة فى قيمته ، واستمطرت غيث الفضل من ديمته . فوضعته على مفرقها تاجا ، وأطلعته فى مشرقها سراجا وهّاجا . وتبسمت به دولة سلطانها شاه عباس ، واستنارت بشموس رأيه عند اعتكار حنادس الباس . فكان لا يفارقه سفرا ولا حضرا ، ولا يعدل به سماعا ونظرا ..

وكانت له دار مشيدة البناء ، رحبة الفناء ، يلجأ إليها الأيتام والأرامل ، ويغدو عليها الراجى والآمل . فكم مهد بها وضع ، وكم طفل بها رضع . وهو يقوم بنفقتهم بكرة وعشيا ، ويوسعهم من جاهه جنابا مَغشيّا » .

وكانت وفاته سنة ١٠٣١ هـ ، بأصفهان ونقل منها إلى طوس فدفن بداره على مقربة من مسجد على الرضا . وقد زرت قبره حينما ذهبت إلى مشهد طوس عام ١٣٥٢ هـ .

وكان الشيخ العاملى من كبار علماء الشيعة ودولةُ الصفويين فى أوجها ، أيام الشاه عباس الكبير . وقد ألف فى فقه الشيعة وأصول الفقه والتفسير والحديث والنحو والبلاغة والهيئة والفلك والحساب والهندسة .

وله كتابا الكشكول والخلاة فى مسائل شتى غير مرتبة ، يغلب عليها الأدب والتصوف والفلسفة والرياضة . وقد كتب فى كل موضوع عرف فى عصره حتى الجفر والرمل والطلاسم . وله فى هذه الفنون خمسة وتسعون كتابا ورسالة[1] .

وللشيخ بهاء الدين من سعة العلم ، وتعدد الفنون ، وجودة التأليف والتلخيص ، وصحة التعبير ، ومن البراعة فى النظم والنثر ما لم يتفق إلا لقليل من العلماء .

وكانت عيشته واسعة مختلفة الجوانب كسعة علمه وتعدد فنونه . كان شيخ الإسلام فى دولة الصفويين ، وكان ذا منزلة عالية عند سلاطينهم ، وكان يخالط أصناف الناس كلها : يخالط العلماء والصوفية ، ويشهد حلقات الحوّائين والمشعوذين ، ويُرَى حيناً مع الشاه عباس الكبير ، وحيناً فى بيت عجوز فقيرة .

وقد طالت سياحته ، وامتدت إلى أقاليم مختلفة فزادته معرفة بالناس ، وتجربة بالجماعات والأفراد .

وكان مرجعَ العلماء والأدباء فى حياته . وما تزال كتبه مرجعاً لهم بعد مماته ، ولاسيما كتاب الجامع العباسى فى الفقه ، وزبدة الأصول فى أصول الفقه ، والحبل المتين فى الحديث

---

(١) انظر كتاب الشيخ البهائى لسعيد نفيسى .

والفقه ، ومفتاح الفلاح فى الأوراد والأذكار ، إلى شعره العربى والفارسى الذى يتمثل به الناس فى أحوال مختلفة ، وموضوعات شتّى .

وكان الشيخ ، على مشاركته فى كل فن ومخالطته لكل صنف ، نقىّ السيرة ، مبرّأ من المطاعن ، تقيّا زاهداً . لم تشغله مشيخة الإسلام ، وممارسة الفنون الكثيرة عن رياضة نفسه وتصفيتها ، وسلوك طريق الصوفية ؛ بل رأى هذه الرياضة أعلى وأجدى من علوم الظاهر ، ونعى على الواقفين عند حدود العلوم ، الغافلين عما وراء هذه الرسوم :

أيها القوم الذى فى المدرسه ... كل ما حصّلتموه وسوسه
ذكركم إن كان فى غير الحبيب ... ما لكم فى النشأة الأخرى نصيب
علم رسمى سر بسر قيلست وقال ... نه أزو كيفيتى حاصل نه حال
علم نبود غير علم عاشقى ... ما بقى تلبيسُ إبليس الشقى

أدبه :

كان العاملى من أدباء اللغتين العربية والفارسية وله شعر عربىّ جيّد منه قصيدة فى مدح الإمام المهدى صاحب الزمان أولها :

سرى البرق من نجد فجدّد تذكارى ... عهوداً بحُزوَى والعُذَيب وذى قار
وهيج من أشواقنا كل كامن ... وأجّج فى أحشائنا لاعج النار
ألا ياليُيَيلات الغُوير وحاجر ... سُقيتِ بهام من بنى المزن مدرار
وياجيرةً بالمأزِمين خيامهم ... عليكم سلام الله من نازح الدار
خليلىّ مالى والزمان كأنما ... يطالبنى فى كل وقت بأوتار
فأبعد أحبابى وأخلى مرابعى ... وأبدلنى من كل صفو بأكدار
وعادل بى من كان أقصى مرامه ... من المجد أن يسمو إلى عشر معشار

وللشيخ تمكن فى الأدب الفارسى له فيه مؤلفات منثورة ومنظومة ؛ منها قصة القط والفأر ، وهى قصة صوفية منثورة ، وكتاب اللبن والسكر ، وكتاب الخبز والحلوى . وهما منظومتان صوفيتان كذلك .

وفى خلال شعره الفارسى كثير من الأبيات العربية تصلح أن تكون مثالا من شعره ، وتغنى عن ترجمة بعض أبياته الفارسية .

فى فاتحة منظومة الخبز والحلوى :

أيها اللاهى عن العهد القديم أيها الساهى عن النهج القويم
استمع ماذا يقول العندليب فهو يروى من أحاديث الحبيب
يا بريد الحىّ أخبرنى بما قاله فى حقنا أهل الحمى
هل رضوا عنا ومالوا للوفا أم على الهجر أقاموا والجفا

وفى الكتاب فصل عنوانه : « فى التأسف والندامة على صرف العمر فيما لا ينفع يوم القيامة » وأوّله :

قد صرفت العمر فى قيل وقال يا نديمى قم فقد ضاق المجال
واسقنى تلك المدام السلسبيل إنها تهدى إلى خير السبيل
هاتها صهباء من خمر الجِنان دع كئوساً واسقنيها بالدنان
ضاق وقت العمر عن آلاتها هاتها من غير عصر هاتها
قم أزل عنى بها رسم الهموم إن عمرى ضاع فى علم الرسوم

وأول فصل آخر عنوانه « فى تأويل قول النبى صلى الله عليه وسلم حب الوطن من الإيمان » .

أيها المأسور فى قيد الذنوب أيها المحروم من سرّ الغيوب
لا تقم فى إثر لذات الجسد إنها فى الجيد حبل من مسد
قم توجّه شطر إقليم النعيم واذكر الأوطان والعهد القديم

وفى المنظومة فصل عنوانه : « فى نغمات الجنان من جذبات الرحمة » منه :

اشف قلبى أيها الساقى الرحيم بالتى يحيا بها العظم الرميم
خمرة من نار موسى نورها دنّها قلبى ، وصدرى طُورها
دأبها ارجاع أيام الشباب من يذق منها عن الكونين غاب
قم ولا تُمهل فإن الصبح لاح والثريا غرّبت والديك صاح
يا مغنىّ قم فإن العمر ضاع لا يطيب العيش إلا بالسماع
وارو عندى من أحاديث الحبيب إن وقتى فى سواها لا يطيب

واطو عنّى ذكر أيام الفراق إن ذكر العهد مما لايطاق
قم وزمزم لى بأشعار العرب كى يتم الحظ فينا والطرب
وافتتح منها بنظم مستطاب قلته فى بعض أيام الشباب
قد صرفت العمر فى قيل وقال ياندیمى قم فقد ضاق المجال
ثم زمزم لى بأشعار العجم كى تريح الروح من همّ وغمّ
وابتدئ منها ببيت المثنوى للحكيم المولوىّ المعنوى
بشنو أزنى چون حكايت ميكند از جدائيها شكايت ميكند[1]

(وينقل هنا مقدمة المثنوى كلها ؛ ثم يعود إلى النظم العربى فيختم به المنظومة) :

قم وخاطبنى بكل الألسنة علّ قلبى ينتبه من ذى السِّنه
إنه فى غفلة عن حاله خابط فى قيله مع قاله
كلُّ آنٍ زاده قيد جديد قائلا من جهله : هل من مزيد
نائم فى الغىّ قد ضلّ الطريق هائم من سكره لا يستفيق
عاكف دهراً على أصنامه يهزأ الكفّار من إسلامه
كم أنادى وهو لا يصغى التناد وافؤادى وافؤادى وافؤاد
يا بهائىّ اتخذ قلباً سواه فهو ما معبوده إلا هواه

تم القسم الثانى من الجزء الثانى
ويليه الجزء الثالث إن شاء الله

---

(١) ترجمة هذا البيت :
استمع للناى غنّى وحكى شفّه البَين طويلا فشكا

مكتبة العرب
مديرها : صلاح الدين البستاني
٢٨ ش كامل صدقي (الفجالة) القاهرة

809.KSIKA-V.2:pt.2:c.1
محمود زكي نجيب
قصة الأدب في العالم
UNIVERSITY OF ILLINOIS LIBRARIES

DATE DUE

JAFET LIB.
23 APR 2002
Circulation Dept.

JAFET LIB.
30 JUN 2008
Circulation Dept. 3

809:A51kA:v.2:pt.2:c.1
محمود ،زكى نجيب
قصة الادب فى العالم...
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01030936
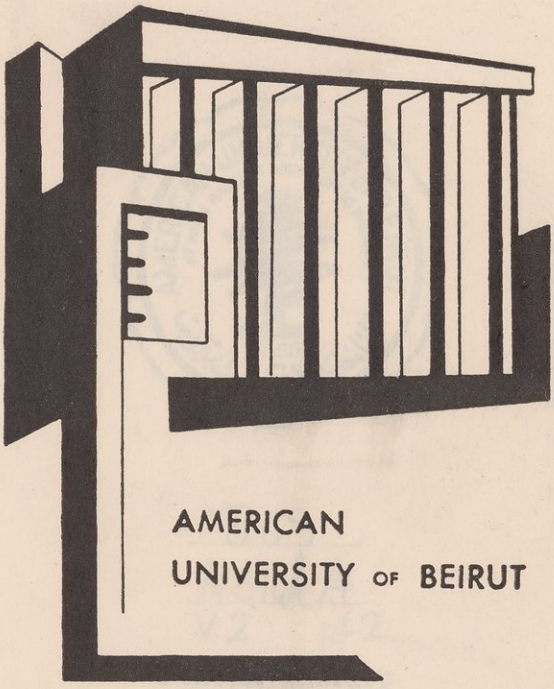
American University of Beirut